كارلوس كاستانيدا: الجانب النشط من اللانهائية، الكتاب العاشر في السلسلة.

الفهرس:

كارلوس كاستانيدا

الجانب النشط من اللانهائية

وتابع قائلاً: "إن ثورة السحرة هي أنهم يرفضون الالتزام بالاتفاقيات التي لم يشاركوا فيها". لم يسألني أحد قط إذا كنت أوافق على أن أؤكل من قبل كائنات ذات نوع مختلف من الوعي. لقد جلبني والداي إلى هذا العالم لأكون طعامًا مثلهما، وهذه هي نهاية القصة.

ترجمة مجموعة الروح، ما في الجنة إلا الله

كان كارلوس كاستانيدا مؤلفًا لعشرة كتب من أكثر الكتب مبيعًا، بما في ذلك الكتاب الكلاسيكي الشهير "تعاليم دون خوان".

وأحدثها كتاب فن الأحلام والتمريرات السحرية. لقد غادر في رحلته النهائية في عام 1998.

§ الجانب النشط من اللانهائية §

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الأحداث التي لا تنسى في حياتي. لقد كشف لي دون خوان مع مرور الوقت أن الشامان في المكسيك القديمة قد تصوروا هذه المجموعة من الأحداث التي لا تنسى كجهاز حقيقي لتحريك مخابئ الطاقة الموجودة داخل الذات. وقد فسروا هذه المخابئ بأنها تتكون من طاقة تنشأ في الجسم نفسه ثم تنتقل إلى مكان آخر، وتدفعها ظروف حياتنا اليومية بعيدًا عن متناولنا. بهذا

المعنى، كانت مجموعة الأحداث التي لا تنسى، بالنسبة لدون خوان والشامان من سلالته، الوسيلة لإعادة نشر طاقتهم غير المستخدمة.

لقد جمعتها بناءً على توصية من دون خوان ماتوس، وهو شامان هندي من قبيلة ياكي من المكسيك، والذي سعى كمدرس لمدة ثلاثة عشر عامًا إلى توفير العالم المعرفي للشامان الذين عاشوا في المكسيك في العصور القديمة. كان اقتراح دون خوان ماتوس أن أجمع هذه المجموعة من الأحداث التي لا تُنسى بمثابة أمرٍ عابر، حدث له فجأة.

كان هذا أسلوب دون خوان في التدريس. لقد حجب أهمية بعض المناورات وراء الأمور الدنيوية. لقد أخفى بهذه الطريقة لسعة النهاية، وقدمها وكأنها شيء لا يختلف عن أي من هموم الحياة اليومية.

كشف لي دون خوان مع مرور الوقت أن الشامان في المكسيك القديمة قد ابتكروا هذه المجموعة من الأحداث التي لا تُنسى كجهاز حقيقي لتحريك مخابئ الطاقة الموجودة داخل الذات. وقد فسروا هذه المخابئ بأنها تتكون من طاقة تنشأ في الجسم نفسه ثم تنتقل إلى مكان آخر، وتدفعها ظروف حياتنا اليومية بعيدًا عن متناولنا. وبهذا المعنى، كانت مجموعة الأحداث التي لا تُنسى بالنسبة لدون خوان و

الشامان من سلالته، والوسائل لإعادة نشر طاقتهم غير المستخدمة.

كان الشرط الأساسي لهذه المجموعة هو العمل الحقيقي والمستهلك المتمثل في جمع مجموع مشاعر المرء وإدراكاته، دون توفير أي شيء. وفقًا لدون خوان، كان الشامان من سلالته مقتنعين بأن جمع الأحداث التي لا تُنسى كانت بمثابة الوسيلة للتعديل العاطفي والحيوي اللازم للمغامرة، من حيث الإدراك، في المجهول.

وصف دون خوان الهدف الشامل للمعرفة الشامانية التي تعامل معها باعتبارها التحضير لمواجهة الرحلة النهائية: الرحلة التي يجب على كل إنسان أن يقوم بها في نهاية حياته. وقال إنه من خلال انضباطهم وعزيمتهم، كان الشامان قادرين على الاحتفاظ بوعيهم الفردي وهدفهم بعد الموت. بالنسبة لهم، كانت الحالة المثالية الغامضة التي يسميها الإنسان الحديث "الحياة بعد الموت" عبارة عن منطقة ملموسة مليئة بالشؤون العملية ذات النظام المختلف عن الشؤون العملية للحياة اليومية، ولكنها تحمل نفس التطبيق العملي الوظيفي. اعتبر دون خوان أن جمع الأحداث التي لا تنسى في حياتهم كانت، بالنسبة للشامان، بمثابة التحضير لدخولهم إلى تلك المنطقة الملموسة التي أطلقوا عليها الجانب النشط من اللانهائية.

في أحد الأيام، كنت أنا ودون خوان نتحدث تحت رماداه، وهو بناء فضفاض مصنوع من أعمدة رفيعة من الخيزران. بدا الأمر وكأنه شرفة مسقوفة جزئيًا مظللة من الشمس ولكن هذا لن يوفر أي حماية من المطر على الإطلاق. كانت هناك بعض صناديق الشحن الصغيرة والمتينة هناك والتي كانت بمثابة مقاعد. كانت علامات شحنهم باهتة، وبدت وكأنها مجرد زينة أكثر منها وسيلة تعريف. كنت جالسا على واحد منهم. كان ظهري مستندًا إلى الحائط الأمامي للمنزل. كان دون خوان جالسًا على صندوق آخر، متكئًا على عمود يدعم الخيمة. لقد وصلت للتو قبل بضع دقائق. لقد كانت رحلة طويلة في طقس حار ورطب. كنت متوترًا، قلقًا، ومتعرقًا.

بدأ دون خوان بالتحدث معي بمجرد أن استقريت بشكل مريح على الصندوق. وبابتسامة عريضة، علق قائلاً إن الأشخاص الذين يعانون من زيادة الوزن نادراً ما يعرفون كيفية محاربة السمنة. الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه أعطتني إحساسًا بأنه لم يكن يمزح. لقد كان يشير لي فقط، بطريقة مباشرة وغير مباشرة في نفس الوقت، إلى أنني أعاني من زيادة الوزن.

لقد أصبحت متوترة للغاية لدرجة أنني وقعت من على صندوق الشحن الذي كنت أجلس عليه وارتطم ظهري بقوة بالحائط الرقيق للمنزل. أدى التأثير إلى اهتزاز المنزل حتى أساساته. نظر إلي دون خوان متسائلاً، لكن بدلاً من أن يسألني إذا كنت بخير، أكد لي أنني لم أقم بكسر المنزل. ثم شرح لي بإسهاب أن منزله كان مسكنًا مؤقتًا بالنسبة له، وأنه في الحقيقة يعيش في مكان آخر. عندما سألته أين يعيش حقًا، حدق بي. لم تكن نظراته عدائية، بل كانت بمثابة رادع قوي للأسئلة غير اللائقة. لم أفهم ماذا يريد. كنت على وشك أن أسأل نفس السؤال مرة أخرى، لكنه أوقفني.

"لا يتم طرح مثل هذه الأسئلة هنا"، قال بحزم. "اسأل عن أي شيء تريده حول الإجراءات أو الأفكار. عندما أكون مستعدًا لإخبارك بمكان عيشي، إن حدث ذلك على الإطلاق، فسأخبرك، دون أن تضطر إلى سؤالي.

شعرت بالرفض على الفور. وجهي أصبح أحمر بشكل لا إرادي. لقد شعرت بالإهانة بالتأكيد. لقد أضاف انفجار دون خوان من الضحك إلى حزني بشكل كبير. لم يرفضني فقط، بل أهانني ثم ضحك علي.

"أنا أعيش هنا مؤقتًا،" تابع، غير مبالٍ بمزاجي السيئ، "لأن هذا مركز سحري. في الحقيقة، أنا أعيش هنا بفضلك.

لقد أذهلني هذا البيان. لم أستطع أن أصدق ذلك. اعتقدت أنه ربما كان يقول ذلك لتخفيف انزعاجي من الإهانة. "هل تعيش حقًا هنا بسببي؟" سألته أخيراً، ولم أتمكن من احتواء فضولي.

"نعم" قال بهدوء. "لابد أن أقوم بتجهيزك." أنت تشبهني. سأكرر لك الآن ما قلته لك بالفعل: إن مهمة كل ناغوال، أو زعيم، في كل جيل من الشامان، أو السحرة، هي العثور على رجل أو امرأة جديدة، مثله، يظهر بنية طاقة مزدوجة؛ لقد رأيت هذه الميزة فيك عندما كنا في محطة الحافلات في نوغاليس. عندما أرى طاقتك، أرى كرتين من الضوء متراكبتين، واحدة فوق الأخرى، وهذه الميزة تربطنا معًا. لا أستطيع أن أرفضك أكثر مما تستطيع أن ترفضني. لقد تسببت كلماته في اضطراب غريب في داخلي. قبل لحظة كنت غاضبًا، والآن أردت البكاء.

وتابع قائلاً إنه أراد أن يبدأ معي في شيء يسميه الشامان طريق المحاربين، مدعومًا بقوة المنطقة التي عاش فيها، والتي كانت مركزًا لمشاعر وردود أفعال قوية للغاية. لقد عاش هناك أناس محاربون لآلاف السنين، وقد غمروا الأرض بقلقهم بشأن الحرب.

كان يعيش في ذلك الوقت في ولاية سونورا في شمال المكسيك، على بعد حوالي مائة ميل جنوب مدينة غوايماس. كنت أذهب دائمًا إلى هناك لزيارته في إطار إجراء عملي الميداني.

"هل أحتاج إلى الدخول في الحرب، دون خوان؟" سألته وأنا أشعر بقلق حقيقي بعد أن أعلن أن الاهتمام بالحرب هو شيء سأحتاجه يومًا ما. لقد تعلمت بالفعل أن آخذ كل ما يقوله بأقصى قدر من الجدية.

"بالتأكيد، هذا ما قاله وهو يبتسم." "عندما تستوعب كل ما يجب استيعابه في هذه المنطقة، سأبتعد."

لم يكن لدي أي سبب للشك فيما كان يقوله، ولكن لم أتمكن من تصور أنه يعيش في أي مكان آخر. لقد كان جزءًا مطلقًا من كل ما يحيط به. لكن منزله بدا وكأنه مسكن مؤقت بالفعل. كان كوخًا نموذجيًا لمزارعي ياكي؛ كان مصنوعًا من الخشب والطين بسقف مسطح من القش؛ وكان به غرفة كبيرة للأكل والنوم ومطبخ بدون سقف.

وقال "من الصعب جدًا التعامل مع الأشخاص الذين يعانون من زيادة الوزن".

بدا الأمر وكأنه كلام غير مترابط، لكنه لم يكن كذلك. كان دون خوان ببساطة يعود إلى الموضوع الذي طرحه قبل أن أقاطعه بضرب ظهري بجدار منزله.

"قبل دقيقة، ضربت منزلي مثل كرة الهدم"، قال وهو يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر. "يا له من تأثير! "تأثير يليق برجل بدين."

لقد شعرت بعدم الارتياح لأنه كان يتحدث معي من وجهة نظر شخص تخلى عني. لقد اتخذت موقفًا دفاعيًا على الفور. لقد استمع بسخرية إلى تفسيراتي المحمومة بأن وزني طبيعي بالنسبة لبنية عظامي.

"هذا صحيح،" اعترف مازحا. "لديك عظام كبيرة." ربما يمكنك حمل ثلاثين رطلاً إضافيًا بكل سهولة ولن يلاحظ أحد ذلك، أؤكد لك، لن يلاحظه أحد. "لن ألاحظ."

ابتسامته الساخرة أخبرتني أنني كنت ممتلئ الجسم بالتأكيد. ثم سألني عن صحتي بشكل عام، وواصلت الحديث، محاولًا بشكل يائس تجنب أي تعليق آخر حول وزني. لقد غيّر الموضوع بنفسه.

"ما الجديد في غرائبك وانحرافاتك؟" سأل بتعبير جامد.

أجبت بغباء أنهم بخير. "الغرابة والانحرافات" كانت هي الطريقة التي وصف بها اهتمامي بكوني جامعًا. في ذلك الوقت، بدأت، بحماس متجدد، في القيام بشيء كنت أستمتع بفعله طوال حياتي: جمع أي

شيء قابل للتحصيل. لقد جمعت المجلات والطوابع والسجلات والأغراض المتعلقة بالحرب العالمية الثانية مثل الخناجر والخوذات العسكرية والأعلام وما إلى ذلك.

"كل ما أستطيع أن أخبرك به، يا دون خوان، عن انحرافاتي، هو أنني أحاول بيع مجموعاتي"، قلت بنفسي كشهيد يُجبر على القيام بشيء بغيض.

"أن تكون جامعًا ليس فكرة سيئة على الإطلاق"، قال ذلك وكأنه يؤمن بذلك حقًا. "إن جوهر الأمر ليس ان تجمع، بل ماذا تجمع. أنت تجمع أشياء غير مرغوب فيها، أشياء لا قيمة لها، والتي تسجنك بالتأكيد كما يفعل كلبك الأليف. لا يمكنك ببساطة أن تغادر إذا كان لديك حيوان أليف للاعتناء به، أو إذا كان عليك أن تقلق بشأن ما قد يحدث لمقتنياتك إذا لم تكن موجودًا.

"أنا أبحث بجدية عن مشترين، يا دون خوان، صدقني"، احتججت.

"لا، لا، لا تشعر أنني أتهمك بأي شيء،" رد. "في الواقع، أنا أحب روح الجامعه. أنا فقط لا أحب مجموعاتك، هذا كل شيء. ومع ذلك، أود أن أجذب انتباه عينك الجامعة. "أود أن أقترح عليك مجموعة جديرة بالاهتمام."

توقف دون خوان لوقت طويل. لقد بدا وكأنه يبحث عن الكلمات؛ أو ربما كان مجرد تردد درامي في محله. لقد نظر إلي بنظرة عميقة وثاقبة. "كل محارب، كواجب، يجمع ألبومًا خاصًا"، تابع دون خوان، "ألبوم يكشف عن شخصية المحارب، ألبوم يشهد على ظروف حياته".

"لماذا تسمي هذا مجموعة، دون خوان؟" سألت بنبرة جدلية. "أو ألبوم، في هذا الشأن؟"

"لأنه كلاهما"، رد. "ولكن قبل كل شيء، فهو أشبه بألبوم صور مصنوع من الذكريات، صور مصنوعة من استرجاع الأحداث التي لا تنسى."

"هل هذه الأحداث التي لا تُنسى لا تُنسى بطريقة معينة؟" سألت. "إنها لا تُنسى لأنها تحمل أهمية خاصة في حياة المرء"، قال. "اقتراحي هو أن تقوم بتجميع هذا الألبوم من خلال تضمينه سردًا كاملاً للأحداث المختلفة التي كانت ذات أهمية عميقة بالنسبة لك."

"كل حدث في حياتي كان له أهمية كبيرة بالنسبة لي، دون خوان!" قلت ذلك بقوة، وشعرت على الفور بتأثير غروري.

"ليس حقًا،" أجاب مبتسمًا، ويبدو أنه كان يستمتع بردود أفعالي كثيرًا. "لم يكن لكل حدث في حياتك أهمية كبيرة بالنسبة لك. ومع ذلك، هناك عدد قليل من الأشياء التي أعتقد أنها من المحتمل أن تغير الأمور بالنسبة لك، وتنير طريقك. عادةً، تكون الأحداث التي تُغير مسار حياتنا أمورًا غير شخصية، ومع ذلك فهي شخصية للغاية.

"أنا لا أحاول أن أكون صعبًا، يا دون خوان، لكن صدقني، كل ما حدث لي يفي بهذه المؤهلات"، قلت، وأنا أعلم أنني أكذب.

مباشرة بعد أن قلت هذا الكلام، أردت أن أعتذر، لكن دون خوان لم يعرنِ انتباهه. لقد كان الأمر كما لو أنني لم أقل شيئًا.

"لا تفكر في هذا الألبوم من حيث الأشياء العادية، أو من حيث إعادة صياغة تجارب حياتك"، كما قال.

أخذت نفسًا عميقًا، وأغلقت عيني، وحاولت تهدئة عقلي. كنت أتحدث مع نفسي بشكل محموم عن مشكلتي التي لا حل لها: أنا بالتأكيد لا أحب زيارة دون خوان على الإطلاق. في حضوره شعرت بالتهديد. لقد هاجمني لفظيًا ولم يترك لي أي مجال على الإطلاق لإظهار قيمتي. كنت أكره فقدان وجهي في كل مرة أفتح فمي؛ كنت أكره أن أكون أحمق.

ولكن كان هناك صوت آخر في داخلي، صوت جاء من عمق أكبر، أبعد، خافت تقريبًا. في خضم وابل الحوارات المعروفة، سمعت نفسي أقول أنه فات الأوان بالنسبة لي للعودة. ولكن في الحقيقة لم يكن صوتي أو أفكاري هي ما كنت أشعر به؛ بل كان الأمر أشبه بصوت مجهول قال لي إنني ابتعدت كثيرًا عن عالم دون خوان، وأنني أحتاج إليه أكثر من حاجتي إلى الهواء.

"قل ما تريد"، بدا الصوت وكأنه يقول لي، "ولكن إذا لم تكن مهووسًا بنفسك كما أنت، فلن تشعر بهذا القدر من الانزعاج".

"هذا هو صوت عقلك الآخر"، قال دون خوان، وكأنه كان يستمع إلى أفكاري أو يقرأها.

قفز جسدي لا إراديًا. كان خوفي شديدًا لدرجة أن الدموع ملأت عيني. اعترفت لدون خوان بطبيعة اضطرابي بالكامل.

"إن صراعك طبيعي جدًا"، قال. "صدقني، أنا لاأزيد الأمر سوءًا إلى هذه الدرجة. أنا لست من هذا النوع. لدي بعض القصص لأخبرك بها عما كان يفعله معي معلّمي، الناغوال جوليان. لقد كرهته بكل كياني. كنت

صغيرًا جدًا، ورأيت كيف كانت النساء يعشقنه، ويسلمن أنفسهن له مثل أي شيء، وعندما كنت أحاول أن أقول لهن مرحبًا، كن ينقلبن ضدي مثل اللبؤات، على استعداد لعض رأسي. لقد كرهوني وأحبوه. كيف تعتقد أنني شعرت؟

"كيف حللت هذا الصراع يا دون خوان؟" لقد سألت باهتمام أكثر من حقيقي.

"لم أحل أي شيء"، صرح. "إنه الصراع أو أيًا كان، كان نتيجة المعركة بين عقليّ. كل واحد منا من البشر لديه عقلين. واحد هو ملكنا بالكامل، وهو مثل صوت خافت يجلب لنا دائمًا النظام والوضوح والغرض. العقل الآخر هو تركيب أجنبي. "إنه يجلب لنا الصراع، وتأكيد الذات، والشكوك، واليأس."

كان تركيزي على تسلسلاتي العقلية قويًا لدرجة أنني فاتتني تمامًا ما قاله دون خوان. لقد استطعت أن أتذكر بوضوح كل كلمة من كلماته، لكنها لم تكن ذات معنى بالنسبة لي. دون خوان كرر بهدوء شديد، وهو ينظر مباشرة في عيني، ما قاله للتو. مازلت غير قادر على استيعاب ما يعنيه. لم أستطع تركيز انتباهي على كلماته.

"لسبب غريب، دون خوان، لا أستطيع التركيز على ما تقوله لي"، قلت.

"أنا أفهم تمامًا لماذا لا يمكنك ذلك"، قال مبتسمًا بشكل واسع، "وسوف تفهم أنت أيضًا، في يوم من الأيام، في نفس الوقت الذي تحل فيه الصراع حول ما إذا كنت تحبني أم لا، في اليوم الذي تتوقف فيه عن كونك مركز الأنا في العالم.

"وفي هذه الأثناء،" تابع، "دعنا نضع موضوع تفكيرنا جانبًا ونعود إلى فكرة إعداد ألبومك للأحداث التي لا تنسى. يجب أن أضيف أن مثل هذا الألبوم هو تمرين في الانضباط والنزاهة. اعتبر هذا الألبوم بمثابة عمل حربي.

إن تأكيد دون جوان - بأن صراعي بين الإعجاب وعدم الإعجاب برؤيته سوف ينتهي عندما أتخلى عن أنانيتي - لم يكن حلاً بالنسبة لي. في الواقع، هذا التأكيد جعلني أكثر غضبًا، لقد أحبطني أكثر فأكثر. وعندما سمعت دون خوان يتحدث عن الألبوم باعتباره عملاً من أعمال الحرب، هاجمته بكل السموم التي أملكها.

"إن فكرة أن هذه مجموعة من الأحداث يصعب فهمها بالفعل"، قلت بنبرة احتجاج. "لكن علاوة على كل هذا، فإنك تسميه ألبومًا وتقول إن مثل هذا الألبوم هو عمل حربي، وهذا أمر لا أستطيع تحمله. إنه غامض للغاية. إن الغموض يجعل الاستعارة تفقد معناها.

"كم هو غريب! "إنه العكس بالنسبة لي،" أجاب دون خوان بهدوء. "إن مثل هذا الألبوم الذي يعتبر بمثابة عمل حربي له كل المعنى في العالم بالنسبة لي. لا أريد لألبومي الذي يحتوي على أحداث لا تُنسى أن يكون سوى عمل حربي.

أردت أن أؤكد وجهة نظري أكثر وأشرح له أنني فهمت فكرة ألبوم الأحداث التي لا تنسى. اعترضت على الطريقة المحيرة التي وصف بها الأمر. اعتبرت نفسي في تلك الأيام من دعاة الوضوح والوظيفية في استخدام اللغة.

لم يعلق دون خوان على مزاجي العدواني. لقد هز رأسه فقط وكأنه كان يتفق معي تمامًا. بعد فترة من الوقت، إما أنني استنفدت طاقتي تمامًا، أو حصلت على زيادة هائلة منها. فجأة، وبدون أي جهد من جانبي، أدركت عبثية نوبات غضبي. لقد شعرت بالحرج بلا نهاية.

"ما الذي يدفعني للتصرف بهذه الطريقة؟" سألت دون خوان بجدية. لقد كنت في تلك اللحظة في حيرة تامة. لقد كنت مرتبكًا جدًا عندما أدركت ذلك، لدرجة أنني بدأت في البكاء دون أي إرادة من جانبي.

"لا تقلق بشأن التفاصيل الغبية"، قال دون خوان مطمئنًا. "كل واحد منا، ذكرًا كان أو أنثى، هو هكذا."

"هل تقصد يا دون خوان أننا بطبيعتنا تافهون ومتناقضون؟"

"لا، نحن لسنا صغارًا ومتناقضين بطبيعتنا"، أجاب. "إن تفاهتنا وتناقضاتنا هي في الواقع نتيجة لصراع متسامٍ يصيب كل واحد منا، ولكن لا يدركه إلا السحرة بشكل مؤلم ويائس:

"صراع بين عقلين."

حدق دون خوان فيّ، وكانت عيناه مثل الفحم الأسود.

"لقد كنت تخبرني مرارًا وتكرارًا عن عقلينا،" قلت، "لكن عقلي لا يستطيع تسجيل ما تقوله. لماذا؟"

"سوف تعرف السبب في الوقت المناسب"، قال. "في الوقت الحاضر، سيكون كافيا أن أكرر لك ما قلته من قبل عن عقلينا. الأول هو عقلنا الحقيقي، وهو نتاج كل تجارب حياتنا، والذي نادرًا ما يتحدث لأنه هُزم وأصبح في طي النسيان. "أما الآخر، العقل الذي نستخدمه يوميًا في كل ما نقوم به، فهو تركيب غريب."

"أعتقد أن جوهر الأمر هو أن مفهوم العقل باعتباره تركيبًا غريبًا هو أمر غريب لدرجة أن عقلي يرفض أخذه على محمل الجد"، قلت، وشعرت أنني توصلت إلى اكتشاف حقيقي.

ولم يعلق دون خوان على ما قلته. واستمر في شرح موضوع العقلين وكأنني لم أنطق بكلمة.

وقال "إن حل الصراع بين العقلين هو مسألة نية". "يشير السحرة إلى نواياهم من خلال نطق كلمة النية بصوت عالٍ وواضح.

النية هي قوة موجودة في الكون. عندما يوجه السحرة نيتهم، فإنها تأتي إليهم وتضع لهم الطريق إلى الإنجاز، وهذا يعني أن السحرة ينجزون دائمًا ما يخططون له.

"هل تقصد يا دون خوان أن السحرة يحصلون على أي شيء يريدونه، حتى لو كان شيئًا تافهًا وتعسفيًا؟" سألت.

"لا، لم أقصد ذلك. "يمكن استدعاء النية، بطبيعة الحال، لأي شيء،" أجاب، "لكن السحرة اكتشفوا، بالطريقة الصعبة، أن النية تأتي إليهم فقط لشيء مجرد. هذا هو صمام الأمان للسحرة، وإلا فإنهم سيكونون لا يطاقون. في حالتك، فإن الإشارة إلى نية حل الصراع بين عقليك، أو سماع صوت عقلك الحقيقي، ليست مسألة تافهة أو تعسفية. على العكس تمامًا؛ فهو أثيري ومجرد، ومع ذلك فهو حيوي بالنسبة لك مثل أي شيء آخر يمكن أن يكون."

توقف دون خوان للحظة، ثم بدأ بالحديث مرة أخرى عن الألبوم.

وقال "ألبومي الخاص، باعتباره عملاً حربياً، يتطلب اختياراً دقيقاً للغاية". "إنه الآن عبارة عن مجموعة دقيقة من اللحظات التي لا تُنسى في حياتي، وكل ما قادني إليها. لقد ركزت فيه على ما كان وما سيكون ذا معنى بالنسبة لي. في رأيي، ألبوم المحارب هو شيء ملموس للغاية، شيء إلى حد أنه محطم.

لم يكن لدي أي فكرة عما يريده دون خوان، ومع ذلك فقد فهمته إلى حد الكمال. نصحني بالجلوس بمفردي، والسماح لأفكاري وذكرياتي وخواطري أن تأتي إلي بحرية. لقد نصحني بأن أبذل جهدًا للسماح للصوت من أعماقي بالتحدث وإخباري بما يجب اختياره. ثم طلب مني دون خوان أن أدخل إلى المنزل وأستلقي على السرير الذي كان هناك. كانت مصنوعة من صناديق خشبية وعشرات من أكياس الخيش الفارغة التي كانت تستخدم كمرتبة. كان جسدي كله يؤلمني، وعندما استلقيت على السرير كان الأمر مريحًا للغاية.

لقد أخذت اقتراحاته على محمل الجد وبدأت أفكر في ماضي، باحثًا عن الأحداث التي تركت أثرًا علي. سرعان ما أدركت أن ادعاءاتي بأن كل حدث في حياتي كان ذا معنى كان مجرد هراء. بينما كنت أضغط على نفسي لأتذكر، وجدت أنني لم أكن أعرف حتى من أين أبدأ. كانت هناك أفكار وذكريات متفرقة لا حصر لها تمر في ذهني عن أحداث حدثت لي، لكنني لم أستطع أن أحدد ما إذا كانت لها أي

معنى بالنسبة لي أم لا. الانطباع الذي حصلت عليه هو أنه لم يكن هناك أي أهمية على الإطلاق. لقد بدا الأمر وكأنني مررت بالحياة مثل جثة قادرة على المشي والتحدث، ولكن ليس لديها القدرة على الشعور بأي شيء. وبما أنني لم أتمكن من التركيز على الموضوع على الإطلاق، فقد استسلمت ونمت.

"هل حققت أي نجاح؟" سألني دون خوان عندما استيقظت بعد ساعات.

بدلاً من أن أشعر بالراحة بعد النوم والراحة، أصبحت متقلب المزاج وعدوانيًا مرة أخرى.

"لا، لم أحقق أي نجاح!" لقد نبحتُ.

"هل سمعت هذا الصوت من أعماقك؟" سأل. "أعتقد أنني فعلت ذلك" كذبت.

"ماذا قال لك؟" سأل بنبرة عاجلة. "لا أستطيع أن أفكر في هذا الأمر، دون خوان"، تمتمت.

"آه، لقد عدت إلى ذهنك اليومي"، قال وربت على ظهري بقوة. "لقد سيطر عقلك اليومي مرة أخرى. دعنا نسترخي من خلال الحديث عن مجموعتك من الأحداث التي لا تنسى. أود أن أخبرك أن اختيار ما تريد وضعه في ألبومك ليس بالأمر السهل. هذا هو السبب الذي يجعلني أقول أن صنع هذا الألبوم هو بمثابة عمل حربي. "عليك أن تعيد تشكيل نفسك عشر مرات حتى تعرف ما الذي يجب عليك اختياره."

لقد فهمت بوضوح حينها، ولو لثانية واحدة، أن لدي عقلين؛ ومع ذلك، كانت الفكرة غامضة للغاية لدرجة أنني فقدتها على الفور. كل ما تبقى هو مجرد الشعور بالعجز عن تلبية متطلبات دون خوان. لكن بدلًا من قبول عجزي بلطف، سمحت له أن يصبح أمرًا مهددًا. كان الدافع وراء حياتي في تلك الأيام هو الظهور دائمًا في صورة جيدة. إن عدم الكفاءة كان يعادل أن تكون خاسرًا، وهو أمر لا يطاق بالنسبة لي على الإطلاق. وبما أنني لم أكن أعرف كيف أرد على التحدي الذي طرحه دون خوان، فقد فعلت الشيء الوحيد الذي أعرف كيف أفعله: غضبت.

"يجب أن أفكر كثيرًا في هذا الأمر، دون خوان"، قلت. "يجب أن أعطي عقلي بعض الوقت للاستقرار على الفكرة."

"بالطبع، بالطبع،" أكد لي دون خوان. "خذ كل وقت العالم، ولكن اسرع."

ولم يقال أي شيء آخر حول هذا الموضوع في ذلك الوقت. في المنزل، نسيت الأمر تمامًا حتى يوم من الأيام، عندما فجأة، في منتصف محاضرة كنت أحضرها، ضربني الأمر بالبحث عن الأحداث التي لا

تُنسى في حياتي مثل صدمة جسدية، تشنج عصبي هز جسدي بالكامل من الرأس إلى أخمص القدمين.

بدأت العمل بجدية. لقد استغرق الأمر مني شهورًا حتى أستعيد تجارب حياتي التي اعتقدت أنها كانت ذات معنى بالنسبة لي. ولكن عند فحص مجموعتي، أدركت أنني كنت أتعامل فقط مع أفكار ليس لها أي مضمون على الإطلاق.

كانت الأحداث التي تذكرتها مجرد نقاط مرجعية غامضة تذكرتها بشكل تجريدي. مرة أخرى، كان لدي شك مزعج للغاية بأنني نشأت فقط لأتصرف دون أن أتوقف عن الشعور بأي شيء.

أحد الأحداث الأكثر غموضًا التي أتذكرها، والتي أردت أن أجعلها لا تُنسى بأي ثمن، كان اليوم الذي اكتشفت فيه أنني قد تم قبولي في كلية الدراسات العليا بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. بغض النظر عن مدى جهدي، لم أتمكن من تذكر ما كنت أفعله في ذلك اليوم. لم يكن هناك شيء مثير للاهتمام أو فريد من نوعه في ذلك اليوم، باستثناء فكرة أنه يجب أن يكون لا ينسى. كان من المفترض أن يجعلني الالتحاق بكلية الدراسات العليا سعيدًا أو فخورًا بنفسي، لكنه لم يفعل.

عينة أخرى في مجموعتي كانت اليوم الذي كدت أتزوج فيه من كاي كوندور. لم يكن اسمها الأخير كوندور حقًا، لكنها غيرته لأنها أرادت أن تصبح ممثلة. كانت تذكرتها إلى الشهرة هي أنها كانت تشبه كارول لومبارد بالفعل. لقد كان ذلك اليوم لا يُنسى في ذاكرتي، ليس بسبب الأحداث التي جرت، بل لأنها كانت جميلة وأرادت الزواج مني. لقد كانت أطول مني برأس، مما جعلها أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لي.

لقد كنت متحمسًا لفكرة الزواج من امرأة طويلة القامة، في حفل الكنيسة. لقد استأجرت بدلة رسمية رمادية اللون. كان البنطال واسعًا جدًا بالنسبة لطولي. لم تكن سراويل واسعة من الخصر، بل كانت واسعة فقط، وهذا الأمر أزعجني كثيرًا. كان هناك أمر آخر أزعجني بشدة وهو أن أكمام القميص الوردي الذي اشتريته لهذه المناسبة كانت أطول بحوالي ثلاث بوصات؛ واضطررت إلى استخدام أشرطة مطاطية لإبقائها مرتفعة. وبعيدًا عن ذلك، كان كل شيء مثاليًا حتى اللحظة التي اكتشفنا فيها أنا والضيوف أن كاي كوندور قد تراجعت عن قرارها ولن تظهر.

وباعتبارها سيدة شابة مهذبة للغاية، فقد أرسلت لي رسالة اعتذار بواسطة رسول على دراجة نارية. كتبت أنها لا تؤمن بالطلاق، ولا تستطيع أن تلتزم طوال بقية حياتها بشخص لا يشاركها تمامًا آراءها في الحياة. ذكّرتني بأنني كنت أضحك في كل مرة أقول فيها اسم "كوندور"، وهو الأمر الذي يُظهر عدم احترامي التام لشخصها. وقالت إنها ناقشت الأمر مع والدتها. لقد أحبني كلاهما بشدة، ولكن ليس بالقدر الكافي لجعلي جزءًا من عائلتهما. وأضافت أنه يتعين علينا جميعًا، بشجاعة وحكمة، أن نقلل من خسائرنا.

كانت حالتي الذهنية عبارة عن خدر تام. عندما حاولت أن أتذكر ذلك اليوم، لم أستطع أن أتذكر ما إذا كنت قد شعرت بالإهانة الفظيعة لأنني تركت واقفة أمام الكثير من الناس في بدلتي الرمادية، المستأجرة ذات الأرجل الواسعة، أو ما إذا كنت قد سحقت لأن كاي كوندور لم تتزوجني.

كان هذان الحدثان الوحيدان اللذان تمكنت من عزلهما بوضوح. كانت تلك أمثلة هزيلة، ولكن بعد إعادة صياغتها، نجحت في إعادة صياغتها كحكايات عن القبول الفلسفي. اعتقدت أنني كائن يعيش حياته بلا مشاعر حقيقية، وليس لديه سوى وجهات نظر فكرية لكل شيء. وباستخدام استعارات دون خوان كنماذج، قمت حتى ببناء نموذج خاص بي: كائن يعيش حياته بالنيابة عن غيره وفقًا لما ينبغي أن تكون عليه.

كنت أعتقد، على سبيل المثال، أن اليوم الذي تم قبولي فيه في كلية الدراسات العليا بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس كان يجب أن يكون يومًا لا يُنسى. وبما أنه لم يكن كذلك، فقد بذلت قصارى جهدي لإضفاء أهمية عليه لم أشعر بها من قبل. لقد حدث شيء مماثل في اليوم الذي كدت أتزوج فيه من كاي كوندور. كان من المفترض أن يكون يومًا كارثيًا بالنسبة لي، لكنه لم يكن كذلك. في لحظة استرجاعي له، أدركتُ أنه لا يوجد شيء، فبدأتُ أبذل قصارى جهدي لأبني ما كان ينبغي أن أشعر به.

في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى منزل دون خوان، قدمت له عيّنتين من الأحداث التي لا تُنسى بمجرد وصولي.

"هذه كومة من الهراء"، أعلن. "لا شيء من هذا سينفع." القصص تتعلق بك حصريًا كشخص يفكر، ويشعر، ويبكي، أو لا يشعر بأي شيء على الإطلاق. إن الأحداث التي لا تُنسى في ألبوم الشامان هي شؤون ستصمد أمام اختبار الزمن لأنها لا علاقة لها به، ومع ذلك فهو في قلب هذه الأحداث. "سيظل دائمًا في قلب هذه الأحداث، طوال حياته، وربما بعد ذلك، ولكن ليس على المستوى الشخصي تمامًا."

كلماته تركتني أشعر بالإحباط والهزيمة الكاملة. لقد اعتقدت بصدق في تلك الأيام أن دون خوان كان رجلاً عجوزًا عنيدًا وجد متعة خاصة في جعلني أشعر بالغباء. لقد ذكّرني بصانع ماهر التقيت به في مصنع النحاتين حيث كنت أعمل أثناء دراستي في مدرسة الفنون. كان الحرفي الماهر ينتقد ويجد العيوب في كل ما يفعله متدربوه المتقدمون، ويطالبهم بتصحيح عملهم وفقًا لتوصياته. وكان تلاميذه يستديرون ويتظاهرون بتصحيح عملهم. تذكرت فرحة المعلم حين كان يقول عند عرض العمل نفسه عليه: "الآن لديك شيء حقيقي!"

"لا تشعر بالسوء"، قال دون خوان، وهو يهزني بعيدا عن ذاكرتي. "في وقتي، كنت في نفس المكان. لسنوات عديدة، لم أكن أعرف ماذا أختار فحسب، بل اعتقدت أيضًا أنني لا أملك أي تجارب للاختيار من بينها. يبدو أنه لم يحدث لي شيء على الإطلاق. بالطبع، لقد حدث لي كل شيء، ولكن في محاولتي للدفاع عن فكرة نفسي، لم يكن لدي الوقت أو الرغبة في ملاحظة أي شيء.

"هل يمكنك أن تخبرني، دون خوان، على وجه التحديد، ما هو الخطأ في قصصي؟ أعلم أنها لا شيء، لكن بقية حياتي هي مثل ذلك تمامًا.

"سأكرر لك هذا" قال. "قصص ألبوم المحارب ليست شخصية. إن قصتك عن اليوم الذي تم قبولك فيه في المدرسة ليست سوى تأكيدك على أنك مركز كل شيء. تشعر، ولا تشعر، تدرك، ولا تدرك. هل فهمت ما أعنيه؟ "القصة كلها تتعلق بك فقط."

"ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، دون خوان؟" سألت.

"في قصتك الأخرى، تكاد تلمس ما أريده، لكنك تحوله مرة أخرى إلى شيء شخصي للغاية. أعلم أنه بإمكانك إضافة المزيد من التفاصيل، لكن كل هذه التفاصيل ستكون امتدادًا لشخصيتك ولا شيء آخر.

"أنا بصراحة لا أستطيع أن أرى وجهة نظرك، دون خوان،" احتججت. "كل قصة نراها من خلال عيون الشاهد يجب أن تكون شخصية بالضرورة."

"نعم، نعم، بالطبع،" قال مبتسمًا، مسرورًا كعادته بارتباكي. "ولكنها ليست قصصًا لألبوم المحارب. إنها قصص لأغراض أخرى. إن الأحداث التي لا تُنسى والتي نسعى لتحقيقها تحمل لمسة مظلمة من اللاشخصية. تلك اللمسة تتخللها. لا أعرف كيف أشرح هذا بطريقة أخرى.

اعتقدت حينها أنني حصلت على لحظة إلهام وأنني فهمت ما يعنيه باللمسة المظلمة من اللاشخصية. اعتقدت أنه كان يقصد شيئًا مثير للكآبة بعض الشيء. الظلام يعني ذلك بالنسبة لي. ورويت له قصة من طفولتي.

كان أحد أبناء عمومتي الأكبر سناً في كلية الطب. كان متدربًا، وفي أحد الأيام أخذني إلى المشرحة. لقد أكد لي أن الشاب مدين لنفسه برؤية الموتى لأن هذا المنظر تعليمي للغاية؛ فهو يوضح زوال الحياة. لقد ظل يوبخني مرارًا وتكرارًا من أجل إقناعي بالذهاب. كلما تحدث عن مدى عدم أهميتنا في الموت، أصبحت أكثر فضولًا. لم أر جثة قط. في النهاية، فضولي لرؤية واحد منهم تغلب علي وذهبت معه.

لقد أراني جثثًا مختلفة ونجح في تخويفي بشدة. لم أجد أي شيء تعليمي أو تنويري حولهم. لقد كانوا، بصراحة، أكثر الأشياء المرعبة التي رأيتها على الإطلاق. وبينما كان يتحدث معي، ظل ينظر إلى ساعته وكأنه ينتظر شخصًا سيظهر في أي لحظة. من الواضح أنه أراد أن يبقيني في المشرحة لفترة أطول مما

تسمح به قوتي. وبما أنني كنت مخلوقًا تنافسيًا، فقد اعتقدت أنه كان يختبر قدرتي على التحمل ورجولتي. شددت على أسناني وقررت البقاء حتى النهاية المريرة.

لقد جاءت النهاية المريرة بطرق لم أحلم بها. في الواقع، تحركت جثة مغطاة بملاءة إلى أعلى باستخدام خشخشة على الطاولة الرخامية التي كانت ترقد عليها جميع الجثث، وكأنها تستعد للجلوس. لقد أحدث صوت تجشؤ كان فظيعًا لدرجة أنه أثر في بعمق وسيظل في ذاكرتي لبقية حياتي. شرح لي ابن عمي، الطبيب، العالم، أن الجثة كانت لرجل مات بمرض السل، وأن رئتيه قد أكلتها البكتيريا التي تركت ثقوبًا ضخمة مليئة بالهواء، وفي حالات كهذه، عندما تتغير درجة حرارة الهواء، فإن ذلك يجبر الجسم أحيانًا على الجلوس أو على الأقل على التشنج.

"لا، لم تفهم ذلك بعد،" قال دون خوان وهو يهز رأسه من جانب إلى آخر. "إنها مجرد قصة عن خوفك." كنت سأموت من الخوف، ولكن الخوف بهذه الطريقة لا ينير طريق أي شخص. ولكنني فضولي لأعرف ما حدث لك."

"لقد صرخت مثل البانشي" قلت. "لقد وصفني ابن عمي بالجبان، ذو البطن الصفراء، لأنني أخفيت وجهي على صدره ولأنني شعرت بالغثيان في معدتي بسببه."

لقد كنت بالتأكيد مرتبطًا بخيط مثير للكآبة في حياتي. خطرت لي قصة أخرى عن صبي يبلغ من العمر ستة عشر عامًا كنت أعرفه في المدرسة الثانوية وكان يعاني من مرض غدي ونما إلى ارتفاع هائل. لم ينمو قلبه بنفس معدل نمو باقي جسده، وفي أحد الأيام مات بسبب قصور في القلب. ذهبت مع صبي آخر إلى المشرحة بدافع الفضول المثير للكآبة. فتح لنا الحنوتي، الذي كان ربما أكثر كآبة منا، الباب الخلفي وسمح لنا بالدخول. لقد أرانا تحفته الفنية. لقد وضع الصبي العملاق، الذي كان طوله أكثر من سبعة أقدام وسبع بوصات، في نعش لشخص عادي عن طريق قطع ساقيه. لقد أرانا كيف رتب ساقيه وكأن الصبي الميت كان يحملهما بذراعيه مثل كأسين.

كان الخوف الذي شعرت به مماثلاً للخوف الذي شعرت به في المشرحة عندما كنت طفلاً، لكن هذا الخوف الجديد لم يكن رد فعل جسدي؛ بل كان رد فعل اشمئزاز نفسي.

"لقد اقتربت من الوصول" قال دون خوان. "ومع ذلك، قصتك لا تزال شخصية للغاية. إنها مثيرة للاشمئزاز. هذا يجعلني أشعر بالغثيان، ولكنني أرى إمكانات كبيرة.

لقد ضحك دون خوان وأنا على الرعب الذي نجده في مواقف الحياة اليومية. بحلول ذلك الوقت كنت قد ضعت بشكل يائس في خيوط الكآبة التي اصطدتها وأطلقتها. ثم أخبرته بقصة صديقي المفضل، روي

جولدبيس. كان لديه في الواقع لقب بولندي، لكن أصدقاءه أطلقوا عليه اسم جولدبيس لأنه كان يحول كل ما يلمسه إلى ذهب؛ كان رجل أعمال عظيم.

موهبته في مجال الأعمال جعلته شخصًا طموحًا للغاية. كان يريد أن يصبح أغنى رجل في العالم. ولكنه وجد أن المنافسة كانت صعبة للغاية. وبحسب قوله، فإنه من غير الممكن أن يتمكن من خلال ممارسة الأعمال التجارية بمفرده من التنافس، على سبيل المثال، مع رئيس طائفة إسلامية، الذي كان يتقاضى في ذلك الوقت وزنه من الذهب كل عام. كان رئيس الطائفة يسمن نفسه بقدر ما يسمح به جسمه قبل أن يزن.

ثم خفض صديقي روي طموحاته إلى أن يصبح أغنى رجل في الولايات المتحدة. وكانت المنافسة في هذا القطاع شرسة. لقد انخفض إلى درجة ما: ربما يمكن أن يصبح أغنى رجل في كاليفورنيا. لقد فات الأوان لذلك أيضًا. لقد فقد الأمل في أنه، بفضل سلاسل محلات البيتزا والآيس كريم التي يملكها، قد يتمكن يومًا ما من الصعود في عالم الأعمال للتنافس مع العائلات العريقة التي تمتلك كاليفورنيا. واستقر على أن يكون أغنى رجل في وودلاند هيلز، ضاحية لوس أنجلوس حيث كان يعيش. لسوء حظه، كان يعيش في الشارع المجاور لمنزله السيد مارش، الذي كان يمتلك مصانع تنتج مراتب عالية الجودة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، وكان ثريًا بشكل لا يصدق. لم يكن لإحباط روي حدود. كان دافعه لتحقيق الإنجازات قويًا لدرجة أنه أثر في النهاية على صحته. في أحد الأيام مات بسبب تمدد الأوعية الدموية في دماغه.

أدى موته إلى زيارتي الثالثة إلى مشرحة أو مستودع الجثث. توسلت إلي زوجة روي، باعتباري أفضل صديق له، أن أتأكد من أن الجثة كانت مرتدية الملابس المناسبة. ذهبت إلى صالة الجنازة، حيث قادني سكرتير ذكر إلى الغرف الداخلية. في اللحظة التي وصلت فيها، كان المسؤول عن الجنازة، يعمل على طاولة عالية ذات سطح رخامي، ويدفع بقوة زوايا الشفة العليا للجثة، التي كانت قد دخلت بالفعل في حالة تيبس الموت، باستخدام السبابة والخنصر من يده اليمنى بينما كان يضع إصبعه الأوسط على راحة يده. وبينما ظهرت ابتسامة غريبة على وجه روي الميت، التفت إليّ المسؤول عن الجنازة وقال بنبرة خاضعة: "أتمنى أن يكون كل هذا مرضيًا لك يا سيدي".

قررت زوجة روي - لن يعرف أحد أبدًا ما إذا كانت تحبه أم لا - دفنه بكل الفظاظة التي تستحقها حياته في رأيها. لقد اشترت نعشًا باهظ الثمن، مصنوعًا خصيصًا لها، ويبدو مثل كشك الهاتف؛ وقد حصلت على الفكرة من أحد الأفلام. كان من المقرر أن يُدفن روي جالسًا، كما لو كان يجري مكالمة عمل عبر الهاتف.

لم أبقى لحضور الحفل. لقد غادرت وسط ردة فعل عنيفة للغاية، مزيج من العجز والغضب، وهو نوع من الغضب الذي لا يمكن التنفيس عنه على أي شخص.

"أنت بالتأكيد مكتئب اليوم"، علق دون خوان ضاحكًا. "ولكن على الرغم من ذلك، أو ربما بسبب ذلك، فأنت على وشك الوصول إلى هناك. "أنت تقترب."

لم أتوقف أبدًا عن الإعجاب بالطريقة التي تغير بها مزاجي في كل مرة ذهبت فيها لرؤية دون خوان. لقد وصلت دائمًا متقلب المزاج، غاضبًا، مليئًا بتأكيدات الذات والشكوك. بعد فترة من الوقت، كان مزاجي يتغير بشكل غامض وأصبح أكثر اتساعًا، تدريجيًا، حتى أصبحت هادئًا كما كنت دائمًا. ومع ذلك، كان مزاجي الجديد متجسدًا في مفرداتي القديمة. كانت طريقتي المعتادة في الحديث هي طريقة شخص غير راضٍ تمامًا ويحاول جاهدًا منع نفسه من الشكوى بصوت عالٍ، لكن شكواه التي لا نهاية لها تُدرج ضمن كل منعطف من المحادثة.

"هل يمكنك أن تعطيني مثالاً على حدث لا يُنسى من ألبومك، دون خوان؟" سألت بصوتي المعتاد المليء بالشكوى المبطنة. "إذا كنت أعرف النمط الذي تبحث عنه، ربما أكون قادرًا على التوصل إلى شيء ما. "وكما هو الحال، فأنا أصفر بلا أمل في الظلام."

"لا تشرح نفسك كثيرًا،" قال دون خوان بنظرة صارمة في عينيه. يقول السحرة أن في كل تفسير هناك اعتذار خفي. لذا، عندما تشرح سبب عدم قدرتك على فعل هذا أو ذاك، فأنت في الحقيقة تعتذر عن عيوبك، على أمل أن يكون لدى من يستمع إليك اللطف الكافي لفهمها.

كانت مناورتي الأكثر فائدة، عندما كنت أتعرض للهجوم، هي دائمًا إيقاف المهاجمين عن طريق عدم الاستماع إليهم. لكن دون خوان كان لديه القدرة المثيرة للاشمئزاز على جذب كل انتباهي. بغض النظر عن كيفية هجومه علي، وبغض النظر عما قاله، فقد نجح دائمًا في جعلني منجذبة إلى كل كلمة يقولها. في هذه المناسبة، ما كان يقوله عني لم يعجبني على الإطلاق لأنه كان الحقيقة العارية.

لقد تجنبت عينيه. لقد شعرت، كالعادة، بالهزيمة، لكنها كانت هزيمة غريبة هذه المرة. لم يزعجني الأمر كما كان ليزعجني لو حدث في عالم الحياة اليومية، أو مباشرة بعد وصولي إلى منزله.

بعد صمت طويل جدًا، تحدث دون خوان معي مرة أخرى. "سأفعل ما هو أفضل من أن أعطيك مثالاً لحدث لا يُنسى من ألبومي"، قال. سأقدم لك حدثًا لا يُنسى من حياتك الخاصة، والذي يجب أن يكون بالتأكيد في مجموعتك. أو، يجب على أن أقول، لو كنت مكانك، لضممت هذا الحدث بالتأكيد إلى مجموعتي من الأحداث التي لا تنسى.

اعتقدت أن دون خوان كان يمزح وضحكت بغباء. "هذا ليس أمراً مضحكاً"، قال ذلك بسخرية. "أنا جاد." لقد أخبرتني ذات مرة بقصة تتناسب مع الوصف. "ما هذه القصة يا دون خوان؟"

"قصة "شخصيات أمام المرآة"،" قال. "أخبرني تلك القصة مرة أخرى. ولكن أخبرني بكل التفاصيل التي يمكنك تذكرها.

بدأت في إعادة سرد القصة بطريقة سريعة. أوقفني وطلب مني سردًا دقيقًا ومفصلًا، بدءًا من البداية. حاولت مرة أخرى، لكن أدائي لم يرضيه.

"دعنا نذهب في نزهة على الأقدام"، اقترح. "عندما تمشي، تكون أكثر دقة من عندما تجلس. "إنها ليست فكرة فارغة أن تتنقل ذهابًا وإيابًا عندما تحاول سرد شيء ما."

كنا نجلس، كما نفعل عادة خلال النهار، تحت سقف المنزل. لقد طورت نمطًا: كلما جلست هناك، كنت أفعل ذلك دائمًا في نفس المكان، وظهري إلى الحائط. جلس دون خوان في أماكن مختلفة تحت الخيمة، لكنه لم يجلس في نفس المكان أبدًا.

لقد ذهبنا للتنزه في أسوأ وقت من اليوم، وهو وقت الظهر. لقد جهزني بقبعة قش قديمة، كما كان يفعل دائمًا عندما نخرج في حرارة الشمس. لقد مشينا لفترة طويلة في صمت تام. لقد حاولت قدر استطاعتي أن أجبر نفسي على تذكر كل تفاصيل القصة. كان الوقت بعد الظهر عندما جلسنا تحت ظل بعض الشجيرات الطويلة، وأعدت سرد القصة كاملة.

قبل سنوات، بينما كنت أدرس النحت في مدرسة للفنون الجميلة في إيطاليا، كان لدي صديق مقرب، وهو اسكتلندي كان يدرس الفن ليصبح ناقدًا فنيًا.

ما برز بوضوح في ذهني عنه، وكان له علاقة بالقصة التي كنت أرويها لدون خوان، كانت الفكرة المبالغ فيها التي كان لديه عن نفسه؛ كان يعتقد أنه كان أكثر العلماء والحرفيين فجورًا وشهوانية وشمولية، رجل عصر النهضة. لقد كان فاسقًا، لكن الشهوة كانت شيئًا يتناقض تمامًا مع شخصيته النحيلة الجافة والجادّة. كان تابعًا للفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل وكان يحلم بتطبيق مبادئ الوضعية المنطقية على نقد الفن. ربما كان حلمه الأعظم هو أن يكون عالماً وحرفياً متكاملاً، لأنه كان يميل إلى المماطلة، وكان العمل هو عدوه اللدود.

لم يكن تخصصه المثير للشكوك هو نقد الفن، بل معرفته الشخصية بكل عاهرات بيوت الدعارة المحلية، والتي كان عددهن كبيرًا. كانت القصص الملونة والطويلة التي كان يقدمها لي - من أجل أن يبقيني، وفقًا له، على اطلاع دائم بكل الأشياء الرائعة التي قام بها في عالم تخصصه - ممتعة. لذلك لم يكن من المستغرب بالنسبة لي أن يأتي ذات يوم إلى شقتي، متحمسًا للغاية، ويكاد لا يستطيع التنفس، ويخبرني أن شيئًا غير عادي حدث له وأنه يريد أن يشاركني ذلك.

"أقول لك يا رجل يا عجوز، يجب أن ترى هذا بنفسك!" قال بحماس بلهجة أكسفورد التي كان يتحدث بها في كل مرة يتحدث معي. كان يتجول في الغرفة بعصبية. "من الصعب وصف ذلك، ولكنني أعلم

أنه شيء سوف تقدره. شيء ما، الانطباع عنه سوف يدوم معك طوال حياتك. سأقدم لك هدية رائعة مدى الحياة. هل فهمت؟

لقد فهمت أنه كان اسكتلنديًا هستيريًا. لقد كان من دواعي سروري دائمًا أن أستمتع معه وأرافقه. لم أندم أبدًا

على ذلك. "اهدأ، اهدأ، إدي"، قلت. "ماذا تحاول أن تقول لي؟"

أخبرني أنه كان في بيت دعارة، حيث وجد امرأة لا تصدق فعلت شيئًا لا يصدق وصفته بأنه "شخصيات أمام المرآة". لقد أكد لي مرارًا وتكرارًا، وهو يتلعثم تقريبًا، أنني مدين لنفسي بتجربة هذا الحدث الذي لا يُصدق شخصيًا.

"أقول، لا تقلق بشأن المال!" قال ذلك لأنه يعلم أنني لا أملك أيًا منه. "لقد دفعت الثمن بالفعل." كل ما عليك فعله هو الذهاب معي. ستعرض لكم السيدة لودميلا "شخصياتها أمام المرآة". "إنه ممتع!"

في نوبة من البهجة التي لا يمكن السيطرة عليها، ضحك إيدي بصخب، غير مدرك لأسنانه السيئة، والتي كان يخفيها عادة خلف ابتسامة أو ضحكة مكتومة. "أقول، إنه رائع للغاية!"

لقد زاد فضولي مع كل دقيقة. لقد كنت أكثر من راغب في المشاركة في سعادته الجديدة. لقد أخذني إدي إلى ضواحي المدينة. توقفنا أمام مبنى مغبر وسيء الصيانة، وكان الطلاء يتقشر من الجدران. كان يبدو وكأنه كان فندقًا في وقت ما، فندقًا تم تحويله إلى مبنى سكني. تمكنت من رؤية بقايا لافتة فندقية تبدو وكأنها تمزقت إلى قطع. على واجهة المبنى كانت هناك صفوف من الشرفات المفردة القذرة المليئة بأصص الزهور أو المغطاة بالسجاد الموضوع ليجف.

عند مدخل المبنى كان هناك رجلين داكني البشرة، يرتديان حذاءً أسود مدببًا يبدو ضيقًا جدًا على أقدامهما؛ استقبلا إيدي بحفاوة بالغة. كانت عيونهم سوداء، مخيفة، ومهددة. كلاهما كانا يرتديان بدلات زرقاء فاتحة لامعة، وكانت ضيقة جدًا على أجسادهما الضخمة. فتح أحدهم الباب لإيدي. ولم ينظروا إلي حتى.

صعدنا طابقين من السلالم على درج متهالك كان من المفترض أن يكون فخمًا في وقت من الأوقات. قاد إيدي الطريق وسار على طول ممر فارغ يشبه الفندق مع أبواب على كلا الجانبين. تم طلاء جميع

الأبواب بنفس اللون الأخضر الزيتوني الداكن. كان لكل باب رقم نحاسي، باهتًا بسبب تقدم العمر، بالكاد يمكن رؤيته على خلفية الخشب المطلي.

توقف إدي أمام الباب. لاحظت الرقم 112 عليه. لقد قرع مرارا وتكرارا. انفتح الباب، وظهرت امرأة قصيرة ممتلئة الجسم ذات شعر أشقر فاتح اللون، أشارت لنا بالدخول دون أن تقول كلمة واحدة. كانت ترتدي رداءً حريريًا أحمر بأكمام ريشية متموجة ونعالًا حمراء مع كرات فروية في الأعلى. بمجرد أن دخلنا قاعة صغيرة وأغلقت الباب خلفنا، استقبلت إيدي بلهجة إنجليزية بلكنة سيئة للغاية. "مرحبا، إدي. لقد أحضرت صديقًا، أليس كذلك؟

صافحها إدي، ثم قبلها بشجاعة. لقد تصرف وكأنه في غاية الهدوء، ومع ذلك لاحظت إيماءاته اللاواعية التي تشير إلى شعوره بعدم الارتياح.

"كيف حالك اليوم، سيدتي لودميلا؟" قال ذلك محاولاً أن يبدو كأميركي لكنه أخطأ.

لم أكتشف أبدًا لماذا أراد إيدي أن يبدو دائمًا مثل الأمريكي كلما كان يقوم بأعمال تجارية في تلك البيوت ذات السمعة السيئة. لقد كان لدي شك في أنه فعل ذلك لأن الأميركيين معروفون بثرائهم، وكان يريد أن يثبت مصداقيته كرجل غني معهم.

التفت إليّ إدي وقال بلهجته الأمريكية المزيفة: "أتركك في أيدٍ أمينة يا صغيري".

لقد بدا صوته فظيعًا جدًا، غريبًا جدًا على أذني، لدرجة أنني ضحكت بصوت عالٍ. لم تبدو السيدة لودميلا منزعجة على الإطلاق من انفجار فرحي. قبل إدي يد السيدة لودميلا مرة أخرى وغادر.

"هل تتحدث الإنجليزية يا بني؟" صرخت وكأنني أصم. "أنت تبدو مصريًا، أو ربما تركيًا."

لقد أكدت للسيدة لودميلا أنني لست أيًا منهما، وأنني أتحدث الإنجليزية. ثم سألتني إذا كنت أحب "شخصياتها أمام المرآة". لم أكن أعرف ماذا أقول. لقد هززت رأسي بالإيجاب.

"سأقدم لك عرضًا جيدًا"، أكدت لي. "إن الشخصيات أمام المرآة ليست سوى مداعبة. عندما تكون مستعدًا وجاهزًا، أخبرني بالتوقف."

من القاعة الصغيرة التي كنا نقف فيها دخلنا إلى غرفة مظلمة ومخيفة. كانت النوافذ مغطاة بستائر

ثقيلة. كانت هناك بعض المصابيح الكهربائية ذات الجهد المنخفض مثبتة على الحائط. كانت المصابيح على شكل أنابيب وتبرز بشكل مستقيم بزوايا قائمة من الحائط. كان هناك وفرة من الأشياء في جميع أنحاء الغرفة: قطع أثاث مثل الصناديق الصغيرة ذات الأدراج، والطاولات والكراسي العتيقة؛ ومكتب ذو سطح قابل للدحرجة موضوع على الحائط ومليء بالأوراق والأقلام والمساطر، وما لا يقل عن اثني عشر زوجًا من المقصات. جعلتني السيدة لودميلا أجلس على كرسي محشو قديم.

"السرير في الغرفة الأخرى يا عزيزي" قالت وهي تشير إلى الجانب الآخر من الغرفة. "هذه هي أنتيسالا ." هنا أقدم عرضًا لأجعلك ثائرا ومستعدًا.

خلعت رداءها الأحمر، وركلت نعالها، وفتحت الأبواب المزدوجة لخزانتين كانتا واقفتين جنبًا إلى جنب على الحائط. كانت هناك مرآة بطول كامل مثبتة داخل كل باب.

"والآن الموسيقى يا بني"، قالت السيدة لودميلا، ثم قامت بتشغيل جهاز فيكترولا الذي بدا في حالة ممتازة، لامعًا، وكأنه جديد. لقد وضعت اسطونة. كانت الموسيقى لحنًا مؤثرًا ذكّرني بمسيرة السيرك.

"والآن عرضي"، قالت، وبدأت تدور على أنغام اللحن المؤثر. كان جلد جسد السيدة لودميلا مشدودًا في معظمه، وأبيض اللون بشكل غير عادي، على الرغم من أنها لم تكن صغيرة السن. لا بد أنها كانت في أواخر الأربعينيات من عمرها. لقد ترهلت بطنها، ليس كثيرًا، ولكن قليلًا، وكذلك ثدييها الضخمين. كما ترهل جلد وجهها إلى خدود ملحوظة. كان لديها أنف صغير وشفتين حمراء اللون. كانت ترتدي ماسكارا سوداء كثيفة. لقد جلبت إلى ذهني النموذج الأولي لعاهرة مسنة. ومع ذلك كان هناك شيء طفولي عنها، فتاة عفوية له الثقة، والحلاوة التي هزتني.

"والآن، شخصيات أمام المرآة"، أعلنت السيدة لودميلا بينما استمرت الموسيقى.

"ساق، ساق، ساق!" قالت وهي ترفع ساقها في الهواء، ثم الأخرى، في تناغم مع الموسيقى. وضعت يدها اليمنى على رأسها، مثل فتاة صغيرة غير متأكدة من قدرتها على أداء الحركات.

"استدر، استدر، استدر!" قالت وهي تتحول مثل القمة.

"موخرة، موخرة، موخرة!" قالت ذلك وهي تظهر لي مؤخرتها العارية مثل راقصة الكانكان.

كررت التسلسل مرارًا وتكرارًا حتى بدأت الموسيقى في التلاشي عندما انخفض زنبرك فيكترولا. لقد شعرت أن السيدة لودميلا كانت تدور بعيدًا في المسافة، وتصبح أصغر وأصغر مع تلاشي الموسيقى.

بعض اليأس والشعور بالوحدة الذي لم أكن أعلم بوجوده في داخلي خرج إلى السطح، من أعماق وجودي، وجعلني أستيقظ وأركض خارج الغرفة، وأنزل الدرج كالمجنون، خارج المبنى، إلى الشارع.

كان إيدي يقف خارج الباب ويتحدث إلى الرجلين اللذين يرتديان بدلات زرقاء فاتحة لامعة. عندما رآني أركض هكذا، بدأ يضحك بصوت عالٍ.

"ألم يكن ممتعاً؟" قال ذلك وهو لا يزال يحاول أن يبدو وكأنه أمريكي. "إن الشخصيات أمام المرآة ليست سوى مقدمة للعلاقة." يا له من شيء! يا له من شيء!

في المرة الأولى التي ذكرت فيها القصة لدون خوان، أخبرته أنني تأثرت بشدة باللحن المزعج والعاهرة العجوز التي تدور بشكل أخرق على أنغام الموسيقى. لقد تأثرت بشدة أيضًا عندما أدركت مدى قسوة صديقي.

عندما انتهيت من إعادة سرد قصتي لدون خوان، بينما كنا نجلس على تلال سلسلة من الجبال في سونورا، كنت أرتجف، متأثرًا بشكل غامض بشيء غير محدد تمامًا.

"قال دون خوان، "هذه القصة يجب أن تضاف إلى ألبوم الأحداث التي لا تنسى الخاص بك. صديقك، دون أن يكون لديه أي فكرة عما كان يفعله، أعطاك، كما قال هو نفسه، شيئًا سيدوم معك طوال حياتك بالفعل.

"أرى هذا كقصة حزينة، دون خوان، ولكن هذا كل شيء،" أعلنت. "إنها قصة حزينة بالفعل، تمامًا مثل قصصك الأخرى،" أجاب دون خوان، "ولكن ما يجعلها مختلفة ولا تُنسى بالنسبة لي هو أنها تمس كل واحد منا من البشر، وليس أنت فقط، مثل قصصك الأخرى. كما ترون، مثل السيدة لودميلا، كل واحد منا، صغارا وكبارا على حد سواء، يصنع شخصيات أمام المرآة بطريقة أو بأخرى. أحصي ما تعرفه عن الناس. فكر في أي إنسان على هذه الأرض، وسوف تعلم دون أدنى شك أنه مهما كان، أو ما يعتقده عن نفسه، أو ما يفعله، فإن نتيجة أفعاله هي نفسها دائمًا: شخصيات لا معنى لها أمام المرآة.

رجفة في الهواء

رحلة القوة

في الوقت الذي التقيت فيه دون خوان، كنت طالبًا مجتهدًا في علم علوم الإنسان، وأردت أن أبدأ مسيرتي المهنية كعالم علم الإنسان محترف من خلال النشر قدر الإمكان. كنت عازمًا على تسلق السلم الأكاديمي، وفي حساباتي، كنت قد قررت أن الخطوة الأولى هي جمع البيانات حول استخدامات النباتات الطبية من قبل الهنود في جنوب غرب الولايات المتحدة.

لقد طلبت أولاً من أحد أساتذة علم الإنسان الذي عمل في هذا المجال أن يقدم لي النصيحة بشأن مشروعي. كان عالم الإنسان بارزًا نشر على نطاق واسع في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات عن الهنود في كاليفورنيا والهنود في الجنوب الغربي وسونورا بالمكسيك. لقد استمع إلى شرحي بصبر. كانت فكرتي هي كتابة ورقة بحثية، وتسميتها "بيانات إثنونباتية"، ونشرها في مجلة تتعامل حصريًا مع قضايا علم الإنسان في جنوب غرب الولايات المتحدة.

اقترحت جمع النباتات الطبية، وأخذ العينات إلى الحديقة النباتية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس لتحديد هويتها بشكل صحيح، ثم وصف سبب وكيفية استخدام الهنود في الجنوب الغربي لها. لقد تخيلت أنني سأجمع آلاف الإدخالات. حتى أنني تخيلت أن أقوم بنشر موسوعة صغيرة حول هذا الموضوع.

ابتسم لي الأستاذ متسامحًا. "لا أريد أن أثبط حماسك،" قال بصوت متعب، "لكن لا يمكنني منع نفسي من التعليق سلبًا على حماسك. إن الحماس أمر مرحب به في علم الإنسان، ولكن يجب توجيهه بشكل صحيح. مازلنا في العصر الذهبي لعلم الإنسان. لقد كان من حسن حظي أن أدرس مع ألفريد كروبر وروبرت لووي، وهما اثنان من ركائز العلوم الاجتماعية. لم أخن ثقتهم. لا يزال علم الإنسان هو التخصص الرئيسي. كل التخصصات الأخرى تنبع من علم الإنسان. على سبيل المثال، ينبغي أن يُطلق على مجال التاريخ بأكمله اسم "علم الإنسان التاريخي"، وينبغي أن يُطلق على مجال الفلسفة اسم "علم الإنسان الفلسفي". ينبغي للإنسان أن يكون مقياسًا لكل شيء. لذلك، فإن علم الإنسان، دراسة الإنسان، يجب أن يكون جوهر كل التخصصات الأخرى. "في يوم من الأيام، سوف يحدث ذلك."

نظرت إليه في حيرة. كان، في تقديري، أستاذًا جامعيًا عجوزًا سلبيًا تمامًا، وخيرًا، وقد أصيب مؤخرًا بنوبة قلبية. يبدو أنني قد أثرت فيه وترًا عاطفيًا.

ألا تعتقد أنه يجب عليك الاهتمام أكثر بدراستك الرسمية؟ واصل كلامه. "بدلاً من القيام بالعمل الميداني، أليس من الأفضل لك دراسة اللغويات؟ لدينا في القسم هنا أحد أبرز اللغويين في العالم. لو

كنت مكانك، كنت سأجلس عند قدميه، وألتقط أي كلام يصدر عنه.

"لدينا أيضًا سلطة ممتازة في الأديان المقارنة. وهناك بعض علماء علِم الإنسان ذوي الكفاءة الاستثنائية هنا، والذين قاموا بأعمال حول أنظمة القرابة في الثقافات في جميع أنحاء العالم، من وجهة نظر اللغويات ومن وجهة نظر الإدراك. تحتاج إلى الكثير من التحضير. إن الاعتقاد بأنك قادر على القيام بعمل ميداني الآن هو أمر سخيف. انغمس في كتبك، أيها الشاب. "هذه نصيحتي."

بإصرار، عرضت اقتراحي على أستاذ آخر، أصغر سناً. لم يكن أكثر فائدة بأي شكل من الأشكال. لقد ضحك علي علانية. أخبرني أن الورقة التي أريد كتابتها كانت ورقة ميكي ماوس، وأنها ليست في علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بأي حال من الأحوال.

قال أستاذ جامعي: "علماء الأنثروبولوجيا في أيامنا هذه يهتمون بالقضايا ذات الصلة". لقد أجرى علماء الطب والصيدلة أبحاثًا لا حصر لها على كل نبات طبي ممكن في العالم. لم يعد هناك عظم للمضغ هناك. إن نوع جمع البيانات الخاص بك يعود إلى مطلع القرن التاسع عشر. والآن مرت ما يقرب من مائتي عام. هناك شيء اسمه التقدم، كما تعلم.

ثم شرع في إعطائي تعريفًا وتبريرًا للتقدم والقابلية للكمال باعتبارهما قضيتين من قضايا الخطاب الفلسفي، والتي قال إنها الأكثر صلة بعلم الأنثروبولوجيا.

وتابع قائلاً: "إن علم الأنثروبولوجيا هو العلم الوحيد الموجود الذي يمكنه أن يثبت بوضوح مفهوم الكمال والتقدم. الحمد لله أنه لا يزال هناك بصيص أمل وسط السخرية التي تسود عصرنا. إن علم الأنثروبولوجيا وحده هو الذي يستطيع أن يظهر التطور الفعلي للثقافة والتنظيم الاجتماعي. وحدهم علماء الأنثروبولوجيا قادرون على إثبات تقدم المعرفة الإنسانية للبشرية بما لا يدع مجالا للشك. تتطور الثقافة، وعلماء الأنثروبولوجيا وحدهم هم القادرون على تقديم نماذج من المجتمعات التي تتناسب مع مساحات محددة في خط التقدم والتطور. هذا هو علم الأنثروبولوجيا بالنسبة لك! ليس عملاً ميدانياً تافهاً، والذي ليس عملاً ميدانياً على الإطلاق، بل مجرد استمناء.

لقد كانت ضربة على رأسي. كحل أخير، ذهبت إلى أريزونا للتحدث إلى علماء الأنثروبولوجيا الذين كانوا يقومون بالفعل بعمل ميداني هناك. بحلول ذلك الوقت، كنت مستعدًا للتخلي عن الفكرة بأكملها. لقد فهمت ما كان الأستاذان يحاولان إخباري به. لم أستطع أن أتفق معهم أكثر. كانت محاولاتي في القيام بالعمل الميداني بسيطة للغاية. ولكنني أردت أن أبدأ في هذا المجال؛ ولم أكن أريد أن أقوم بالبحث في المكتبة فقط.

في أريزونا، التقيت بعالم أنثروبولوجيا متمرس للغاية كتب بغزارة عن هنود الياكي في أريزونا وكذلك هنود سونورا بالمكسيك. لقد كان لطيفًا للغاية. لم يوبخني ولم يقدم لي أي نصيحة. لقد علق فقط على أن المجتمعات الهندية في الجنوب الغربي كانت انعزالية للغاية، وأن الأجانب، وخاصة من أصل إسباني، كانوا لا يثق بهم هؤلاء الهنود، بل ويكرهونهم.

لكن زميله الأصغر سنا كان أكثر صراحة. قال أنه من الأفضل أن أقرأ كتب العشابين. كان من ذوي السلطة في هذا المجال وكان رأيه أن أي شيء يجب معرفته عن النباتات الطبية من الجنوب الغربي تم تصنيفه بالفعل والحديث عنه في منشورات مختلفة. لقد ذهب إلى حد القول بأن مصادر أي معالج هندي في ذلك اليوم كانت على وجه التحديد تلك المنشورات وليس أي معرفة تقليدية. لقد أنهى كلامي بالتأكيد على أنه إذا كانت هناك أي ممارسات علاجية تقليدية، فإن الهنود لن يكشفوا عنها لأي شخص غريب.

"افعل شيئًا ذا قيمة"، نصحني. "انظر إلى الأنثروبولوجيا الحضرية. هناك الكثير من الأموال المخصصة للدراسات حول إدمان الكحول بين الهنود في المدينة الكبرى، على سبيل المثال، وهذا شيء يمكن لأي عالم أنثروبولوجيا أن يفعله بسهولة. اذهب واشرب الخمر مع الهنود المحليين في أحد الحانات. ثم قم بترتيب كل ما تعرفه عنهم من حيث الإحصائيات. حوّل كل شيء إلى أرقام. "إن الأنثروبولوجيا الحضرية مجال حقيقي."

ولم يكن أمامي شيء آخر أفعله سوى أخذ نصيحة هؤلاء العلماء الاجتماعيين ذوي الخبرة. قررت العودة إلى لوس أنجلوس، لكن أحد أصدقائي من علماء الأنثروبولوجيا أخبرني حينها أنه سيقود سيارته عبر أريزونا ونيو مكسيكو، لزيارة جميع الأماكن التي عمل فيها في الماضي، لتجديد علاقاته بهذه الطريقة مع الأشخاص الذين كانوا بمثابة مخبرين له في مجال الأنثروبولوجيا.

"أنت مرحب بك أن تأتي معي"، قال. "لن أقوم بأي عمل." سأذهب لزيارتهم فقط، وسأتناول بعض المشروبات معهم، وسأتحدث معهم بلا مبالاة. اشتريت لهم هدايا - بطانيات، مشروبات كحولية، سترات، ذخيرة لبنادق عيار اثنين وعشرين. سيارتي مليئة بالأشياء الجيدة. عادةً ما أقود سيارتي وحدي عندما أذهب لرؤيتهم، ولكن عندما أكون بمفردي فإنني أواجه دائمًا خطر النوم. يمكنك أن تبقيني في صحبتك، وتمنعني من النوم، أو تقود السيارة قليلاً إذا كنت في حالة سُكر شديد.

لقد شعرت باليأس الشديد لدرجة أنني رفضت.

"أنا آسف جدًا، بيل"، قلت. "الرحلة لن تكون مفيدة بالنسبة لي، لا أرى أي جدوى من متابعة فكرة العمل الميداني هذه بعد الآن."

"لا تستسلم دون قتال"، قال بيل بنبرة قلق أبوي. "أعطي كل ما لديك للقتال، وإذا نجح الأمر، فلا بأس بالاستسلام، ولكن ليس قبل ذلك. تعال معي وشاهد كيف يعجبك الجنوب الغربي.

وضع ذراعه حول كتفي. لم أستطع إلا أن ألاحظ مدى ثقل ذراعه. كان طويل القامة وقوي البنية، لكن في السنوات الأخيرة اكتسب جسده صلابة غريبة. لقد فقد صفته الصبيانية. لم يعد وجهه المستدير ممتلئًا وشبابيًا كما كان من قبل. الآن أصبح وجهًا قلقًا. اعتقدت أنه كان قلقًا لأنه كان يفقد شعره، لكن في بعض الأحيان بدا لي أن الأمر كان أكثر من ذلك. ولم يكن الأمر أنه أصبح أكثر بدانة، بل كان جسده ثقيلاً بطرق من المستحيل تفسيرها. لقد لاحظت ذلك في طريقة مشيته، ووقوفه، وجلوسه. بدا لي أن بيل كان يحارب الجاذبية بكل ذرة من كيانه، في كل ما يفعله.

متجاهلاً مشاعر الهزيمة التي انتابتني، بدأت رحلتي معه. لقد قمنا بزيارة كل الأماكن في أريزونا ونيو مكسيكو حيث كان هناك هنود. كانت إحدى النتائج النهائية لهذه الرحلة أنني اكتشفت أن صديقي عالم الأنثروبولوجيا لديه جانبان محددان لشخصيته. لقد أوضح لي أن آراءه كعالم أنثروبولوجيا محترف كانت مدروسة للغاية، ومتوافقة مع الفكر الأنثروبولوجي في ذلك الوقت، ولكن كشخص عادي، فإن عمله الميداني في الأنثروبولوجيا منحه ثروة من الخبرات التي لم يتحدث عنها أبدًا. ولم تكن هذه التجارب متوافقة مع الفكر الأنثروبولوجي في ذلك الوقت لأنها كانت أحداثًا من المستحيل تصنيفها.

خلال رحلتنا، كان يتناول المشروبات مع مخبريه السابقين دائمًا، ويشعر بالاسترخاء بعد ذلك. كنتُ أقود السيارة حينها بينما يجلس هو في مقعد الراكب الأمامي يرتشف من زجاجة مشروبه "بالانتين" ذي الثلاثين عامًا. حينها، كان بيل يتحدث عن تجاربه غير المُدرجة.

"لم أؤمن أبدًا بالأشباح"، قال فجأة في أحد الأيام. "لم أذهب أبدًا إلى الأشباح والجواهر العائمة والأصوات في الظلام، كما تعلم. لقد حظيت بتربية عملية وجادة للغاية. لقد كان العلم دائمًا بوصلتي. ولكن بعد ذلك، أثناء العمل في الميدان، بدأت كل أنواع الهراء الغريب تتسرب إلي. على سبيل المثال، ذهبت مع بعض الهنود في إحدى الليالي في مهمة رؤية. كانوا في الواقع سيأهلوني ببعض الأعمال المؤلمة المتمثلة في ثقب عضلات صدري. كانوا يجهزون كوخ عرق في الغابة. لقد استسلمت لتحمل الألم. تناولت مشروبين أو ثلاثة لأحصل على القوة. وبعد ذلك، صرخ الرجل الذي كان سيشفع لي مع الأشخاص الذين أجروا المراسم في رعب وأشار إلى شخصية مظلمة وظليلة تسير نحونا.

"عندما اقترب مني ذلك الشخص الغامض،" تابع بيل، "لاحظت أن ما كان أمامي كان هنديًا عجوزًا يرتدي أغرب زي يمكنك تخيله. كان لديه أدوات الشامان. كان الرجل الذي كان برفقتي في تلك الليلة مغمى عليه بلا خجل عند رؤية الرجل العجوز. جاء الرجل العجوز إلي وأشار بإصبعه إلى صدري. كان إصبعه مجرد جلد وعظم. لقد تحدث معي بأشياء غير مفهومة. وبحلول ذلك الوقت، كان بقية الناس قد رأوا الرجل العجوز، وبدأوا في الاندفاع نحوي بصمت. التفت الرجل العجوز لينظر إليهم، فتجمد كل

واحد منهم. لقد ألقى عليهم خطابا حادا للحظة. كان صوته شيئا لا ينسى. كان الأمر كما لو كان يتحدث من أنبوب، أو كما لو كان هناك شيء متصل بفمه يحمل الكلمات منه. أقسم لك رأيت الرجل يتحدث داخل جسده، وفمه يبث الكلمات كجهاز ميكانيكي. بعد أن ألقى خطابًا محرجًا على الرجال، واصل الرجل العجوز المشي، متجاوزًا إياي، ومتجاوزًا إياهم، واختفى، وابتلعه الظلام.

قال بيل إن الخطة الخاصة بإقامة حفل التأهيل فشلت؛ ولم يتم إجراؤه مطلقًا؛ وكان الرجال، بما في ذلك الشامان المسؤولون، يرتجفون خوفًا. وأوضح أنهم كانوا خائفين للغاية لدرجة أنهم تفرقوا وغادروا.

"الأشخاص الذين كانوا أصدقاء لسنوات،" تابع، "لم يتحدثوا مع بعضهم البعض مرة أخرى أبدًا. لقد زعموا أن ما رأوه كان ظهور شامان عجوز بشكل لا يصدق، وأن الحديث عنه فيما بينهم قد يجلب الحظ السيئ. في الواقع، قالوا إن مجرد النظر إلى بعضهم البعض من شأنه أن يجلب لهم الحظ السيئ. "أغلبهم انتقلوا بعيدًا عن المنطقة."

"لماذا شعروا أن التحدث مع بعضهم البعض أو رؤية بعضهم البعض سيجلب لهم سوء الحظ؟" سألته.

"هذه هي معتقداتهم" أجاب. "إن رؤية من هذا النوع تعني بالنسبة لهم أن الظهور تحدث إلى كل واحد منهم على حدة. "إن الحصول على رؤية من هذا النوع هو بالنسبة لهم بمثابة **حظ العمر**."

"و ما هو الشيء الفردي الذي أخبرته الرؤية لكل واحد منهم؟" سألت.

"لا أعرف"، أجاب. "لم يشرحوا لي أي شيء أبدًا. في كل مرة سألتهم، دخلوا في حالة عميقة من الخدر. لم يروا شيئا، ولم يسمعوا شيئا. بعد سنوات من الحادثة، أقسم لي الرجل الذي أغمي عليه بجانبي أنه تظاهر بالإغماء لأنه كان خائفًا جدًا لدرجة أنه لم يرغب في مواجهة الرجل العجوز، وأن ما كان عليه قوله كان مفهومًا من قبل الجميع على مستوى آخر غير فهم اللغة.

وقال بيل إنه في حالته، فإن ما أخبره به الشبح كان له علاقة بصحته وتوقعاته في الحياة.

"ماذا تقصد بذلك؟" سألته. "الأمور ليست جيدة بالنسبة لي"، اعترف. "جسدي لا يشعر بأنه على ما يرام."

"ولكن هل تعلم ما هو الأمر الحقيقي معك؟" سألت. "أوه نعم،" قال بلا مبالاة. "لقد أخبرني الأطباء. لكنني لن أقلق بشأن هذا الأمر، أو حتى أفكر فيه.

لقد تركني ما كشفه بيل أشعر بالقلق الشديد. كان هذا جانبًا من شخصيته لم أكن أعرفه. لقد اعتقدت دائمًا أنه رجل عجوز قوي البنية. لا أستطيع أبدًا أن أتصوره ضعيفًا. لم يعجبني تبادلنا. لكن كان

الوقت متأخرًا جدًا بالنسبة لي للتراجع. استمرت رحلتنا.

في مناسبة أخرى، اعترف بأن الشامان في الجنوب الغربي قادرون على تحويل أنفسهم إلى كيانات مختلفة، وأن مخططات التصنيف مثل "شامان الدب" أو "شامان أسد الجبل"، وما إلى ذلك، لا ينبغي اعتبارها كنايات أو استعارات لأنها ليست كذلك. .

"هل تصدق ذلك،" قال بنبرة إعجاب كبير، "أن هناك بعض الشامان الذين أصبحوا بالفعل دببة، أو أسود الجبال، أو نسور؟ أنا لا أبالغ، ولا أختلق أي شيء عندما أقول إنني شهدت ذات مرة تحول أحد الشامان الذي أطلق على نفسه اسم "رجل النهر"، أو "شامان النهر"، أو "الانطلاق من النهر، والعودة إلى النهر". كنت في جبال نيو مكسيكو مع هذا الشامان. كنت أقود له السيارة، فوثق بي، وكان ذاهباً للبحث عن أصله، أو هكذا قال. كنا نسير على طول النهر عندما أصبح فجأة متحمسًا جدًا. طلب مني أن أبتعد عن الشاطئ إلى بعض الصخور العالية، وأن أختبئ هناك، وأضع بطانية على رأسي وكتفي، وألقي نظرة من خلالها حتى لا أفوت ما كان على وشك القيام به.

"ماذا كان ينوي أن يفعل؟" سألته وأنا غير قادرة على تمالك نفسي.

"لم أكن أعلم" قال. "تخمينك سيكون جيدًا مثل تخميني. لم يكن لدي أي وسيلة لتصور ما كان ينوي فعله. لقد دخل إلى الماء مرتديًا ملابسه بالكامل. وعندما وصل الماء إلى منتصف ساقه، لأنه كان نهرًا واسعًا لكنه ضحل، اختفى الشامان ببساطة. قبل أن أدخل الماء، همس في أذني أنني يجب أن أذهب إلى أسفل النهر وأنتظره. لقد أخبرني بالمكان المحدد للانتظار. أنا، بالطبع، لم أصدق كلمة واحدة مما كان يقوله، لذلك في البداية لم أستطع أن أتذكر أين قال إنني يجب أن أنتظره، ولكن بعد ذلك وجدت المكان ورأيت الشامان يخرج من الماء. يبدو من الغباء أن نقول "الخروج من الماء". لقد رأيت الشامان يتحول إلى الماء ثم يتم إعادة تشكيله من الماء. هل يمكنك أن تصدق ذلك؟

لم يكن لدي أي تعليقات على قصصه. لقد كان من المستحيل بالنسبة لي أن أصدقه، ولكن لم أستطع أن أكذّبه أيضًا. لقد كان رجلاً جديًا جدًا. التفسير الوحيد المحتمل الذي استطعت التفكير فيه هو أنه كلما واصلنا رحلتنا كان يشرب أكثر فأكثر كل يوم. كان يحمل في صندوق السيارة صندوقًا يحتوي على أربع وعشرين زجاجة من الويسكي الاسكتلندي لنفسه فقط. لقد شرب في الواقع مثل السمكة.

"لقد كنت دائمًا متحيزًا للطفرات الباطنية للشامان"، قال لي في يوم آخر. "ليس الأمر أنني أستطيع تفسير الطفرات، أو حتى الاعتقاد بحدوثها، ولكن كتمرين فكري، أنا مهتم جدًا بالنظر في أن الطفرات في الثعابين وأسود الجبال ليست صعبة مثل ما فعله شامان الماء. في لحظات كهذه، عندما أستخدم عقلي بهذه الطريقة، أتوقف عن أن أكون عالم أنثروبولوجيا وأبدأ في الرد، متبعًا شعورًا داخليًا. إن شعوري الداخلي هو أن هؤلاء الشامان يفعلون بالتأكيد شيئًا لا يمكن قياسه علميًا أو حتى التحدث عنه بذكاء.

"على سبيل المثال، هناك شامان السحاب الذين يتحولون إلى سحب، إلى ضباب. لم أر هذا يحدث من قبل، ولكنني أعرف شامانًا سحابيًا. لم أره يختفي أو يتحول إلى ضباب أمام عيني كما رأيت الشامان الآخر يتحول إلى ماء أمامي مباشرة. لكنني طاردت ذلك الشامان السحابي مرة واحدة، واختفى ببساطة في منطقة لم يكن فيها مكان للاختباء.

رغم أنني لم أره يتحول إلى سحابة، إلا أنه اختفى. لم أستطع أن أشرح أين ذهب. ولم تكن هناك أي صخور أو نباتات حول المكان الذي انتهى به الأمر. كنت هناك بعد نصف دقيقة من وصوله، لكن الشامان كان قد رحل.

"لقد طاردت هذا الرجل في كل مكان للحصول على المعلومات"، تابع بيل. "لم يمنحني أي فرصة. لقد كان ودودًا جدًا معي، ولكن هذا كل شيء.

أخبرني بيل بقصص أخرى لا حصر لها عن الصراعات والفصائل السياسية بين الهنود في المحميات الهندية المختلفة، أو قصص عن الثأر الشخصي، والعداوات، والصداقات، وما إلى ذلك، الخ، والتي لم تثير اهتمامي على الإطلاق. ومن ناحية أخرى، فإن قصصه عن التحولات والأشباح التي يبديها الشامان كانت سبباً في إحداث اضطراب عاطفي حقيقي في نفسي. لقد كنت مفتونًا ومرعوبًا منهم في نفس الوقت. ومع ذلك، عندما حاولت أن أفكر في سبب انبهاري أو رعبي، لم أتمكن من معرفة ذلك. كل ما كان بإمكاني قوله هو أن قصصه عن الشامان أثرت عليّ على مستوى غير معروف وعميق.

ومن بين الإدراكات الأخرى التي توصلت إليها من هذه الرحلة أنني تأكدت بنفسي من أن المجتمعات الهندية في الجنوب الغربي كانت مغلقة بالفعل أمام الغرباء. لقد تقبلت أخيرًا أنني كنت بحاجة إلى شيء عظيم

كان لدي قدر كبير من التحضير في علم الأنثروبولوجيا، وكان من الأفضل أن أقوم بعمل ميداني أنثروبولوجي في منطقة أعرفها جيدًا أو منطقة كنت فيها من قبل.

عندما انتهت الرحلة، أخذني بيل إلى محطة حافلات جرايهاوند في نوغاليس، أريزونا، لرحلة عودتي إلى لوس أنجلوس. وبينما كنا نجلس في منطقة الانتظار قبل وصول الحافلة، عزاني بطريقة أبوية، وذكرني بأن الفشل أمر طبيعي في العمل الميداني الأنثروبولوجي، وأنه لا يعني سوى تقوية هدف المرء أو الوصول إلى مرحلة النضج كعالم أنثروبولوجي.

فجأة، انحنى وأشار بحركة خفيفة من ذقنه إلى الجانب الآخر من الغرفة. "أعتقد أن الرجل العجوز الذي يجلس على المقعد في الزاوية هناك هو الرجل الذي أخبرتك عنه"، همس في أذني. "أنا لست متأكدًا تمامًا لأنني رأيته أمامي وجهًا لوجه مرة واحدة فقط."

"أي رجل هذا ؟ ماذا قلت لي عنه؟ سألت.

"عندما كنا نتحدث عن الشامان وتحولاتهم، أخبرتك أنني التقيت ذات مرة بشامان سحابي."

"نعم، نعم، أتذكر ذلك"، قلت. "هل هذا الرجل هو شامان السحابة؟"

"لا" قالها بحزم. "لكنني أعتقد أنه رفيق أو معلم لشامان السحابة. لقد رأيتهما معًا في أوقات مختلفة من بعيد، منذ سنوات عديدة.

لقد تذكرت أن بيل ذكر، بطريقة غير رسمية للغاية، ولكن ليس فيما يتعلق بشامان السحابة، أنه كان يعرف عن وجود رجل عجوز غامض كان شامانًا متقاعدًا، وهو رجل هندي عجوز كاره للبشر من يوما وكان ذات يوم ساحرًا مرعبًا. لم يتحدث صديقي مطلقًا عن العلاقة بين الرجل العجوز وشامان السحابة، ولكن من الواضح أنها كانت في مقدمة ذهن بيل، إلى الحد الذي جعله يعتقد أنه أخبرني عنه.

فجأة تملكني قلق غريب وجعلني أقفز من مقعدي. كما لو لم يكن لدي أي إرادة خاصة، فقد اقتربت من الرجل العجوز وبدأت على الفور خطابًا طويلاً حول مدى معرفتي بالنباتات الطبية والشامانية بين الهنود الأمريكيون في السهول وأسلافهم السيبيريين. كموضوع ثانوي، ذكرت للرجل العجوز أنني أعرف أنه كان شامانًا. واختتمت حديثي بالتأكيد له على أنه سيكون من المفيد جدًا أن يتحدث معي مطولًا.

"إذا لم يكن هناك شيء آخر،" قلت بتذمر، "يمكننا أن نتبادل القصص. "أخبرني بما لديك وسأخبرك بما لدي."

ظل الرجل العجوز ينظر إلى الأسفل حتى اللحظة الأخيرة. ثم نظر إلي. "أنا خوان ماتوس"، قال وهو ينظر إلي مباشرة في عيني.

لا ينبغي أن تنتهي خطاباتي بأي حال من الأحوال، ولكن لسبب لا أستطيع فهمه شعرت أنه لم يعد هناك ما يمكنني قوله. أردت أن أخبره باسمي. رفع يده إلى ارتفاع شفتي وكأنه يمنعني من قوله.

في تلك اللحظة، وصلت حافلة إلى محطة الحافلات. تمتم الرجل العجوز بأن هذه هي الحافلة التي كان عليه أن يستقلها، ثم طلب مني بجدية أن أبحث عنه حتى نتمكن من التحدث بسهولة أكبر وتبادل القصص. كانت هناك ابتسامة ساخرة على زاوية فمه عندما قال ذلك. وبرشاقة لا تصدق بالنسبة لرجل في مثل سنه -كنت أتوقع أنه ربما كان في الثمانينيات من عمره- قطع، في بضع قفزات، مسافة الخمسين ياردة بين المقعد الذي كان يجلس عليه وباب الحافلة. كما لو أن الحافلة توقفت فقط لالتقاطه، فقد ابتعدت بمجرد أن قفز إليها وأغلق الباب.

بعد أن غادر الرجل العجوز، عدت إلى المقعد الذي كان يجلس عليه بيل. "ماذا قال، ماذا قال؟" سأل بحماس.

"لقد طلب مني أن أبحث عنه وأذهب إلى منزله لزيارته"، قلت. "حتى أنه قال أنه يمكننا التحدث هناك."

"ولكن ماذا قلت له حتى يدعوك إلى منزله؟" سأله حازمًا: لماذا؟

أخبرت بيل أنني استخدمت أفضل ما لدي من أساليب البيع، وأنني وعدت الرجل العجوز بأن أكشف له كل ما أعرفه، من وجهة نظر قراءتي، عن النباتات الطبية.

من الواضح أن بيل لم يصدقني. لقد اتهمني بالتهرب منه. "أنا أعرف الناس في هذه المنطقة،" قال بعدوانية، "وهذا الرجل العجوز غريب جدًا. لا يتحدث إلى أي شخص، بما في ذلك الهنود. لماذا يتحدث معك، وأنت غريب تمامًا؟ "أنت لست لطيفًا حتى!" '

لقد كان من الواضح أن بيل كان منزعجًا مني. لم أستطع معرفة السبب رغم ذلك. لم أجرؤ على أن أطلب منه تفسيرًا. لقد أعطاني انطباعًا بأنه يشعر بالغيرة قليلاً. ربما شعر أنني نجحت حيث فشل هو. ومع ذلك، كان نجاحي غير مقصود إلى درجة أنه لم يكن يعني لي أي شيء. باستثناء تعليقات بيل العفوية، لم يكن لدي أي تصور عن مدى صعوبة التعامل مع هذا الرجل العجوز، ولم أكن أهتم على الإطلاق. في ذلك الوقت، لم أجد شيئًا مثيرًا للاهتمام في التبادل. لقد حيرني أن بيل كان منزعجًا جدًا بشأن هذا الأمر.

"هل تعرف أين منزله؟" سألته.

"ليس لدي أدنى فكرة" أجاب باختصار. "لقد سمعت أشخاصًا من هذه المنطقة يقولون إنه لا يعيش في أي مكان، وأنه يظهر هنا وهناك بشكل غير متوقع، ولكن هذا هراء. من المحتمل أنه يعيش في كوخ في نوغاليس، المكسيك.

"لماذا هو مهم جدًا؟" سألته. سؤالي جعلني أجمع الشجاعة الكافية لأضيف، "يبدو أنك منزعج لأنه تحدث معي. لماذا؟"

وبدون أي مقدمات، اعترف بأنه كان منزعجًا لأنه كان يعلم مدى عدم جدوى محاولة التحدث مع هذا الرجل. "هذا الرجل العجوز وقح مثل أي شخص آخر"، أضاف. "في أفضل الأحوال، فإنه يحدق فيك دون أن يقول كلمة واحدة عندما تتحدث إليه. وفي أوقات أخرى، لا ينظر إليك حتى؛ يعاملك كما لو أنك غير موجود. في المرة الوحيدة التي حاولت فيها التحدث معه رفضني بوحشية. هل تعلم ماذا قال

لي؟ قال: لو كنت مكانك لما أهدرت طاقتي بفتح فمي. وفر هذا الكلام لك. "أنت بحاجة إليه." لو لم يكن عجوزًا كهذا، لكنت لكمته في أنفه.

لقد أشرتُ إلى بيل أن وصفه بـ"الرجل العجوز" كان أقرب إلى المجاز من الوصف الفعلي. لم يبدو في الواقع أنه كان كبيرًا في السن، على الرغم من أنه كان كبيرًا في السن بالتأكيد. لقد كان يمتلك قوة ونشاطًا هائلين. لقد شعرت أن بيل كان سيفشل فشلاً ذريعاً لو حاول لكمه في أنفه. كان ذلك الهندي العجوز قويًا. في الواقع، لقد كان مخيفًا تمامًا.

لم أعبر عن أفكاري. لقد تركت بيل يواصل إخباري بمدى اشمئزازه من فظاظة ذلك الرجل العجوز، وكيف كان سيتعامل معه لو لم يكن الرجل العجوز ضعيفًا جدًا.

"من تعتقد أنه يمكن أن يعطيني بعض المعلومات حول المكان الذي قد يعيش فيه؟" سألته.

"ربما بعض الناس في يوما،" أجاب، وهو أكثر استرخاءً بعض الشيء. "ربما الأشخاص الذين قدمتك إليهم في بداية رحلتنا. لن تخسر شيئا إذا سألتهم. "أخبرهم أنني أرسلتك إليهم."

لقد غيرت خططي في تلك اللحظة وبدلاً من العودة إلى لوس أنجلوس ذهبت مباشرة إلى يوما، أريزونا. لقد رأيت الأشخاص الذين قدمني إليهم بيل. لم يكونوا يعرفون أين يعيش الهندي العجوز، لكن تعليقاتهم عنه أثارت فضولي أكثر. قالوا إنه لم يكن من يوما، بل من سونورا بالمكسيك، وأنه في شبابه كان ساحراً مخيفاً يلقي التعاويذ ويلقي اللعنات على الناس، لكنه أصبح أكثر لطفاً مع تقدمه في السن، وتحول إلى ناسك زاهد. وأشاروا إلى أنه على الرغم من كونه من قبيلة الياكي الهندية، إلا أنه كان يتجول ذات مرة مع مجموعة من الرجال المكسيكيين الذين بدوا على دراية كبيرة بممارسات السحر. واتفقوا جميعاً على أنهم لم يروا هؤلاء الرجال في المنطقة منذ زمن طويل.

وأضاف أحد الرجال أن الرجل العجوز كان معاصراً لجده، ولكن بينما كان جده مصاباً بالخرف وملازماً للفراش، بدا الساحر أكثر قوة من أي وقت مضى. وقد أحالني نفس الرجل إلى بعض الأشخاص في هيرموسيلو، عاصمة سونورا، الذين قد يعرفون الرجل العجوز ويمكنهم إخباري المزيد عنه. لم تكن فكرة الذهاب إلى المكسيك جذابة لي على الإطلاق. كانت سونورا بعيدة جدًا عن منطقة اهتمامي. إلى جانب ذلك، استنتجت أنني سأكون أفضل حالاً لو عملت في مجال الأنثروبولوجيا الحضرية في نهاية المطاف، وعدت إلى لوس أنجلوس. لكن قبل مغادرتي إلى لوس أنجلوس، قمت بمسح منطقة يوما، بحثاً عن معلومات حول الرجل العجوز. لم يكن أحد يعرف عنه شيئاً.

بينما كانت الحافلة متجهة إلى لوس أنجلوس، شعرت بإحساس فريد. من ناحية أخرى، شعرت أنني شفيت تماماً من هوسي بالعمل الميداني أو من اهتمامي بالرجل العجوز. من ناحية أخرى، شعرت بحنين غريب. بصراحة، كان ذلك شيئاً لم أشعر به من قبل. لقد أثرت فيّ جدتها بشكل عميق. كان مزيجاً من القلق والشوق، كما لو كنت أفتقد شيئاً ذا أهمية بالغة. شعرت بوضوح وأنا أقترب من لوس

أنجلوس أن كل ما كان يؤثر عليّ في يوما قد بدأ يتلاشى مع المسافة؛ لكن تلاشيه لم يزد إلا من شوقي غير المبرر.

نية اللانهائية

قال لي دون خوان: "أريدك أن تفكر ملياً في كل تفاصيل ما حدث بينك وبين هذين الرجلين، خورخي كامبوس ولوكاس كورونادو، وهما اللذان سلماك إليّ بالفعل، ثم أخبرني بكل شيء".

وجدتُ طلبه صعباً للغاية، ومع ذلك استمتعتُ فعلاً بتذكر كل ما قاله لي هذان الشخصان. كان يريد كل التفاصيل الممكنة، وهو أمر أجبرني على دفع ذاكرتي إلى أقصى حدودها.

بدأت القصة التي أراد دون خوان أن أتذكرها في مدينة غوايماس، في ولاية سونورا بالمكسيك. في مدينة يوما بولاية أريزونا، تم تزويدي بأسماء وعناوين بعض الأشخاص الذين قيل لي إنهم قد يتمكنون من إلقاء الضوء على لغز الرجل العجوز الذي قابلته في محطة الحافلات. لم يكن الأشخاص الذين ذهبت لرؤيتهم يعرفون أي شامان عجوز متقاعد فحسب، بل إنهم شككوا حتى في وجود مثل هذا الرجل على الإطلاق. لكنها كانت جميعها مليئة حتى الحافة بقصص مخيفة عن شيوخ قبيلة الياكي، وعن المزاج العدائي العام لقبيلة الياكي. لقد ألمحوا إلى أنه ربما في فيكام النشط، وهي بلدة بها محطة سكة حديد تقع بين مدينتي غوايماس وسيوداد أوبريغون، قد أجد شخصًا يمكنه أن يرشدني في الاتجاه الصحيح.

"هل هناك شخص معين يمكنني أن أسأل؟" سألت. "أفضل خيار لك هو التحدث إلى مفتش ميداني تابع للبنك الحكومي الرسمي"، هكذا اقترح أحد الرجال. "لدى البنك عدد كبير من المفتشين الميدانيين. إنهم يعرفون جميع الهنود في المنطقة لأن البنك هو المؤسسة الحكومية التي تشتري محاصيلهم، وكل ياكي هو مزارع، ومالك قطعة أرض يمكنه أن يسميها ملكه طالما أنه يزرعها. " وهل تعرف أي مفتشين ميدانيين؟" سألت. تبادلوا النظرات وابتسموا لي معتذرين. لم يكونوا يعرفون أيًا منهم، لكنهم أوصوا بشدة بأن أتواصل مع أحد هؤلاء الرجال بمفردي وأعرض عليه قضيتي.

في محطة فيكام، كانت محاولاتي للتواصل مع مفتشي البنك الحكومي الميدانيين كارثة كاملة. قابلت ثلاثة منهم، وعندما أخبرتهم بما أريد، نظر إليّ كل واحد منهم بشك مطلق. لقد اشتبهوا على الفور في أنني كنت جاسوسًا أرسله اليانكيون إلى هناك لإثارة مشاكل لم يتمكنوا من تحديدها بوضوح، لكنهم أطلقوا عليها تكهنات جامحة تتراوح بين التحريض السياسي والتجسس الصناعي. كان الاعتقاد السائد بين الجميع، والذي لم يكن له أساس علمي، هو وجود رواسب نحاسية في أراضي هنود الياكي وأن اليانكيين كانوا يطمعون بها.

بعد هذا الفشل الذريع، لجأت إلى مدينة غوايماس وأقمت في فندق قريب جداً من مطعم رائع. كنت أذهب إلى هناك ثلاث مرات في اليوم. كان الطعام رائعاً. لقد أعجبتني كثيراً لدرجة أنني مكثت في غوايماس لأكثر من أسبوع. لقد قضيت معظم وقتي في المطعم، وبهذه الطريقة تعرفت على المالك، السيد ربيس.

في إحدى الظهيرات بينما كنت أتناول الطعام، جاء السيد ريبس إلى طاولتي برفقة رجل آخر، قدمه لي باسم خورخي كامبوس، وهو رجل أعمال من قبيلة ياكي الهندية الأصيلة عاش في أريزونا في شبابه، وكان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وكان أكثر أمريكية من أي أمريكي آخر. أشاد السيد ريبس به كمثال حقيقي على كيف يمكن للعمل الجاد والتفاني أن يطورا الشخص ليصبح رجلاً استثنائياً.

غادر السيد ريبس وجلس خورخي كامبوس بجانبي وتولى الأمر على الفور. تظاهر بالتواضع وأنكر كل مديح، لكن كان من الواضح أنه كان مسروراً للغاية بما قاله السيد ريبس عنه. للوهلة الأولى، كان لدي انطباع واضح بأن خورخي كامبوس كان رجل أعمال من النوع الذي يجده المرء في الحانات أو في زوايا الشوارع الرئيسية المزدحمة محاولاً بيع فكرة أو ببساطة يحاول إيجاد طريقة للاحتيال على الناس وسرقة مدخراتهم.

كان السيد كامبوس يتمتع بمظهر جذاب للغاية، يبلغ طوله حوالي ستة أقدام ونحيف البنية، لكن ببطن بارز يشبه شارب المشروبات الكحولية القوية. كان يتمتع ببشرة داكنة للغاية، مع مسحة خضراء، وكان يرتدي بنطال جينز أزرق باهظ الثمن وأحذية رعاة بقر لامعة ذات مقدمة مدببة وكعب زاوي، كما لو كان بحاجة إلى غرسها في الأرض لمنع جره بواسطة ثور مربوط بحبل.

كان يرتدي قميصاً رمادياً منقوشاً مكوياً بشكل مثالي؛ وفي جيبه الأيمن كان هناك غطاء بلاستيكي للجيب أدخل فيه صفاً من الأقلام. لقد رأيت نفس واقي الجيب بين موظفي المكاتب الذين لا يرغبون في تلطيخ جيوب قمصانهم بالحبر. كما تضمنت ملابسه سترة من جلد الغزال البني المحمر ذات مظهر فاخر ومزينة بشراشيب، وقبعة رعاة بقر طويلة على طراز تكساس. كان وجهه المستدير خالياً من أي تعبير. لم تكن لديه تجاعيد رغم أنه بدا في أوائل الخمسينيات من عمره. لسبب غير معروف، كنت أعتقد أنه خطير. قلت له بالإسبانية وأنا أمد يدي إليه: "سُررت بلقائك يا سيد كامبوس.

"دعنا نتجاوز الإجراءات الرسمية"، أجابني أيضاً بالإسبانية، وهو يصافحني بقوة. أحب أن أعامل الشباب على قدم المساواة، بغض النظر عن الفروق العمرية. نادني خورخي."

صمت للحظة، لا شك أنه كان يقيّم ردة فعلي. لم أكن أعرف ماذا أقول. بالتأكيد لم أكن أرغب في مجاراته، ولا في أخذ كلامه على محمل الجد.

"أنا فضولي لمعرفة ما تفعله في غوايماس"، تابع حديثه بشكل عرضي. "لا يبدو أنك سائح، ولا يبدو أنك مهتم بصيد الأسماك في أعماق البحار." قلت: "أنا طالب في علم الإنسان، وأحاول إثبات جدارتي لدى السكان الأصليين المحليين من أجل إجراء بعض البحوث الميدانية".

وقال: "وأنا رجل أعمال". "مهمتي هي توفير المعلومات، وأن أكون الوسيط. أنت لديك الحاجة، وأنا

لدي السلعة. رسوم واحدة مقابل خدماتي. لكن خدماتي مضمونة. إذا لم تحصل على الرضا، فلا يتعين عليك الدفع لي."

قلت: "إذا كان عملك هو تزويد المعلومات، فسأدفع لك بكل سرور أي مبلغ تطلبه".

"أجل!" صرخ قائلاً: "بالتأكيد أنت بحاجة إلى مرشد، شخص يتمتع بمستوى تعليمي أعلى من متوسط الهنود هنا، ليُريك المكان. هل لديك منحة من حكومة الولايات المتحدة أو من مؤسسة كبيرة أخرى؟"

"نعم"، كذبت. "لدي منحة من مؤسسة لوس أنجلوس الباطنية."

عندما قلت ذلك، رأيت بالفعل بريق جشع في عينيه. "أجل!" صرخ مرة أخرى. "ما حجم تلك المؤسسة؟" قلت: "كبير نوعاً ما".

"يا إلهي! هل هذا صحيح؟" قال ذلك وكأن كلماتي كانت تفسيراً كان يرغب في سماعه. والآن، هل لي أن أسألك، إن سمحت، ما حجم المنحة التي حصلت عليها؟ كم من المال أعطوك؟"

"بضعة آلاف من الدولارات للقيام بأعمال ميدانية تمهيدية"، كذبت مرة أخرى لأرى ما سيقوله.

"حسناً! قال وهو يستمتع بكلماته: "أحب الأشخاص الذين يتسمون بالصراحة. "أنا متأكد من أننا سنتوصل إلى اتفاق. أقدم لك خدماتي كمرشد وكمفتاح يمكنه فتح العديد من الأبواب السرية بين قبيلة الياكي. كما ترى من مظهري العام، فأنا رجل ذو ذوق رفيع وميسور الحال.

"أوه، نعم، بالتأكيد أنت رجل ذو ذوق رفيع"، أكدتُ. قال: "ما أقوله لك هو أنه مقابل رسوم رمزية ستجدها معقولة للغاية، سأوجهك إلى الأشخاص المناسبين، الأشخاص الذين يمكنك طرح أي سؤال تريده عليهم. وبمقابل مبلغ زهيد إضافي، سأترجم لكم كلماتهم حرفياً إلى الإسبانية أو الإنجليزية. أستطيع أيضاً التحدث بالفرنسية والألمانية، لكنني أشعر أن هاتين اللغتين لا تثيران اهتمامك."

قلت: "أنت محق، أنت محق للغاية". "تلك اللغات لا تثير اهتمامي على الإطلاق. لكن كم ستكون أتعابك؟"

"حسناً! أتعابي!" قال ذلك، ثم أخرج دفتر ملاحظات مغطى بالجلد من جيبه الخلفي وفتحه أمام وجهي؛ ودوّن عليه ملاحظات سريعة، ثم أغلقه مرة أخرى، ووضعه في جيبه بدقة وسرعة. كنت متأكدًا من

أنه أراد أن يعطيني انطباعًا بأنه كفؤ وسريع في حساب الأرقام.

قال: "سأتقاضى منك خمسين دولاراً في اليوم"، شاملة المواصلات، بالإضافة إلى وجباتي. أعني، عندما تأكل أنت، آكل أنا أيضاً. ما رأيك؟"

في تلك اللحظة، انحنى نحوي وهمس تقريبًا، وقال إنه يجب علينا التحول إلى اللغة الإنجليزية لأنه لا يريد أن يعرف الناس طبيعة معاملاتنا. ثم بدأ يتحدث معي بلغة لم تكن الإنجليزية على الإطلاق. كنت في حيرة من أمري. لم أكن أعرف كيفية الرد. بدأت أشعر بالقلق والتوتر بينما استمر الرجل في التحدث بكلام غير مفهوم وكأنه يتحدث بشكل طبيعي تماماً. لم يرف له جفن. حرك يديه بطريقة حيوية للغاية وأشار حوله كما لو كان يعطيني تعليمات. لم يكن لدي انطباع بأنه كان يتحدث بلغات غير مفهومة؛ ظننت ربما أنه كان يتحدث لغة الياكي.

عندما أتى الناس حول طاولتنا ونظروا إلينا، أومأت برأسي وقلت لخورخي كامبوس: "نعم، نعم، بالتأكيد". في لحظة ما قلت: "يمكنك قول ذلك مرة أخرى"، وقد بدا هذا مضحكاً جداً بالنسبة لي لدرجة أنني انفجرت ضاحكاً. كما أنه ضحك من أعماق قلبه، كما لو أنني قلت أطرف شيء ممكن.

لا بد أنه لاحظ أنني وصلت إلى أقصى حدود صبري، وقبل أن أتمكن من النهوض وإخباره أن يرحل، بدأ يتحدث الإسبانية مرة أخرى.

قال: "لا أريد أن أزعجك بملاحظاتي السخيفة". "لكن إذا كنت سأكون دليلك، كما أعتقد أنني سأكون، فسوف نقضي ساعات طويلة في الدردشة." كنت أختبرك الآن لأرى ما إذا كنت متحدثاً جيداً. إذا كنت سأقضي بعض الوقت معك في القيادة، فأنا بحاجة إلى شخص بجانبي يمكن أن يكون متلقيًا ومبادرًا جيدًا. يسرني أن أخبرك أنك كلاهما."

ثم نهض، وصافحني، وانصرف. وكأنها إشارة متفق عليها، جاء صاحب المطعم إلى طاولتي مبتسماً وهو يهز رأسه من جانب إلى آخر مثل دب صغير.

"أليس رجلاً رائعاً؟" سألني.

لم أرغب في الالتزام بتصريح، وتطوع السيد رييس بالقول إن خورخي كامبوس كان في تلك اللحظة وسيطاً في صفقة بالغة الحساسية ومربحة للغاية. وقال إن بعض شركات التعدين في الولايات المتحدة مهتمة برواسب الحديد والنحاس التي تعود ملكيتها إلى هنود الياكي، وأن خورخي كامبوس كان هناك، في طابور لتحصيل رسوم ربما تصل إلى خمسة ملايين دولار. أدركت حينها أن خورخي كامبوس

كان محتالاً. لم تكن هناك رواسب من الحديد أو النحاس على الأراضي التي يملكها هنود الياكي. لو كان هناك أي منها، لكانت الشركات الخاصة قد نقلت شعب الياكي من تلك الأراضي وأعادت توطينهم في مكان آخر. ·

قلت: "إنه رائع". "أروع رجل قابلته في حياتي. كيف يمكنني التواصل معه مرة أخرى؟"

قال السيد رييس: "لا تقلق بشأن ذلك". "سألني خورخي عنك. لقد كان يراقبك منذ مجيئك. من المحتمل أن يأتي ويطرق بابك في وقت لاحق اليوم أو غداً."

كان السيد رييس محقاً. بعد ساعتين، أيقظني أحدهم من قيلولتي بعد الظهر. كان خورخي كامبوس. كنت أنوي مغادرة غوايماس في وقت مبكر من المساء والقيادة طوال الليل إلى كاليفورنيا. شرحت له أنني سأغادر، لكنني سأعود في غضون شهر أو نحو ذلك.

"حسناً! لكن عليك البقاء الآن بعد أن قررت أن أكون دليلك،" قال.

أجبت: "أنا آسف، لكن علينا الانتظار لأن وقتي محدود للغاية الآن".

كنت أعلم أن خورخي كامبوس محتال، ومع ذلك قررت أن أكشف له أن لدي بالفعل مخبراً ينتظر العمل معي، وأنني قابلته في أريزونا. وصفت الرجل العجوز وقلت إن اسمه خوان ماتوس، وأن آخرين وصفوه بأنه شامان. ابتسم لي خورخي كامبوس ابتسامة عريضة. سألته إن كان يعرف الرجل العجوز.

"آه، نعم، أنا أعرفه"، قالها بمرح. "يمكنك القول إننا أصدقاء جيدون." دخل خورخي كامبوس إلى الغرفة وجلس على الطاولة الموجودة داخل الشرفة مباشرة دون أن تتم دعوته.

"هل يسكن بالقرب من هنا؟" سألت.

"بالتأكيد يفعل ذلك"، أكد لي. "هل يمكنك أن تأخذني إليه؟"

قال: "لا أرى مانعاً من ذلك". "سأحتاج إلى بضعة أيام لإجراء استفساراتي الخاصة، فقط للتأكد من وجوده هناك، وبعد ذلك سنذهب لرؤيته."

كنت أعلم أنه يكذب، لكنني لم أرغب في تصديق ذلك. بل إنني ظننت أن عدم ثقتي الأولية ربما كانت في غير محلها. بدا مقنعاً للغاية في تلك اللحظة.

وتابع قائلاً: "لكنني سأطلب منك مبلغاً ثابتاً لكي آخذك لرؤية الرجل. سيكون أجري مئتي دولار."

كان ذلك المبلغ أكثر مما كان متاحاً لي. رفضتُ بأدب وقلتُ إنني لا أملك ما يكفي من المال.

قال بابتسامته الأكثر جاذبية: "لا أريد أن أبدو مرتزقاً، ولكن كم من المال يمكنك تحمله؟" يجب أن تأخذ في الاعتبار أنني سأضطر إلى تقديم رشوة بسيطة. شعب الياكي يتميزون بالخصوصية الشديدة، لكن هناك دائماً طرق؛ هناك دائماً أبواب تُفتح بمفتاح سحري - المال."

على الرغم من كل مخاوفي، كنت مقتنعاً بأن خورخي كامبوس كان مدخلي ليس فقط إلى عالم الياكي، بل أيضاً إلى العثور على الرجل العجوز الذي أثار فضولي كثيراً. لم أكن أرغب في المساومة على المال. شعرتُ بالحرج تقريباً عندما عرضت عليه الخمسين دولاراً التي كانت في جيبي.

قلتُ كنوع من الاعتذار: "أنا في نهاية إقامتي هنا، لذا فقد نفدت أموالي تقريباً". لم يتبق معي سوى خمسين دولاراً.

مدّ خورخي كامبوس ساقيه الطويلتين تحت الطاولة ووضع ذراعيه خلف رأسه، ثم أمال قبعته فوق وجهه.

قال بوقاحة: "سآخذ خمسين دولاراً وساعتك". "لكن مقابل هذا المال، سآخذك لمقابلة شامان صغير." "لا تتعجل"، حذرني، كما لو كنت سأحتج. "علينا أن نصعد السلم بحذر، من الرتب الدنيا إلى الرجل نفسه، الذي أؤكد لكم أنه في القمة."

"ومتى يمكنني مقابلة هذا الشامان الصغير؟" سألته وأنا أعطيه المال وساعتي.

" حالا!" أجاب وهو يجلس منتصباً، ثم أمسك بالمال والساعة بلهفة. "دعنا نذهب! لا توجد دقيقة نضيعها!"

ركبنا سيارتي وأرشدني للتوجه إلى بلدة بوتام، وهي إحدى بلدات الياكي التقليدية على طول نهر الياكي. أثناء قيادتنا، كشف لي أننا سنقابل لوكاس كورونادو، وهو رجل اشتهر بأعماله السحرية، وحالاته الروحية الشامانية، والأقنعة الرائعة التي كان يصنعها لاحتفالات الياكي في فترة الصوم الكبير.

ثم حوّل الحديث إلى الرجل العجوز، وكان ما قاله مناقضاً تماماً لما قاله لي الآخرون عن الرجل. بينما وصفوه بأنه ناسك وشامان متقاعد، صوره خورخي كامبوس على أنه المعالج والساحر الأكثر بروزاً في المنطقة، وهو رجل حولته شهرته إلى شخصية يصعب الوصول إليها. توقف للحظة، مثل الممثل، ثم وجه ضربته القاضية: قال إن التحدث إلى الرجل العجوز بشكل منتظم، بالطريقة التي يحب علماء الأنثروبولوجيا القيام بها، سيكلفني ألفي دولار على الأقل.

كنت سأحتج على هذه الزيادة الكبيرة في الأسعار، لكنه توقع ذلك.

قال: "مقابل مئتي دولار، يمكنني أن آخذك إليه". "من بين تلك المئتي دولار، سأحصل على حوالي ثلاثين دولاراً." أما البقية فسيذهبون للرشاوى. لكن التحدث معه مطولاً سيكلف أكثر. يمكنك أن تكتشف ذلك بنفسك. لديه حراس شخصيون حقيقيون، أشخاص يحمونه. عليّ أن أستخدم أسلوب الكلام المعسول معهم وأن أجمع لهم المال.

وتابع قائلاً: "في النهاية، سأقدم لكم كشف حساب كامل مع الإيصالات وكل شيء يتعلق بضرائبك". عندها ستعرف إن عمولتي مقابل إعداد كل ذلك ضئيلة للغاية."

شعرت بموجة من الإعجاب تجاهه. كان على دراية بكل شيء، حتى إيصالات ضريبة الدخل. صمت لبعض الوقت، كما لو كان يحسب ربحه الضئيل. لم يكن لدي ما أقوله. كنت مشغولاً بحساباتي، محاولاً إيجاد طريقة للحصول على ألفي دولار. حتى أنني فكرت جدياً في التقدم بطلب للحصول على منحة.

"لكن هل أنت متأكد من أن الرجل العجوز سيتحدث معي؟" سألت.

"بالتأكيد"، أكد لي. "لن يكتفي بالتحدث إليك فحسب، بل سيقوم أيضاً بأداء السحر من أجلك، مقابل ما تدفعه له. ثم يمكنك التوصل إلى اتفاق معه بشأن المبلغ الذي يمكنك دفعه له مقابل الدروس الإضافية."

التزم خورخي كامبوس الصمت مرة أخرى لبعض الوقت، وهو يحدق في عيني.

"هل تعتقد أنك تستطيع أن تدفع لي ألفي دولار؟" سأل بنبرة متعمدة من اللامبالاة لدرجة أنني عرفت على الفور أنها كانت خدعة.

"أوه، نعم، يمكنني تحمل تكلفة ذلك بسهولة"، كذبت مطمئناً. لم يستطع إخفاء فرحته.

"ولد جيد! ولد جيد!" وهتف فرحاً. "سنستمتع كثيراً!"

حاولت أن أسأله بعض الأسئلة العامة عن الرجل العجوز؛ لكنه قاطعني بعنف. "احتفظ بكل هذا للرجل نفسه. قال مبتسماً: "سيكون ملكك بالكامل.

ثم بدأ يخبرني عن حياته في الولايات المتحدة وعن طموحاته التجارية، ولدهشتي الشديدة، بما أنني كنت قد صنفته بالفعل على أنه شخص مزيف لا يتحدث كلمة واحدة باللغة الإنجليزية، فقد تحول إلى التحدث باللغة الإنجليزية.

" أنت تتحدث الإنجليزية!" صرختُ دون أي محاولة لإخفاء دهشتي.

قال وهو يقلد لكنة تكساسية: "بالطبع أفعل يا بني"، واستمر على هذا المنوال طوال مدة حديثنا. "قلت لك، أردت أن أختبرك، لمعرفة ما إذا كنت واسع الحيلة. أنت كذلك. في الواقع، أنت ذكي للغاية، يمكنني أن أقول ".

كانت إجادة اللغة الإنجليزية رائعة، وقد أسعدني بالنكات والقصص. وفي وقت قصير جداً، كنا في بوتام. أرشدني إلى منزل يقع على أطراف المدينة. خرجنا من السيارة. كان يقود الطريق، وينادي بصوت عالٍ باللغة الإسبانية باسم لوكاس كورونادو.

سمعنا صوتاً من الجزء الخلفي من المنزل يقول، أيضاً بالإسبانية: "تعال إلى هنا".

كان هناك رجل خلف كوخ صغير، يجلس على الأرض، على جلد ماعز. كان يمسك بقطعة من الخشب بقدميه العاريتين بينما كان يعمل عليها بالإزميل والمطرقة. من خلال تثبيت قطعة الخشب في مكانها بضغط قدميه، صنع عجلة دوارة رائعة للخزاف، إن صح التعبير. كانت قدماه تديران القطعة بينما كانت يداه تعملان على الإزميل. لم أرَ شيئاً كهذا في حياتي قط. كان يصنع قناعاً، ويفرغه بإزميل منحني.

كان تحكمه بقدميه في حمل الخشب وتدويره أمراً رائعاً.

كان الرجل نحيفاً جداً؛ كان وجهه نحيفاً بملامح حادة، وعظام وجنتين بارزتين، وبشرة داكنة مائلة للنحاس. بدا جلد وجهه ورقبته وكأنه مشدود إلى أقصى حد. كان يتباهى بشارب رفيع متدلٍ أعطى وجهه الحادّ ميلاً خبيثاً. كان لديه أنف معقوف ذو جسر رفيع للغاية، وعيون سوداء حادة. بدت حواجبه السوداء للغاية كما لو أنها رُسمت بقلم رصاص، وكذلك شعره الأسود الفاحم، الممشط للخلف على رأسه. لم أرَ قط وجهاً أكثر عدائية من هذا. الصورة التي تبادرت إلى الذهن عند رؤيته هي صورة سمّام إيطالي من عصر آل ميديشي. بدت كلمتا "عدواني" و"كئيب" أنسب الأوصاف عندما ركزت انتباهي على وجه لوكاس كورونادو.

لاحظت أنه بينما كان يجلس على الأرض، ممسكاً بقطعة الخشب بقدميه، كانت عظام ساقيه طويلة لدرجة أن ركبتيه وصلت إلى كتفيه. عندما اقتربنا منه، توقف عن العمل ووقف. كان أطول من خورخي كامبوس، ونحيفاً كالسكة الحديدية. كبادرة احترام لنا، على ما أعتقد، ارتدى **قبعاته**.

قال دون أن يبتسم: "ادخل، ادخل".

كان لدي شعور غريب بأن لوكاس كورونادو لم يكن يعرف كيف يبتسم. "لمن أدين بسرور هذه الزيارة ؟" سأل خورخي كامبوس.

"لقد أحضرت هذا الشاب إلى هنا لأنه يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة حول فنك"، قال خورخي كامبوس بنبرة أكثر رعونة. "لقد أكدت أنك ستجيب على أسئلته بصدق."

أكد لي لوكاس كورونادو، وهو يقيسني بنظرته الباردة: "أوه، هذه ليست مشكلة، هذه ليست مشكلة".

تحول إلى لغة مختلفة بعد ذلك، والتي افترضت أنها ياكي. دخل هو وخورخي كامبوس في محادثة متحركة استمرت لبعض الوقت. تصرف كلاهما كما لو لم أكن موجودًا. ثم التفت إلي خورخي كامبوس.

قال: "لدينا مشكلة صغيرة هنا". "أبلغني لوكاس للتو أن هذا موسم مزدحم للغاية بالنسبة له، لأن الاحتفالات تقترب، لذلك لن يكون قادرًا على الإجابة على جميع الأسئلة التي تطرحها عليه، لكنه سيفعل في وقت آخر."

"نعم، نعم، بالتأكيد"، قال لي لوكاس كورونادو بالإسبانية. "في وقت آخر، في الواقع ؛ في وقت آخر."

قال خورخي كامبوس: "علينا اختصار زيارتنا، لكنني سأعيدك مرة أخرى".

بينما كنا نغادر، شعرت بالتأثر لأعبر للوكاس كورونادو عن إعجابي بتقنيته الهائلة في العمل بيديه وقدميه. لقد نظر إلي كما لو كنت غاضبًا، وعيناه تتسعان بدهشة.

"ألم تر قط أي شخص يعمل على قناع؟" هسهس من خلال أسنان مشدودة. "من أين أنت؟ المريخ؟"

شعرت بالغباء. حاولت أن أشرح أن أسلوبه كان جديدًا تمامًا بالنسبة لي. بدا مستعدًا لضربي على رأسي. قال لي خورخي كامبوس باللغة الإنجليزية أنني أسأت إلى لوكاس كورونادو بتعليقاتي. لقد فهم مدحي كطريقة مستترة للسخرية من فقره ؛ كانت كلماتي له بيانًا ساخرًا عن مدى فقره وعجزه.

قلت: "لكنه العكس". "أعتقد أنه رائع!"

رد خورخي كامبوس: "لا تحاولي إخباره بأي شيء من هذا القبيل". "هؤلاء الناس مدربون على تلقي الإهانات وتوزيعها في شكل سري للغاية. إنه يعتقد أنه من الغريب أن تهاجمه وأنت لا تعرفه حتى، وأن تسخر من حقيقة أنه لا يستطيع شراء ملزمة لتثبيت منحوتاته.

شعرت بالحيرة التامة. آخر شيء أردته هو أن أفسد التواصل معه. بدا أن خورخي كامبوس يدرك تمامًا حزني. "اشترِ أحد أقنعته"، نصحني.

أخبرته أنني أنوي القيادة إلى لوس أنجلوس في جولة واحدة، دون توقف، وأن لدي ما يكفي من المال لشراء البنزين والطعام.

"حسنًا، أعطه سترتك الجلدية"، قال ذلك بنبرة واقعية ولكن بنبرة سرية ومفيدة. "وإلا، فسوف تغضبه، وكل ما سيتذكره عنك هو إهاناتك. لكن لا تخبريه أن أقنعته جميلة. فقط اشتري واحدة."

عندما أخبرت لوكاس كورونادو أنني أريد استبدال سترتي الجلدية بأحد أقنعته، ابتسم بارتياح. أخذ السترة وارتداها. سار إلى منزله، ولكن قبل أن يدخل، قام ببعض الحركات الغريبة. ركع أمام نوع من المذبح الديني وحرك ذراعيه، كما لو كان يمدهما، وفرك يديه على جانبي السترة.

ذهب إلى داخل المنزل وأخرج حزمة ملفوفة في الصحف، وسلمها لي. أردت أن أطرح عليه بعض الأسئلة. اعتذر قائلاً إنه مضطر للعمل، لكنه أضاف أنه إذا أردت يمكنني العودة في وقت آخر.

في طريق العودة إلى مدينة غوايماس، طلب مني خورخي كامبوس فتح الحزمة. أراد التأكد من أن لوكاس كورونادو لم يخدعني. لم أهتم بفتح الحزمة ؛ كان قلقي الوحيد هو إمكانية عودتي بمفردي للتحدث إلى لوكاس كورونادو. شعرتُ بسعادة غامرة.

أصر خورخي كامبوس: "يجب أن أرى ما لديك". "أوقف السيارة من فضلك." لن أعرض عملائي للخطر تحت أي ظرف من الظروف أو لأي سبب من الأسباب. لقد دفعت لي لتقديم بعض الخدمات لك. هذا الرجل كاهن حقيقي، وبالتالي فهو خطير للغاية. لأنك أهنته، ربما أعطاك حزمة من السحر. إذا كان هذا هو الحال، فعلينا أن ندفنه بسرعة في هذه المنطقة ".

شعرت بموجة من الغثيان وأوقفت السيارة. بحذر شديد، أخرجت الحزمة. انتزعها خورخي كامبوس من يدي وفتحها. كانت تحتوي على ثلاث أقنعة ياكي تقليدية مصنوعة بشكل جميل. ذكر خورخي كامبوس، بنبرة عادية وغير مبالية، أنه سيكون من المناسب أن أعطيه واحدة منها. استنتجت أنه بما أنه لم يأخذني بعد لرؤية الرجل العجوز، فعليّ أن أحافظ على علاقتي به. أعطيته أحد الأقنعة بكل سرور.

قال مشيرًا: "إذا سمحت لي بالاختيار، فأنا أفضل أن آخذ هذا القناع".

قلت له أن يتفضل. لم تكن الأقنعة تعني لي أي شيء ؛ لقد حصلت على ما كنت أسعى إليه. كنت سأعطيه القناعين الآخرين أيضًا، لكنني أردت أن أريهم لأصدقائي من علماء الأنثروبولوجيا.

أعلن خورخي كامبوس: "هذه الأقنعة ليست استثنائية". "يمكنك شرائها من أي متجر في المدينة. إنهم يبيعونها للسياح هناك ".

لقد رأيت أقنعة ياكي التي بيعت في المتاجر في المدينة. كانت أقنعة وقحة للغاية مقارنة بالأقنعة التي كانت لدي، وقد اختار خورخي كامبوس بالفعل الأفضل.

تركته في المدينة وتوجهت إلى لوس أنجلوس. قبل أن أودعه، ذكرني بأنني مدين له عملياً بألفي دولار لأنه كان سيشرع في الرشوى والعمل على اصطحابي لمقابلة الرجل المهم.

"هل تعتقد أنه يمكنك أن تعطيني ألفي دولار في المرة القادمة التي تأتي فيها؟" سأل بجرأة.

سؤاله وضعني في موقف فظيع. اعتقدت أن إخباره بالحقيقة، وأنني أشك في ذلك، كان سيجعله يتخلى عني. كنت مقتنعًا آنذاك أنه على الرغم من جشعه الواضح، إلا أنه كان مرشدًا لي.

قلت بنبرة غير ملزمة: "سأبذل قصارى جهدي للحصول على المال".

"عليك أن تفعل ما هو أفضل من ذلك، يا ولد"، رد بقوة، بغضب تقريبا. "سأنفق المال بنفسي لترتيب هذا الاجتماع، ويجب أن أحصل على بعض التطمينات من جانبك." أعلم أنك شاب جاد للغاية. كم تبلغ قيمة سيارتك؟ هل لديك سند الملكية؟"

أخبرته بقيمة سيارتي، وأنني أملك سند الملكية، لكنه بدا راضياً فقط عندما أعطيته كلمتي بأنني سأحضر له المال نقداً في زيارتي القادمة.

بعد خمسة أشهر، عدت إلى غوايماس لرؤية خورخي كامبوس. كان مبلغ ألفي دولار في ذلك الوقت مبلغاً كبيراً من المال، خاصة بالنسبة للطالب. ظننت أنه إذا كان مستعداً لقبول دفعات جزئية، فسأكون أكثر من سعيد بالالتزام بدفع هذا المبلغ على أقساط.

لم أجد اسم خورخي كامبوس في أي مكان في غوايماس. سألت صاحب المطعم. كان في حيرة من أمره مثلي تماماً بشأن اختفائه.

قال: "لقد اختفى فجأة". "أنا متأكد من أنه عاد إلى أريزونا، أو إلى تكساس، حيث لديه أعمال تجارية."

لقد غامرت وذهبت لمشاهدة لوكاس كورونادو بمفردي. وصلت إلى منزله عند منتصف النهار. لم أتمكن من العثور عليه أيضاً. سألت جيرانه عما إذا كانوا يعرفون أين قد يكون. نظروا إليّ بنظرات عدائية ولم يمنحوني أي إجابة. غادرت، لكنني مررت بمنزله مرة أخرى في وقت متأخر من بعد الظهر. لم أتوقع أي شيء على الإطلاق. في الحقيقة، كنت مستعداً للمغادرة إلى لوس أنجلوس على الفور. ولدهشتي، لم يكن لوكاس كورونادو موجوداً فحسب، بل كان ودوداً للغاية معي.

أعرب بصراحة عن موافقته عندما رأى أنني أتيت بدون خورخي كامبوس، الذي وصفه بأنه مصدر إزعاج كبير. اشتكى من أن خورخي كامبوس، الذي وصفه بأنه هندي ياكي مارق، كان يستمتع باستغلال أبناء قبيلته من الياكي.

أعطيت لوكاس كورونادو بعض الهدايا التي أحضرتها له واشتريت منه ثلاثة أقنعة، وعصا منحوتة بشكل رائع، وزوجًا من الجوارب الطويلة المصنوعة من شرانق بعض الحشرات الصحراوية، وهي جوارب كان يستخدمها شعب الياكي في رقصاتهم التقليدية. ثم أخذته إلى غوايماس لتناول العشاء.

رأيته كل يوم طوال الأيام الخمسة التي قضيتها في المنطقة، وقد زودني بمعلومات لا حصر لها عن الياكي - تاريخهم وتنظيمهم الاجتماعي، ومعنى وطبيعة احتفالاتهم. كنت أستمتع كثيراً بعملي كعامل ميداني لدرجة أنني ترددت حتى في سؤاله عما إذا كان يعرف أي شيء عن الشامان العجوز. بعد التغلب على التردد، سألت لوكاس كورونادو أخيرًا عما إذا كان يعرف الرجل العجوز الذي أكد لي خورخي كامبوس أنه شامان بارز. بدا لوكاس كورونادو في حيرة من أمره. أكد لي أنه على حد علمه، لم يكن هناك رجل كهذا في ذلك الجزء من البلاد، وأن خورخي كامبوس كان محتالاً أراد فقط أن يخدعني ويسلبني أموالي.

كان لسماعي لوكاس كورونادو ينكر وجود ذلك الرجل العجوز تأثير رهيب وغير متوقع عليّ. في لحظة واحدة، اتضح لي أنني لا أهتم حقاً بالعمل الميداني. لم أكن أهتم إلا بالعثور على ذلك الرجل العجوز. أدركت حينها أن لقاء الشامان العجوز كان بالفعل تتويجاً لشيء لا علاقة له برغباتي أو تطلعاتي أو حتى أفكاري كعالم أنثروبولوجيا.

تساءلت أكثر من أي وقت مضى من يكون ذلك الرجل العجوز بحق الجحيم. وبدون أي ضوابط، بدأتُ بالصراخ والهذيان من شدة الإحباط. دستُ على الأرض بقدمي. لقد فوجئ لوكاس كورونادو كثيراً بما عرضته. نظر إليّ في حيرة، ثم بدأ يضحك. لم أكن أتصور أنه يستطيع الضحك. اعتذرت له عن نوبة الغضب والإحباط التي انتابتني. لم أستطع تفسير سبب شعوري بهذا الاضطراب. بدا أن لوكاس كورونادو قد فهم مأزقي.

وقال: "تحدث مثل هذه الأمور في هذه المنطقة".

لم يكن لدي أي فكرة عما كان يشير إليه، ولم أرغب في سؤاله. كنت أخشى بشدة من سهولة استيائه. ومن غرائب شعب الياكي سهولة شعورهم بالإهانة. بدا أنهم على أهبة الاستعداد دائماً، يترقبون الإهانات التي كانت خفية للغاية بحيث لا يلاحظها أي شخص آخر.

وتابع قائلاً: "هناك كائنات سحرية تعيش في الجبال المحيطة هنا، ويمكنها التأثير على الناس". إنها تجعل الناس يصابون بالجنون فعلاً. يثور الناس ويهذيون تحت تأثيرها، وعندما يهدأون أخيراً منهكين، لا يكون لديهم أي فكرة عن سبب انفجارهم.

"هل تعتقد أن هذا ما حدث لي؟" سألت.

أجاب بكل ثقة: "بالتأكيد". "لديك بالفعل استعداد للجنون في لحظة، لكنك أيضاً شخص متحفظ للغاية." اليوم، لم تكن متماسكا. لقد جننت من أجل لا شيء.

أكدت له قائلاً: "الأمر ليس بلا سبب". "لم أكن أعرف ذلك حتى الآن، ولكن بالنسبة لي، ذلك الرجل العجوز هو القوة الدافعة وراء كل جهودي."

التزم لوكاس كورونادو الصمت، كما لو كان غارقاً في التفكير العميق. ثم بدأ يخطو ذهابا وإيابا.

"هل تعرف أي رجل مسن يعيش هنا ولكنه ليس من هذه المنطقة؟" سألته.

لم يفهم سؤالي. كان عليّ أن أشرح له أن الهندي العجوز الذي قابلته ربما كان مثل خورخي كامبوس، وهو من قبيلة الياكي الذي عاش في مكان آخر. أوضح لوكاس كورونادو أن لقب "ماتوس" كان شائعًا جدًا في تلك المنطقة، لكنه لم يكن يعرف أي شخص يحمل لقب ماتوس وكان اسمه الأول خوان. بدا عليه اليأس. ثم أدرك فجأة أنه نظراً لكبر سن الرجل، فقد يكون له اسم آخر، وربما أعطاني اسماً مستعاراً وليس اسمه الحقيقي.

وتابع قائلاً: "الرجل العجوز الوحيد الذي أعرفه هو والد إغناسيو فلوريس". يأتي لزيارة ابنه من حين لآخر، لكنه يأتي من مدينة مكسيكو. إذا فكرنا في الأمر، فهو والد إغناسيو، لكنه لا يبدو كبيراً في السن. لكنه كبير في السن. إغناسيو كبير في السن أيضاً. لكن يبدو أن والده أصغر سناً."

ضحك من أعماق قلبه عندما أدرك الأمر. على ما يبدو، لم يفكر قط في شباب الرجل العجوز حتى تلك اللحظة. ظل يهز رأسه، كما لو كان في حالة عدم تصديق. أما أنا، فقد كنت في غاية السعادة.

"هذا هو الرجل!" صرخت دون أن أعرف السبب.

لم يكن لوكاس كورونادو يعرف أين يعيش إغناسيو فلوريس بالفعل، لكنه كان متعاونًا للغاية وأرشدني إلى القيادة إلى بلدة ياكي قريبة، حيث وجد الرجل الذي أبحث عنه.

كان إغناسيو فلوريس رجلاً ضخماً وبديناً، ربما في منتصف الستينيات من عمره. لقد حذرني لوكاس كورونادو من أن الرجل الضخم كان جندياً محترفاً في شبابه، وأنه لا يزال يتمتع بهيبة رجل عسكري. كان لدى إغناسيو فلوريس شارب ضخم؛ هذا بالإضافة إلى شراسة عينيه جعله بالنسبة لي تجسيداً للجندي الشرس. كان ذا بشرة داكنة. كان شعره لا يزال أسود فاحماً رغم تقدمه في السن. بدا صوته القوي الأجش وكأنه مُدرب فقط على إصدار الأوامر. كان لدي انطباع بأنه كان رجلاً من سلاح

الفرسان. كان يمشي كما لو كان لا يزال يرتدي مهاميز، ولسبب غريب، يستحيل فهمه، سمعت صوت المهاميز عندما كان يمشي.

عرّفني لوكاس كورونادو عليه وقال إنني جئت من أريزونا لرؤية والده، الذي قابلته في نوغاليس. لم يبدُ على إغناسيو فلوريس أي دهشة على الإطلاق.

قال: "أوه نعم". "والدي يسافر كثيراً." وبدون أي مقدمات أخرى، أرشدنا إلى المكان الذي يمكننا أن نجد فيه والده. لم يأتِ معنا، ظننتُ أنه من باب المجاملة. استأذن وانصرف، كما لو كان يسير في موكب.

هيأت نفسي للذهاب إلى منزل الرجل العجوز مع لوكاس كورونادو. بدلاً من ذلك، رفض بأدب؛ فقد أراد مني أن أوصله إلى منزله.

قال: "أعتقد أنكِ وجدتِ الرجل الذي كنتِ تبحث عنه، وأشعر أنه يجب أن تكون وحدك".

لقد اندهشت من مدى أدب هؤلاء الهنود الياكي، ومع ذلك، في الوقت نفسه، من مدى شراستهم. قيل لي إن الياكي كانوا متوحشين لا يترددون في قتل أي شخص؛ ولكن بالنسبة لي، كانت أبرز سماتهم هي أدبهم ومراعاتهم للآخرين.

توجهت بالسيارة إلى منزل والد إغناسيو فلوريس، وهناك وجدت الرجل الذي كنت أبحث عنه.

قلت في نهاية حديثي: "أتساءل لماذا كذب خورخي كامبوس وقال لي إنه يعرفك".

قال دون خوان بنبرة شخص يبرر سلوك خورخي كامبوس: "لم يكذب عليك". "لم يقم حتى بتزوير هويته." لقد ظن أنك فريسة سهلة وكان ينوي خداعك. لكنه لم يستطع تنفيذ خطته، لأن اللانهائية تغلبت عليه. هل تعلم أنه اختفى بعد فترة وجيزة من لقائه بك، ولم يتم العثور عليه أبدًا ؟

وتابع قائلاً: "كان خورخي كامبوس شخصية ذات مغزى بالنسبة لك". "ستجد، في كل ما حدث بينكما، نوعًا من المخطط التوجيهي، لأنه يمثل حياتك".

"لماذا؟ أنا لست محتالاً! قلتُ معترضًا.

ضحك، كما لو كان يعلم شيئاً أجهله. وفجأة وجدت نفسي وسط شرح مطول لأفعالي ومبادئي وتوقعاتي. ومع ذلك، دفعتني فكرة غريبة إلى التفكير بنفس الحماس الذي كنت أشرح به نفسي أنه في ظل ظروف معينة، قد أكون مثل خورخي كامبوس. وجدتُ الفكرة غير مقبولة، واستخدمت كل طاقتي

المتاحة لمحاولة دحضها. لكن في أعماق نفسي، لم أكن أهتم بالاعتذار إذا كنت مثل خورخي كامبوس.

عندما عبرت عن معضلتي، ضحك دون خوان بشدة حتى اختنق، مرات عديدة.

وعلق قائلاً: "لو كنت مكانك، لاستمعت إلى صوتي الداخلي". ما الفرق الذي سيحدث لو كنت مثل خورخي كامبوس: محتال! كان محتالاً رخيصاً. أنت أكثر تفصيلاً. هذه هي قوة السرد. لهذا السبب يستخدمه السحرة. إنه يجعلك على اتصال بشيء لم تكن تتوقع حتى وجوده بداخلك.

أردت المغادرة في تلك اللحظة. كان دون خوان يعرف تماماً ما أشعر به. قال: "لا تستمع إلى الصوت السطحي الذي يثير غضبك".

بشكل حاسم. استمع إلى ذلك الصوت العميق الذي سيرشدك من الآن فصاعدًا ، الصوت الذي يضحك. استمع إليه! و اضحك معه. اضحك! اضحك!"

كانت كلماته بمثابة أمر منوم بالنسبة لي. رغماً عن إرادتي، بدأت أضحك. لم أشعر بالسعادة قط كما شعرت بها الآن. شعرتُ بالحرية، وكأنني بلا قناع.

"اقرأ لنفسك قصة خورخي كامبوس مرارًا وتكرارًا."

قال دون خوان. ستجد فيها ثروة لا حصر لها. كل تفصيل جزء من خريطة. من طبيعة اللانهائية، بمجرد أن نعبر عتبة معينة، أن نضع مخططًا أمامنا ".

حدق بي لفترة طويلة. لم يكتفِ بإلقاء نظرة خاطفة كما في السابق، بل حدق بي بتمعن. قال في النهاية: "كان أحد الأفعال التي لم يستطع خورخي كامبوس تجنب القيام بها هو وضعك على اتصال مع الرجل الآخر: لوكاس كورونادو".

الذي هو شخص ذو أهمية بالنسبة لك مثل خورخي كامبوس نفسه، وربما أكثر؟

أثناء سرد قصة هذين الرجلين، أدركت أنني قضيت وقتاً أطول مع لوكاس كورونادو مقارنة بخورخي كامبوس؛ ومع ذلك، لم تكن حواراتنا بنفس القدر من الحدة، وكانت تتسم بفترات صمت هائلة. لم يكن لوكاس كورونادو رجلاً كثير الكلام بطبيعته، وبطريقة غريبة، كان كلما صمت كان ينجح في جرّي معه إلى تلك الحالة.

قال دون خوان: "لوكاس كورونادو هو الجزء الآخر من خريطتك". ألا تجد الأمر غريباً أنه نحات مثلك، فنان شديد الحساسية كان، مثلك في وقت من الأوقات، يبحث عن راعٍ لفنه؟ لقد بحث عن راعٍ تمامًا كما تبحث أنت عن امرأة، محبة للفنون، ترعى إبداعك.

دخلت في صراع مرعب آخر. هذه المرة كان صراعي بين يقيني المطلق بأنني لم أذكر له هذا الجانب من حياتي، وحقيقة أن كل ذلك كان صحيحاً، وحقيقة أنني لم أتمكن من إيجاد تفسير لكيفية حصوله على هذه المعلومات. مرة أخرى، أردت المغادرة فوراً. لكن مرة أخرى، طغى على الدافع صوتٌ نابع من أعماق النفس. دون أي إقناع، بدأت أضحك من كل قلبي. جزء مني، على مستوى عميق، لم يكن يهتم إطلاقاً بمعرفة كيف حصل دون خوان على تلك المعلومات. إن حقيقة امتلاكه لها، وعرضها بهذه الطريقة الدقيقة والماكرة، كانت مناورة ممتعة للمشاهدة. لم يكن من المهم أن يغضب الجزء السطحي مني ويريد المغادرة.

قال لي دون خوان وهويربت على ظهري بقوة: "جيد جدًا".

ظل شارد الذهن للحظة، كما لو كان يرى أشياء غير مرئية للعين العادية.

وقال: "خورخي كامبوس ولوكاس كورونادو هما طرفا محور واحد". "هذا المحور هو أنت، في أحد طرفيه مرتزق قاسٍ وعديم الحياء وفظ يهتم بنفسه؛ بشع، لكنه لا يُقهر." وفي الطرف الآخر فنان شديد الحساسية، معذب، ضعيف وهش. كان ينبغي أن تكون هذه خريطة حياتك، لولا ظهور احتمال آخر، الاحتمال الذي انفتح عندما تجاوزت عتبة اللانهائية. بحثت عني، ووجدتني ؛ وهكذا، عبرت العتبة. أخبرتني نية اللانهائية أن أبحث عن شخص مثلك. لقد وجدتك، وبالتالي تجاوزت العتبة بنفسي ".

انتهى الحديث عند هذه النقطة. دخل دون خوان في إحدى فترات صمته الطويلة المعتادة. لم يكسر صمته إلا في نهاية اليوم، عندما عدنا إلى منزله وبينما كنا نجلس تحت مظلته، نبرد أنفسنا من المشي الطويل الذي قمنا به.

وتابع دون خوان قائلاً: "في سردك لما حدث بينك وبين خورخي كامبوس، وبينك وبين لوكاس كورونادو، وجدت، وآمل أن تكون قد وجدت أنت أيضاً، عاملاً مقلقاً للغاية". بالنسبة لي، إنه فأل خير. يشير ذلك إلى نهاية حقبة، مما يعني أن ما كان قائماً هناك لا يمكن أن يبقى. عناصر واهية للغاية هي التي أوصلتك إليّ. لم يستطع أي منهم الاعتماد على نفسه. هذا ما استنتجته من روايتك.

تذكرت أن دون خوان قد كشف لي ذات يوم أن لوكاس كورونادو كان مريضاً بمرض عضال. كان يعاني من حالة صحية كانت تنهكه ببطء.

وتابع دون خوان قائلاً: "لقد أرسلت إليه رسالة عبر ابني إغناسيو بشأن ما يجب عليه فعله لعلاج نفسه، لكنه يعتقد أن هذا هراء ولا يريد سماعه". ليس خطأ لوكاس. لا يرغب الجنس البشري بأكمله في سماع أي شيء. إنهم لا يسمعون إلا ما يريدون سماعه.

تذكرت أنني أقنعت دون خوان أن يخبرني

بما يمكنني قوله للوكاس كورونادو لمساعدته في تخفيف آلامه الجسدية ومعاناته النفسية. لم يكتف دون خوان بإخباري بما يجب أن أقوله له، بل أكد أيضاً أنه إذا أراد لوكاس كورونادو ذلك، فبإمكانه أن يعالج نفسه بسهولة. ومع ذلك، عندما سلمت رسالة دون خوان، نظر إلي لوكاس كورونادو كما لو أنني فقدت عقلي. ثم انتقل إلى تصوير رائع، ولو كنت من قبيلة الياكي، لكان مهيناً للغاية، لرجل يشعر بالملل الشديد من إصرار شخص ما غير المبرر. كنت

أظن أن الهنود الياكي فقط هم من يستطيعون أن يكونوا بهذه الدقة والبراعة.

قال أخيراً بتحدٍّ، غاضباً من افتقاري للحساسية: "هذه الأشياء لا تفيدني". "الأمر لا يهم حقاً." كلنا سنموت. لكن إياك أن تصدق أنني فقدت الأمل. سأحصل على بعض المال من البنك الحكومي. سأحصل على دفعة مقدمة لمحصولي، وبعد ذلك سأحصل على ما يكفي من المال لشراء شيء سيشفيني، تلقائياً. اسمه فيتامينول."

"ما هو فيتامينول؟" سألت.

قال ببراءة طفل: "إنه شيء يتم الإعلان عنه في الراديو". "إنه يعالج كل شيء. يُنصح به للأشخاص الذين لا يتناولون اللحوم أو الأسماك أو الدواجن يومياً. يُنصح به لأشخاص مثلي ممن بالكاد يستطيعون الحفاظ على تماسك أجسادهم وأرواحهم."

في حماسي لمساعدة لوكاس كورونادو، ارتكبت في تلك اللحظة أكبر خطأ يمكن تصوره في مجتمع من الكائنات شديدة الحساسية مثل الياكي: عرضت عليه أن أعطيه المال لشراء فيتامينول. كانت نظرته الباردة دليلاً على مدى الألم الذي سببته له. كان غبائي لا يغتفر. قال لوكاس كورونادو بصوت خافت جداً إنه قادر على شراء فيتامينول بنفسه.

عدتُ إلى منزل دون خوان. شعرت برغبة في البكاء. لقد خانتني حماستي.

قال دون خوان ببرود: "لا تضيع طاقتك في القلق بشأن أشياء كهذه. "لوكاس كورونادو عالق في حلقة مفرغة، وكذلك أنت." وكذلك الجميع. لديه فيتامينول، وهو يثق بأنه سيشفي كل شيء، ويحل جميع مشاكله. في الوقت الحالي، لا يستطيع تحمل تكاليفه، لكنه يأمل بشدة أن يتمكن من ذلك في نهاية المطاف. حدق بي دون خوان بعينيه الثاقبتين. قال: "لقد أخبرتك أن أعمال لوكاس كورونادو هي خريطة حياتك". "صدقني، إنها كذلك. أشار لوكاس كورونادو إلى فيتامينول أمامك، وقد فعل ذلك بقوة وألم شديدين لدرجة أنه آذاك وجعلك تبكي.

توقف دون خوان عن الكلام حينها. لقد كانت فترة توقف طويلة وفعالة للغاية. وقال: "ولا تقل لي إنك لا تفهم ما أقصده". "بطريقة أو بأخرى، لدينا جميعًا نسختنا الخاصة من فيتامينول."

من كان خوان ماتوس حقاً؟

الجزء من روايتي عن لقائي بدون خوان الذي لم يرغب في سماعه هو مشاعري وانطباعاتي في ذلك اليوم المشؤوم عندما دخلت منزله: الصدام المتناقض بين توقعاتي وواقع الموقف، والتأثير الذي أحدثته في نفسي مجموعة من أكثر الأفكار غرابة التي سمعتها على الإطلاق.

قال لي ذات مرة عندما حاولت إخباره بكل هذا: "هذا أقرب إلى الاعتراف منه إلى تسلسل الأحداث.

بدأتُ حديثي قائلًا: "لا يمكن أن تكون مخطئًا أكثر من ذلك يا دون خوان"، لكنني توقفت. شيء ما في الطريقة التي نظر بها إليّ جعلني أدرك أنه كان على حق. مهما كان ما سأقوله، فإنه سيبدو مجرد كلام فارغ، ومجاملة. لكن ما حدث في أول لقاء حقيقي لنا كان ذا أهمية بالغة بالنسبة لي، حدث ذو عواقب وخيمة.

خلال أول لقاء لي مع دون خوان، في محطة الحافلات في نوغاليس، أريزونا، حدث لي شيء من طبيعة غير عادية، لكنه جاء إليّ مخففاً بمخاوفي بشأن تقديم الذات. كنت أرغب في إثارة إعجاب دون خوان، وفي محاولتي للقيام بذلك، ركزت كل اهتمامي على عملية بيع بضاعتي، إن صح التعبير. لم يظهر سوى بعد أشهر بقايا غريبة لأحداث منسية.

في أحد الأيام، ومن دون سابق إنذار، ودون أي إقناع أو توجيه من جانبي، تذكرت بوضوح استثنائي شيئًا فاتني تمامًا أثناء لقائي الفعلي مع دون خوان. عندما منعني من إخباره باسمي، حدق في عينيّ وأصابني بالخدر بنظراته. كان هناك الكثير مما كان بإمكاني قوله له عن نفسي. كان بإمكاني أن أسهب في الحديث عن معرفتي وقيمتي لساعات لو لم توقفني نظرته تماماً.

في ضوء هذا الإدراك الجديد، أعدت النظر في كل ما حدث لي في تلك المناسبة. كان استنتاجي الحتمي هو أنني قد شهدت

انقطاعًا لتدفق غامض أبقاني مستمرًا، وهو تدفق لم ينقطع من قبل، على الأقل ليس بالطريقة التي فعلها دون خوان. عندما حاولت أن أصف لأي من أصدقائي ما مررت به جسديًا، بدأ عرق غريب يغطي جسدي بالكامل، نفس العرق الذي شعرت به عندما نظر إلي دون خوان بتلك النظرة؛ كنت في تلك اللحظة غير قادر على النطق بكلمة واحدة فحسب، بل وغير قادر على التفكير في أي شيء.

بعد ذلك، ظللت أفكر ملياً في الإحساس الجسدي لهذا الانقطاع، والذي لم أجد له تفسيراً منطقياً. جادلت لبعض الوقت بأن دون خوان لا بد أنه قام بتنويمي مغناطيسياً، لكن ذاكرتي أخبرتني بعد ذلك أنه لم يصدر أي أوامر تنويم مغناطيسي، ولم يقم بأي حركات يمكن أن تجذب انتباهي. في الحقيقة، لقد ألقى عليّ نظرة خاطفة فقط. كانت حدة تلك النظرة هي التي جعلت الأمر يبدو كما لو أنه حدق بي لفترة طويلة. لقد استحوذ عليّ الأمر، وجعلني أشعر بالارتباك على مستوى جسدي عميق.

عندما رأيت دون خوان أمامي مرة أخرى، كان أول شيء لاحظته فيه هو أنه لم يكن يشبه على الإطلاق ما كنت أتخيله طوال الوقت الذي حاولت فيه العثور عليه. لقد اختلقت صورة الرجل الذي قابلته في محطة الحافلات، والتي كنت أتقنها كل يوم من خلال تذكر المزيد من التفاصيل المزعومة. في مخيلتي، كان رجلاً عجوزاً، لا يزال قوياً ورشيقاً للغاية، ولكنه يكاد يكون ضعيفاً. كان الرجل الذي يواجهني مفتول العضلات وحاسماً. كان يتحرك بخفة ورشاقة، لكن ليس بخفة الحركة. كانت خطواته ثابتة، وفي الوقت نفسه خفيفة. كان يشع حيويةً وهدفاً. لم تكن ذاكرتي المركبة متوافقة على الإطلاق مع الواقع. ظننتُ أن لديه شعراً أبيض قصيراً وبشرة داكنة للغاية. كان شعره أطول، ولم يكن أبيض كما كنت أتخيل. لم يكن لون بشرته داكناً جداً أيضاً. كنت أقسم أن ملامحه كانت تشبه ملامح الطيور، بسبب كبر سنه. لكن ذلك لم يكن صحيحاً أيضاً. كان وجهه ممتلئاً، يكاد يكون مستديراً. بنظرة واحدة، كانت أبرز سمات الرجل الذي ينظر إلي هي عينيه الداكنتين، اللتين كانتا تتألقان ببريق غريب وراقص.

شيء غاب عني تماماً في تقييمي السابق له هو أن ملامحه كانت ملامح رياضي. كانت كتفاه عريضتين، وبطنه مسطحة؛ بدا وكأنه راسخ في الأرض. لم يكن هناك ضعف في ركبتيه، ولا رعشة في أطرافه العلوية. كنت أتخيل أنني سألاحظ ارتعاشاً طفيفاً في رأسه وذراعيه، كما لو كان متوتراً وغير متزن. كنت أتخيل أيضاً أن طوله يبلغ حوالي خمسة أقدام وست بوصات، أي أقصر بثلاث

بوصات من طوله الحقيقي.

لم يبدُ دون خوان متفاجئاً برؤيتي. أردت أن أخبره كم كان من الصعب عليّ العثور عليه. كنت أتمنى أن يهنئني على جهودي الجبارة، لكنه ضحك عليّ ساخراً.

قال: "جهودك ليست مهمة". "الأهم هو أنك وجدت مكاني." قال لي وهو يغريني: "اجلس، اجلس"، مشيراً إلى أحد صناديق الشحن تحت خيمته، ثم ربت على ظهري؛ لكنها لم تكن تربيتة ودية.

شعرت وكأنه ربت على ظهري رغم أنه لم يلمسني فعلياً. أحدثت صفعته الخفيفة إحساساً غريباً وغير مستقر، ظهر فجأة واختفى قبل أن أتمكن من استيعاب ماهيته. ما تبقى في داخلي بدلاً من ذلك كان سلاماً غريباً. شعرت بالراحة. كان ذهني صافياً تماماً. لم تكن لدي أي توقعات، ولا أي رغبات. اختفى فجأة توتري المعتاد وتعرق يديّ، وهما من علامات وجودي.

قال لي دون خوان وهو ينظر في عيني كما فعل في محطة الحافلات: "الآن ستفهم كل ما سأقوله لك".

في العادة، كنت سأعتبر تصريحه سطحياً، وربما بلاغياً، ولكن عندما قاله، لم يسعني إلا أن أؤكد له مراراً وتكراراً وبصدق أنني سأفهم أي شيء يقوله لي. نظر إليّ في عينيّ مرة أخرى بنظرة شديدة.

قال وهو يجلس على صندوق شحن آخر، على بعد أقدام قليلة، مواجهاً لي: "أنا خوان ماتوس". "هذا اسمي، وأنا أنطق به لأنني من خلاله أصنع جسراً لتعبر إليه حيث أنا."

حدق بي للحظة قبل أن يبدأ بالكلام مرة أخرى.

وتابع قائلاً: "أنا ساحر. أنتمي إلى سلالة من السحرة استمرت لسبعة وعشرين جيلاً. أنا ناغوال جيلي."

لقد شرح لي أن زعيم جماعة من السحرة مثله كان يُطلق عليه اسم "ناغوال"، وأن هذا مصطلح عام يُطلق على الساحر في كل جيل والذي كان لديه تكوين طاقي محدد يميزه عن الآخرين. ليس من حيث التفوق أو الدونية، أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن

من حيث القدرة على تحمل المسؤولية.

وقال: "الناغوال وحده هو الذي يمتلك القدرة النشطة على أن يكون مسؤولاً عن مصير رفاقه". كل واحد من رفاقه يعلم ذلك، وهم يوافقون. يمكن أن يكون الناغوال رجلاً أو امرأة. في زمن السحرة الذين كانوا مؤسسي سلالتي، كانت النساء، بحكم القاعدة، هن الناغوال. إن واقعيتهن الطبيعية - نتاج أنوثتهن - قادت نسلي إلى حفر من الأمور العملية التي بالكاد استطاعوا الخروج منها. ثم تولى الذكور زمام الأمور، وقادوا نسلي إلى حفر من الغباء بالكاد نخرج منها الآن.

وتابع قائلاً: "منذ زمن الناغوال لوجان، الذي عاش قبل حوالي مائتي عام، كان هناك ترابط مشترك للجهود، يتقاسمه رجل وامرأة".

الرجل الناغوالي يجلب الرصانة؛ والمرأة الناغوالية تجلب الابتكار.

أردت أن أسأله في هذه اللحظة عما إذا كانت هناك امرأة في حياته هي الناغوال، لكن عمق تركيزي لم يسمح لي بصياغة السؤال. بل قام هو نفسه بصياغتها لي.

"هل توجد امرأة ناغوال في حياتي؟" سأل. "لا، ليس هناك أي شيء." أنا ساحر منعزل. لكن لديّ رفاقي. إنهم غير موجودين في الوقت الحالي.

خطرت ببالي فكرة بقوة لا يمكن كبحها. في تلك اللحظة، تذكرت ما أخبرني به بعض الناس في يوما عن دون خوان الذي كان يركض مع مجموعة من الرجال المكسيكيين الذين بدا أنهم على دراية كبيرة بمناورات السحر.

وتابع دون خوان قائلاً: "أن تكون ساحراً لا يعني ممارسة السحر، أو العمل على التأثير على الناس، أو أن تكون مسكوناً بالشياطين". أن تكون ساحراً يعني أن تصل إلى مستوى من الوعي يجعل الأشياء التي لا يمكن تصورها متاحة. إن مصطلح "السحر" غير كافٍ للتعبير عما يفعله السحرة، وكذلك مصطلح "الشامانية". تقتصر أفعال السحرة حصراً على عالم التجريد، عالم اللاشخصية. يكافح السحرة للوصول إلى هدف لا علاقة له بمساعي الرجل العادي. طموحات السحرة هي الوصول إلى اللانهائية، وأن يكونوا واعين بها ".

تابع دون خوان، قائلاً إن مهمة السحرة هي مواجهة اللانهائية، و

الغوص فيها يومياً، كما يغوص الصياد في البحر. كانت مهمة شاقة للغاية لدرجة أن السحرة اضطروا إلى ذكر أسمائهم قبل الشروع فيها. لقد ذكّرني بأنه في نوغاليس، ذكر اسمه قبل أن يحدث أي تفاعل بيننا. وبهذا الأسلوب، أكد على فرديته أمام اللانهائي.

فهمت بوضوح لا مثيل له ما كان يشرحه. لم أكن مضطراً لطلب توضيحات منه. كان ينبغي أن تفاجئني فطنتي الحادة، لكنها لم تفعل ذلك على الإطلاق. أدركت في تلك اللحظة أنني كنت دائماً مدركاً تماماً، وأنني كنت أتظاهر بالغباء فقط لمصلحة شخص آخر.

وتابع قائلاً: "دون علمك بأي شيء عن ذلك، بدأت معك رحلة بحث تقليدية". أنت الرجل الذي كنت أبحث عنه. انتهى بحثي عندما وجدتك، وانتهى بحثك عندما وجدتني الآن.

أوضح لي دون خوان أنه، بصفته الناغوال في جيله، كان يبحث عن فرد لديه تكوين طاقي محدد، كافٍ لضمان استمرارية سلالته. وقال إنه في لحظة معينة، دخل الناغوال لكل جيل على مدى سبعة وعشرين جيلاً متتالياً في أكثر التجارب إثارة للأعصاب في حياتهم: البحث عن الخلافة.

قال وهو ينظر إلي مباشرة في عيني: إن ما جعل البشر سحرة هو قدرتهم على إدراك الطاقة مباشرة أثناء تدفقها في الكون، وأنه عندما يرى السحرة إنسانًا بهذه الطريقة، فإنهم يرون كرة مضيئة، أو شكلًا بيضاويًا مضيئًا. كان ادعاءه هو أن البشر ليسوا قادرين فقط على رؤية الطاقة مباشرة أثناء تدفقها في الكون، ولكنهم في الواقع يرونها ، على الرغم من أنهم لا يدركون عمدًا رؤيتها .

لقد أوضح في تلك اللحظة أهم تمييز بالنسبة للسحرة، وهو التمييز بين الحالة العامة للوعي والحالة الخاصة للوعي المتعمد بشيء ما. لقد صنف جميع البشر على أنهم يمتلكون وعيًا، بمعنى عام، مما يسمح لهم برؤية الطاقة مباشرة، وصنف السحرة على أنهم البشر الوحيدون الذين كانوا يدركون عمدًا رؤية الطاقة مباشرة. ثم عرّف "الوعي" على أنه الطاقة و "الطاقة" على أنها تدفق مستمر، مضيء

اهتزاز لم يكن ثابتاً أبداً، بل كان يتحرك دائماً من تلقاء نفسه. وأكد أنه عندما شوهد إنسان، كان يُنظر إليه على أنه تكتل من حقول الطاقة التي تجمعها أكثر القوى غموضًا في الكون: قوة ملزمة ومتراصّة واهتزازية تحافظ على حقول الطاقة معًا في وحدة متماسكة. وأوضح كذلك أن الناغوال كان ساحرًا محددًا في كل جيل، وكان السحرة الآخرون قادرين على رؤيته، ليس ككرة مضيئة واحدة، ولكن كمجموعة من كرتين من الإضاءة المندمجتين، إحداهما فوق الأخرى.

وتابع قائلاً: "إن خاصية الازدواجية هذه تسمح للناغوال بأداء مناورات يصعب على الساحر العادي القيام بها". فعلى سبيل المثال، يعتبر حيوان الناغوال خبيرًا بالقوة التي تربطنا معًا كوحدة متماسكة. يستطيع الناغوال أن يركز انتباهه بالكامل، لجزء من الثانية، على تلك القوة، ويخدر الشخص الآخر. فعلت ذلك بك في محطة الحافلات لأنني أردت إيقاف وابل كلماتك المتكررة عن نفسي، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا. أردتك أن تجدني وتوقف الهراء.

وتابع دون خوان قائلاً: "لقد أكد سحرة سلالتي أن وجود كائن مزدوج - ناغوال - يكفي لتوضيح الأمور لنا". الأمر الغريب في الأمر هو أن وجود الناغوال يوضح الأمور بطريقة غامضة. حدث ذلك معي عندما قابلت ناغوال جوليان، معلمي. لقد حيرني وجوده لسنوات، لأنه في كل مرة كنت أكون فيها بالقرب منه، كنت أستطيع التفكير بوضوح، ولكن عندما ابتعد، أصبحت نفس الأحمق الذي كنت عليه دائماً.

وتابع دون خوان قائلاً: "لقد حظيت بشرف مقابلة والتعامل مع اثنين من الناغوال". لمدة ست سنوات، وبناءً على طلب الناغوال إلياس، معلم الناغوال جوليان، ذهبت لأعيش معه. هو من رباني، إن صح التعبير. لقد كان امتيازاً نادراً. لقد حظيت بمقعد في الصف الأول لمشاهدة ما هو حيوان الناغوال حقاً. كان الناغوال إلياس والناغوال جوليان رجلين ذوي طباع مختلفة للغاية. كان الناغوال إلياس أكثر هدوءًا، وضائعًا في ظلام صمته. كان الناغوال جوليان متغطرسًا، كثير الكلام بشكل قهري. بدا وكأنه يعيش ليبهر النساء. كان في حياته عدد من النساء يفوق ما قد يرغب المرء في التفكير فيه. ومع ذلك، كان كلاهما متشابهين بشكل مذهل من حيث أنه لم يكن هناك شيء بداخلهما. كانا فارغين. كان الناغوال إلياس عبارة عن مجموعة من القصص المذهلة والمؤثرة عن مناطق مجهولة. كان الناغوال جوليان

عبارة عن مجموعة من القصص التي من شأنها أن تجعل أي شخص يضحك بشدة، ويتمدد على الأرض من الضحك. كلما حاولت تحديد الرجل الذي بداخلهما، الرجل الحقيقي، بالطريقة التي استطعت بها تحديد الرجل الذي بداخل والدي، الرجل الذي بداخل كل من عرفته، لم أجد شيئاً. بدلاً من وجود شخص حقيقي بداخلهما، كانت هناك مجموعة من القصص عن أشخاص مجهولين. كان لكل من الرجلين أسلوبه الخاص، لكن النتيجة النهائية كانت واحدة: فراغ، فراغ لا يعكس العالم، بل اللانهائية.

وتابع دون خوان شرحه قائلاً إنه في اللحظة التي يعبر فيها المرء عتبة غريبة في اللانهائية، سواء عن قصد أو، كما هو الحال في حالتي، دون قصد، فإن كل ما يحدث له من تلك اللحظة فصاعدًا لم يعد حصريًا في نطاقه الخاص، بل يدخل في عالم اللانهائية.

وتابع قائلاً: "عندما التقينا في أريزونا، تجاوزنا كلانا عتبة غريبة". "ولم يتم تحديد هذه العتبة من قبل أي منا، بل من قبل اللانهائية نفسها. اللانهائية هي كل ما يحيط بنا." قال هذا وأومأ بذراعيه في حركة واسعة. "يسميها سحرة سلالتي اللانهائية، الروح، بحر الوعي المظلم، ويقولون إنه شيء موجود هناك ويحكم حياتنا".

كنت قادراً حقاً على فهم كل ما كان يقوله، ومع ذلك لم أكن أعرف ما الذي كان يتحدث عنه بحق الجحيم. سألت عما إذا كان عبور العتبة حدثًا عرضيًا، ناتجًا عن ظروف لا يمكن التنبؤ بها تحكمها الصدفة. أجاب بأن خطواته وخطواتي كانت موجهة باللانهائية، وأن الظروف التي بدت وكأنها محكومة بالصدفة كانت في جوهرها محكومة بالجانب النشط من اللانهائية. أطلق عليها النية.

"ما جمعنا أنا وأنت معًا"، تابع، "كانت نية اللانهائية. من المستحيل تحديد ما هي نية اللانهائية هذه، ومع ذلك فهي موجودة، وملموسة مثلك أنت وأنا. يقول السحرة إنها هزة في الهواء.

ميزة السحرة هي معرفة أن الهزة في الهواء موجودة، والرضوخ لها دون أي مقدمات أخرى. بالنسبة للسحرة، لا مجال للتفكير أو التساؤل أو التكهن. إنهم يعرفون أن كل ما لديهم هو إمكانية الاندماج مع نية اللانهائية، وهم يفعلون ذلك فقط ".

لم يكن هناك شيء أوضح بالنسبة لي من تلك التصريحات. بالنسبة لي، كانت حقيقة ما كان يقوله لي واضحة للغاية لدرجة أنها لم تسمح لي بالتفكير في كيف يمكن لمثل هذه الادعاءات السخيفة أن تبدو منطقية إلى هذا الحد. كنت أعلم أن كل ما كان يقوله دون خوان لم يكن مجرد حقيقة بديهية، بل كان بإمكاني تأكيد ذلك بالرجوع إلى كياني الخاص. كنت أعرف كل ما كان يقوله. انتابني شعور بأنني عشت كل تفاصيل وصفه.

انتهى تبادلنا للكلمات عند هذا الحد. بدا وكأن شيئاً ما قد انكمش بداخلي. في تلك اللحظة خطرت ببالي فكرة أنني أفقد عقلي. لقد أعمتني تصريحات غريبة وفقدت كل إحساس ممكن بالموضوعية. وبناءً على ذلك، غادرت منزل دون خوان على عجل شديد، وشعرت بتهديد عميق من عدو غير مرئي. أوصلني دون خوان إلى سيارتي، وهو يدرك تماماً ما كان يجري بداخلي.

قال وهو يضع يده على كتفي: "لا تقلق". أنت لست مجنوناً. ما شعرت به كان نقرة لطيفة من اللانهائية".

مع مرور الوقت، تمكنت من تأكيد ما قاله دون خوان عن معلميه الاثنين. كان دون خوان ماتوس تماماً كما وصف هذين الرجلين. بل إنني سأذهب إلى حد القول بأنه كان مزيجًا استثنائيًا من كليهما: من ناحية، هادئ للغاية ومتأمل؛ ومن ناحية أخرى، منفتح للغاية ومرح. إن أكثر العبارات دقة حول ماهية الناغوال، والتي عبر عنها في اليوم الذي وجدته فيه، هي أن الناغوال فارغ، وأن هذا الفراغ لا يعكس العالم، بل يعكس اللانهائية.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر صدقاً من هذا فيما يتعلق بدون خوان ماتوس. يعكس فراغه اللانهائية. لم يكن هناك صخب من جانبه، أو تأكيدات حول الذات. لم تكن هناك حاجة ولو ضئيلة للشعور بالظلم أو الندم. كان فراغًا لمسافر محارب، محنكًا لدرجة أنه لا يأخذ أي شيء كأمر مسلم به. المسافر المحارب الذي لا يقلل من شأن أي شيء أو يبالغ في تقديره. مقاتل هادئ ومنضبط، يتميز بأناقة فائقة لدرجة أنه مهما حاول المرء البحث، فلن يجد أبداً نقطة التقاء كل هذا التعقيد.

نـهاية حقبـة

هموم الحياة اليومية العميقة

ذهبت إلى سونورا لرؤية دون خوان. كان عليّ أن أناقش معه أخطر حدث في تلك اللحظة من حياتي. كنت بحاجة إلى نصيحته. عندما وصلت إلى منزله، بالكاد قمت بتحيته. جلستُ وأطلقتُ العنان لمشاعري المضطربة.

قال دون خوان: "اهدأ، اهدأ". "لا شيء يمكن أن يكون بهذا السوء!"

"ماذا يحدث لي يا دون خوان؟" سألت. كان ذلك سؤالاً بلاغياً من جانبي.

"إنها أعمال اللانهائية"، أجاب. "لقد تغير شيء ما في طريقة إدراكك في اليوم الذي قابلتني فيه." إن شعورك بالتوتر ناتج عن إدراكك اللاواعي بأن وقتك قد انتهى. أنت على دراية بذلك، لكنك لست واعياً به عن قصد. تشعر بانعدام الوقت، وهذا يجعلك غير صبور. أعرف هذا، لأنه حدث لي ولجميع السحرة من سلالتي. في لحظة معينة، انتهى عهد كامل في حياتي، أو في حياتهم. والآن حان دورك. لقد نفد الوقت ببساطة." ثم طالب بسرد كامل لكل ما حدث لي. وقال إنه يجب أن يكون سرداً كاملاً، دون إغفال أي تفاصيل. لم يكن يبحث عن أوصاف مبهمة. أراد مني أن أعبر عن التأثير الكامل لما كان يزعجني.

قال: "دعنا نجري هذا الحديث، كما يقولون في عالمكم، وفقاً للقواعد". "هيا بنا

ندخل في مجال المحادثات الرسمية."

أوضح دون خوان أن الشامان في المكسيك القديمة قد طوروا فكرة المحادثات الرسميةمقابل المحادثات غير الرسمية ، واستخدموا كلاهما كأدوات لتعليم وتوجيه تلاميذهم. كانت المحادثات الرسمية بالنسبة لهم بمثابة ملخصات كانوا يقدمونها من وقت لآخر لكل ما قاموا بتدريسه أو قوله لتلاميذهم. كانت المحادثات غير الرسمية عبارة عن توضيحات يومية يتم فيها شرح الأمور دون الإشارة إلى أي شيء سوى الظاهرة نفسها قيد الدراسة.

وتابع قائلاً: "لا يحتفظ السحرة بشيء لأنفسهم". "إن إفراغ أنفسهم بهذه الطريقة هو مناورة سحرية." يدفعهم ذلك إلى التخلي عن حصن الذات.

بدأت قصتي، وأخبرت دون خوان أن ظروف حياتي لم تسمح لي أبداً بالتأمل الذاتي. منذ أقدم العصور التي أتذكرها، كانت حياتي اليومية مليئة بالمشاكل العملية التي تتطلب حلاً فورياً. أتذكر أن عمي المفضل أخبرني أنه شعر بالرعب عندما اكتشف أنني لم أتلقَ هدية في عيد الميلاد أو في عيد ميلادي. جئت للعيش في منزل عائلة والدي قبل وقت قصير من إدلائه بهذا البيان. تعاطف معي بشأن الظلم الذي تعرضت له في وضعي. بل إنه اعتذر، على الرغم من أن الأمر لا علاقة له به.

قال وهو يرتجف من شدة التأثر: "إنه أمر مقزز يا بني". "أريدك أن تعلم أنني أدعمك بنسبة مئة بالمئة كلما حانت اللحظة لتصحيح الأخطاء."

أصرّ مراراً وتكراراً على أنه يجب عليّ أن أسامح الأشخاص الذين ظلموني. من كلامه، تكوّن لدي انطباع بأنه يريدني أن أواجه والدي بما وجده وأتهمه بالكسل والإهمال، ثم بالطبع أن أسامحه. لقد فشل في إدراك أنني لم أشعر بالظلم على الإطلاق. ما كان يطلبه مني يتطلب طبيعة تأملية تجعلني أستجيب لسهام سوء المعاملة النفسية بمجرد أن يتم لفت انتباهي إليها. أكدت لعمي أنني سأفكر في الأمر، ولكن ليس في الوقت الحالي، لأنه في تلك اللحظة بالذات، كانت صديقتي، من غرفة المعيشة حيث كانت تنتظرني، تشير إليّ بيأس لأسرع.

لم تتح لي الفرصة للتفكير في الأمر، لكن لا بد أن عمي قد تحدث إلى والدي، لأنني تلقيت منه هدية، عبارة عن طرد ملفوف بعناية، مع شريط وكل شيء، وبطاقة صغيرة مكتوب عليها "آسف". قمت بتمزيق الأغلفة بفضول وشوق. كان هناك صندوق من الورق المقوى، وبداخله لعبة جميلة، قارب صغير مزود بمفتاح لف متصل بأنبوب البخار. يمكن للأطفال استخدامها للعب بها أثناء استحمامهم في حوض الاستحمام. لقد نسي والدي تماماً أنني كنت أبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، وأنني، من الناحية العملية، رجل.

بما أنني كنت قد بلغت سن الرشد وما زلت غير قادر على التأمل الذاتي الجاد، فقد كان الأمر جديداً تماماً عندما وجدت نفسي ذات يوم بعد سنوات في خضم اضطراب عاطفي غريب، بدا أنه يزداد مع مرور الوقت. لقد تجاهلت ذلك، وعزوته إلى العمليات الطبيعية للعقل أو الجسم التي تدخل في العمل بشكل دوري، بدون سبب على الإطلاق، أو ربما يتم تحفيزها بواسطة عمليات كيميائية حيوية داخل الجسم نفسه. لم أعر الأمر أي اهتمام. ومع ذلك، ازداد الاضطراب، وأجبرني ضغطه على الاعتقاد بأنني وصلت إلى لحظة في حياتي كنت أحتاج فيها إلى تغيير جذري. كان هناك شيء ما بداخلي يطالب بإعادة ترتيب حياتي. كانت هذه الرغبة في إعادة ترتيب كل شيء مألوفة. لقد شعرت بذلك في الماضي، لكنه كان خاملاً لفترة طويلة.

كنت ملتزمًا بدراسة علم الإنسان، وكان هذا الالتزام قويًا لدرجة أن عدم دراسة علم الإنسان لم يكن أبدًا جزءًا من التغيير الجذري الذي اقترحته. لم يخطر ببالي أن أترك المدرسة وأفعل شيئًا آخر. أول ما خطر ببالي هو أنني بحاجة إلى تغيير المدرسة والذهاب إلى مكان آخر، بعيدًا عن لوس أنجلوس.

قبل أن أقدم على تغيير بهذا الحجم، أردت أن أختبر الوضع، إن صح التعبير. لقد سجلت في برنامج دراسي صيفي كامل في مدرسة بمدينة أخرى. كان أهم مقرر دراسي بالنسبة لي هو فصل في علم الإنسان قام بتدريسه أحد أبرز الخبراء في شؤون الهنود في منطقة الأنديز. كان اعتقادي أنه إذا ركزت دراستي على مجال يسهل علي الوصول إليه عاطفياً، فسيكون لدي فرصة أفضل للقيام بعمل ميداني أنثروبولوجي بطريقة جادة عندما يحين الوقت. لقد تصورت أن أي معرفة بأمريكا الجنوبية ستمنحني مدخلاً أفضل إلى أي مجتمع هندي هناك.

في نفس الوقت الذي سجلت فيه في المدرسة، حصلت على وظيفة كمساعد باحث لدى طبيب نفسي كان الأخ الأكبر لأحد أصدقائي. أراد أن يقوم

بتحليل محتوى مقتطفات من بعض التسجيلات غير الضارة لجلسات أسئلة وأجوبة مع شباب وشابات حول مشاكلهم الناجمة عن الإرهاق في المدرسة، والتوقعات غير المحققة، وعدم فهمهم في المنزل، والعلاقات العاطفية المحبطة، وما إلى ذلك. كانت الأشرطة قديمة لأكثر من خمس سنوات وكان من المقرر إتلافها، ولكن قبل ذلك، تم تخصيص أرقام عشوائية لكل بكرة، وباتباع جدول الأرقام العشوائية، قام الطبيب النفسي ومساعدوه في البحث باختيار البكرات وفحصها بحثًا عن مقتطفات يمكن تحليلها.

في اليوم الأول من الدراسة في المدرسة الجديدة، تحدث أستاذ الأنثروبولوجيا عن مؤهلاته الأكاديمية وأبهر طلابه بنطاق معرفته ومنشوراته. كان رجلاً طويلاً ونحيفاً في منتصف الأربعينيات من عمره، بعيون زرقاء متقلبة. أكثر ما لفت انتباهي في مظهره الجسدي هو أن عينيه كانتا تبدوان ضخمتين خلف النظارات لتصحيح بعد النظر، وكانت كل عين من عينيه تعطي انطباعًا بأنها تدور في اتجاه معاكس للأخرى عندما يحرك رأسه أثناء حديثه. كنت أعلم أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً؛ ومع ذلك، كانت صورة مقلقة للغاية. كان يرتدي ملابس أنيقة للغاية بالنسبة لعالم أنثروبولوجيا، الذين كانوا في زماني مشهورين بملابسهم غير الرسمية للغاية. فعلى سبيل المثال، وصف طلاب علماء الآثار بأنهم كائنات مفقودة في التأريخ بالكربون المشع (الكربون-14) لم يستحموا قط.

لكن، ولأسباب مجهولة بالنسبة لي، فإن ما ميزه حقاً لم يكن مظهره الجسدي، أو سعة اطلاعه، بل طريقة كلامه. لقد نطق كل كلمة بوضوح لم أسمع مثلها من قبل، وشدد على كلمات معينة بإطالتها - كانت لديه نبرة أجنبية بشكل ملحوظ، لكنني كنت أعرف أنه مجرد تصنّع. كان ينطق بعض العبارات كإنجليزي، وأخرى كواعظ ديني.

لقد أثار إعجابي منذ البداية على الرغم من غطرسته الهائلة. كانت أهميته الذاتية واضحة لدرجة أنها لم تعد تشكل مشكلة بعد الدقائق الخمس الأولى من حصته، والتي كانت دائماً عبارة عن استعراضات متفاخرة للمعرفة مغطاة بتأكيدات جامحة عن نفسه. كان تأثيره على الجمهور مذهلاً.

لم يشعر أي من الطلاب الذين تحدثت إليهم إلا بإعجاب شديد بهذا الرجل الاستثنائي. كنت أعتقد بصدق أن كل شيء يسير على ما يرام، وأن هذا الانتقال إلى مدرسة أخرى في مدينة أخرى سيكون سهلاً وخالياً من الأحداث، ولكنه سيكون إيجابياً تماماً. أعجبتني البيئة الجديدة التي أعيش فيها.

في وظيفتي، انغمست تماماً في الاستماع إلى الأشرطة، لدرجة

حيث كنت أتسلل إلى المكتب وأستمع ليس إلى مقتطفات، بل إلى أشرطة كاملة. ما أثار دهشتي بشكل لا يوصف في البداية هو أنني سمعت نفسي أتحدث في كل شريط من تلك الأشرطة. مع مرور الأسابيع واستماعي إلى المزيد من التسجيلات، تحول افتتاني إلى رعب محض. كل كلمة قيلت، بما في ذلك أسئلة الطبيب النفسي، كانت كلماتي. كان هؤلاء الناس يتحدثون من أعماق كياني. كان الشعور بالاشمئزاز الذي انتابني شيئاً فريداً بالنسبة لي. لم يخطر ببالي قط أنني قد أتكرر بلا نهاية في كل رجل أو امرأة أسمعهم يتحدثون على الأشرطة. لقد انهار إحساسي بالفردية، الذي كان متأصلاً فيّ منذ ولادتي، بشكل ميؤوس منه تحت وطأة هذا الاكتشاف الهائل.

ثم بدأت عملية بغيضة لمحاولة استعادة نفسي. لقد قمتُ دون وعي بمحاولة سخيفة للتأمل الذاتي؛ حاولتُ التملص من مأزقي من خلال التحدث إلى نفسي بلا نهاية. أعدت في ذهني جميع المبررات المحتملة التي من شأنها أن تدعم شعوري بالتفرد، ثم تحدثت بصوت عالٍ مع نفسي عنها. بل إنني مررت بتجربة ثورية بالنسبة لي: فقد أيقظت نفسي مرات عديدة بسبب حديثي بصوت عالٍ أثناء نومي، وأنا أتحدث عن قيمتي وتميزي.

ثم، في يوم مروع، تلقيت ضربة قاتلة أخرى. في ساعات الليل المتأخرة، أيقظني طرق متواصل على بابي. لم تكن طرقة خفيفة وخجولة، بل كانت ما يسميه أصدقائي "طرقة الغستابو". كان الباب على وشك أن ينخلع من مفصلاته. قفزت من السرير وفتحت ثقب الباب. الشخص الذي كان يطرق الباب كان رئيسي، الطبيب النفسي. يبدو أن صداقتي مع شقيقه الأصغر قد فتحت لي قناة للتواصل معه. لقد صادقني دون أي تردد، وها هو ذا يقف على عتبة بابي. أضأت النور وفتحت الباب.

قلت: "تفضل بالدخول". "ماذا حدث؟"

كانت الساعة الثالثة صباحاً، ومن خلال تعبير وجهه الحاد وعينيه الغائرتين، عرفت أنه كان منزعجاً للغاية. دخل وجلس. كان فخره وسعادته، شعره الأسود الطويل، يتساقط على وجهه بالكامل. لم يبذل أي جهد لتمشيط شعره إلى الخلف، بالطريقة التي اعتاد أن يصففه بها. لقد أعجبت به كثيراً لأنه كان نسخة أكبر سناً من صديقي في لوس أنجلوس، بحاجبين أسودين كثيفين، وعينين بنيتين ثاقبتين، وفك مربع، وشفتين سميكتين. بدا أن شفته العليا تحتوي على طية إضافية في الداخل، والتي كانت تعطي في بعض الأحيان، عندما يبتسم

بطريقة معينة، انطباعًا بأنه لديه شفة عليا مزدوجة. كان يتحدث دائماً عن شكل أنفه، الذي وصفه بأنه أنف وقح ومتطفل. كنت أعتقد أنه كان واثقاً جداً من نفسه، ومتشبثاً برأيه بشكل لا يصدق. وادعى أن تلك الصفات كانت بمثابة أوراق رابحة في مهنته.

"ماذا حدث!" كرر بنبرة ساخرة، بينما كانت شفته العليا المزدوجة ترتجف بشكل لا يمكن السيطرة عليه. "يمكن لأي شخص أن يلاحظ أن كل شيء قد حدث لي الليلة."

جلس على كرسي. بدا عليه الدوار والارتباك، وكأنه يبحث عن الكلمات. نهض وذهب إلى الأريكة، ثم جلس عليها متكئاً.

"الأمر لا يقتصر على مسؤوليتي تجاه مرضاي فحسب،" تابع قائلاً، "بل يشمل أيضاً منحة بحثي، وزوجتي وأولادي، والآن أُضيف ضغطٌ آخرٌ لعينٌ إلى كل ذلك، وهذا ما يُحرقني."

الخلاصة هي أن ذلك كان خطأي، وغبائي هو الذي جعلني أثق في تلك المرأة الغبية!

وتابع قائلاً: "سأخبرك يا كارلوس، ليس هناك شيء أكثر فظاعة، واشمئزازاً، وإثارة للاشمئزاز من عدم حساسية النساء". أنا لستُ كارهاً للنساء، أنت تعرف ذلك! لكن في هذه اللحظة يبدو لي أن كل عاهرة هي مجرد عاهرة! مخادعات وحقيرات!

لم أكن أعرف ماذا أقول. مهما كان ما يقوله لي، لم يكن بحاجة إلى تأكيد أو دحض. على أي حال، لم أكن لأجرؤ على معارضته. لم تكن لدي الذخيرة اللازمة لذلك. كنت متعباً جداً. أردت العودة إلى النوم، لكنه استمر في الحديث كما لو أن حياته تعتمد على ذلك.

"أنت تعرف تيريزا مانينغ، أليس كذلك؟" سألني بأسلوب حازم واتهامي.

للحظة، اعتقدت أنه كان يتهمني بأن لي علاقة ما بسكرتيرته الشابة والجميلة. دون أن يمنحني فرصة للرد، استمر في الحديث.

"تيريزا مانينغ حقيرة." إنها حمقاء! امرأة غبية، غير مراعية لمشاعر الآخرين، ليس لديها أي دافع في الحياة سوى إقامة علاقات مع أي شخص يتمتع ببعض الشهرة

والسمعة السيئة. كنت أظن أنها ذكية وحساسة. ظننت أنها تمتلك شيئاً ما، نوعاً من الفهم، نوعاً من التعاطف، شيئاً يرغب المرء في مشاركته، أو الاحتفاظ به لنفسه فقط. لا أعرف، لكن هذه هي الصورة التي رسمتها لي، بينما هي في الواقع فاحشة ومنحطة، وأضيف، مقرفة بشكل لا يُرجى شفاؤه.

وبينما كان يواصل الحديث، بدأت صورة غريبة تتضح. على ما يبدو، كان الطبيب النفسي قد مر بتجربة سيئة تتعلق بسكرتيرته.

وتابع قائلاً: "منذ اليوم الذي جاءت فيه للعمل معي، كنت أعلم أنها منجذبة إلي جنسياً، لكنها لم تفصح عن ذلك أبداً". كان الأمر كله يكمن في التلميحات والنظرات. حسناً، ليكن الأمر! بعد ظهر هذا اليوم، سئمت من التردد والمماطلة، فتوجهت مباشرة إلى صلب الموضوع. صعدت إلى مكتبها وقلت: "أنا أعرف ما تريدينه، وأنتِ تعرفين ما أريده".

ثم انطلق في سرد مطول ومفصل لكيفية إخباره لها بقوة أنه يتوقعها في شقته المقابلة للمدرسة في الساعة 11:30 مساءً، وأنه لا يغير روتينه اليومي من أجل أي شخص، وأنه يقرأ ويعمل ويشرب النبيذ حتى الساعة الواحدة، وعندها يخلد إلى النوم. كان يمتلك شقة في المدينة بالإضافة إلى المنزل الذي كان يعيش فيه مع زوجته وأولاده في الضواحي.

قال وهو يتنهد: "كنت واثقاً جداً من أن الأمر سينجح، وسيتحول إلى شيء لا يُنسى". اكتسب صوته نبرة هادئة كصوت شخص يفضفض بشيء حميم. قال بصوت متقطع: "بل أعطيتها مفتاح شقتي".

وتابع قائلاً: "بكل جدية، جاءت في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف". "دخلت بنفسها باستخدام مفتاحها الخاص، وتسللت إلى غرفة النوم مثل الظل." أثار ذلك حماسي بشكل كبير. كنت أعلم أنها لن تسبب لي أي مشكلة. كانت تعرف دورها. ربما غفت على السرير. أو ربما كانت تشاهد التلفاز. انغمست في عملي، ولم أعد أهتم بما تفعله هي بحق الجحيم. كنت أعلم أنني قد حسمت أمري معها.

"لكن في اللحظة التي دخلت فيها غرفة النوم،" تابع بصوت متوتر ومكتوم، كما لو كان يشعر بالإهانة الأخلاقية، "قفزت تيريزا عليّ مثل حيوان وانقضت على عضوي الذكري." لم تمنحني حتى الوقت الكافي لوضع

الزجاجة والكأسين اللذين كنت أحملهما. كان لديّ ما يكفي من رباطة الجأش لوضع كأسي باكارات على الأرض دون كسرهما. طارت الزجاجة عبر الغرفة عندما أمسكت بخصيتي كما لو كانتا مصنوعتين من الصخور. أردتُ أن أضربها. لقد صرخت من الألم، لكن ذلك لم يؤثر فيها. ضحكت بجنون، لأنها اعتقدت أنني كنت لطيفًا ومثيرًا. قالت ذلك وكأنها تحاول تهدئتي.

هز رأسه بغضب مكبوت، وقال إن المرأة كانت متلهفة للغاية وأنانية تماماً لدرجة أنها لم تأخذ في الاعتبار أن الرجل يحتاج إلى لحظة من الهدوء، ويحتاج إلى الشعور بالراحة، وكأنه في بيته، في محيط ودود. بدلاً من إظهار الاعتبار والتفهم، كما يقتضي دورها، قامت تيريزا مانينغ بسحب أعضائه التناسلية من سرواله بخبرة شخص فعل ذلك مئات المرات.

قال: "نتيجة كل هذا القرف، تراجعت شهوانيتي في رعب. لقد شعرتُ بالإهانة العاطفية. كره جسدي تلك المرأة اللعينة، على الفور. لكن شهوتي منعتني من طردها إلى الشارع.

وقال إنه قرر حينها أنه بدلاً من أن يفقد ماء وجهه بسبب عجزه الجنسي، بشكل بائس، بالطريقة التي كان مقدراً له أن يفعلها، فإنه سيمارس الجنس الفموي معها، ويجعلها تصل إلى النشوة الجنسية - ويضعها تحت رحمته - لكن جسده رفض المرأة تماماً لدرجة أنه لم يستطع فعل ذلك.

قال: "لم تعد المرأة جميلة حتى، بل أصبحت عادية". كلما ارتدت ملابس أنيقة، تخفي ملابسها بروزات وركيها. تبدو جميلة في الواقع. لكن عندما تكون عارية، تصبح مجرد كيس من اللحم الأبيض المنتفخ! إن النحافة التي تظهرها عندما تكون مرتدية ملابسها مزيفة. إنها غير موجودة.

انسكب السم من الطبيب النفسي بطرق لم أكن لأتخيلها أبداً. كان يرتجف من الغضب. كان يرغب بشدة في الظهور بمظهر هادئ، واستمر في تدخين سيجارة تلو الأخرى.

وقال إن الجنس الفموي كان أكثر إثارة للغضب والاشمئزاز، وأنه كان على وشك التقيؤ عندما ركلته تلك المرأة اللعينة في بطنه، وأسقطته من سريره على الأرض، ووصفته بالشاذ العاجز.

في هذه المرحلة من روايته، كانت عينا الطبيب النفسي تشتعلان بالكراهية. كان فمه يرتجف. كان شاحباً.

قال: "أحتاج إلى استخدام حمامك". أريد أن أستحم. رائحتي كريهة. صدق أو لا تصدق، رائحة فمي كريهة.

كان يبكي بالفعل، وكنت سأفعل أي شيء في العالم لأتجنب التواجد هناك. ربما كان إرهاقي، أو سحر صوته الآسر، أو سخافة الموقف هي التي خلقت الوهم بأنني لم أكن أستمع إلى الطبيب النفسي بل إلى صوت رجل متضرع على أحد أشرطته يشكو من مشاكل بسيطة تحولت إلى مشاكل ضخمة بسبب حديثه عنها بشكل قهري. انتهت محنتي حوالي الساعة التاسعة صباحاً. حان وقت ذهابي إلى الصف، وحان وقت ذهاب الطبيب النفسي لرؤية طبيبه النفسي.

ذهبت إلى الصف حينها، وأنا أشعر بقلق شديد وإحساس هائل بعدم الراحة وانعدام الجدوى. وهناك، تلقيت الضربة القاضية، الضربة التي تسببت في انهيار محاولتي لإجراء تغيير جذري. لم يكن لقراري أي دور في انهياره، الذي حدث ليس فقط كما لو كان مخططاً له، بل كما لو أن تقدمه قد تم تسريعه بواسطة يد مجهولة.

بدأ أستاذ الأنثروبولوجيا محاضرته بالحديث عن مجموعة من الهنود من الهضاب العالية في بوليفيا وبيرو، وهم شعب الأيمارا. أطلق عليهم اسم

"إي-ميه-را"، مطيلًا الاسم كما لو أن نطقه له كان النطق الصحيح الوحيد الموجود. وقال إن صنع مشروب "تشيتشا"، الذي ينطق "تشي-تشا"، ولكنه ينطقه "تشاهي-تشا"، وهو مشروب كحولي مصنوع من الذرة المخمرة، كان من اختصاص طائفة من الكاهنات اللواتي اعتبرهن شعب الأيمارا شبه إلهيات. وقال بنبرة كاشفة أن هؤلاء النساء كن مسؤولات عن تحويل الذرة المطبوخة إلى عصيدة جاهزة للتخمير عن طريق مضغها وبصقها، وإضافة إنزيم موجود في لعاب الإنسان بهذه الطريقة. صرخ جميع الطلاب في الفصل برعب مكبوت عند ذكر لعاب الإنسان.

بدا الأستاذ سعيداً للغاية. كان يضحك على دفعات صغيرة. كانت ضحكة طفل لئيم. وتابع قائلاً إن النساء خبيرات في المضغ،

وأطلق عليهن اسم "ماضغات تشاهي تشا". نظر إلى الصف الأمامي من الفصل الدراسي، حيث كانت تجلس معظم الشابات، ثم ألقى كلمته الأخيرة.

قال بنبرة غريبة شبه أجنبية: "لقد كنت محظوظاً للغاية، أن يُطلب مني النوم مع أحد ماضغت تشاهي تشا. إن فن مضغ عصيدة الشاهي تشا يجعلهن يطورن العضلات حول حلوقهن وخدودهن إلى درجة أنهن يستطعن فعل العجائب بها."

نظر إلى جمهوره الحائر وتوقف لفترة طويلة، متخللاً صمته بضحكاته. قال: "أنا متأكد أنكم فهمتوا قصدي"، ثم انفجر في نوبات من الضحك الهستيري.

تفاعل الطلاب بحماس شديد مع تلميحات الأستاذ. قاطع المحاضرة ما لا يقل عن خمس دقائق من الضحك ووابل

من الأسئلة التي رفض الأستاذ الإجابة عليها، وأطلق المزيد من الضحكات السخيفة.

شعرتُ بضغط شديد من الأشرطة، وقصة الطبيب النفسي، و"مضغ تشاهي تشا" الذي كان يتحدث عنه الأستاذ، لدرجة أنني في لحظة واحدة تركت العمل، وتركت الدراسة، وعدت بالسيارة إلى لوس أنجلوس.

قلت لدون خوان: "مهما حدث لي مع الطبيب النفسي وأستاذ الأنثروبولوجيا، فقد أغرقني في حالة عاطفية مجهولة. لا يسعني إلا أن أسميها تأملاً ذاتياً. لقد كنت أتحدث مع نفسي بلا توقف."

قال دون خوان وهو يرتجف من الضحك: "مرضك بسيط للغاية".

يبدو أن وضعي أسعده. لقد كانت متعة لم أستطع مشاركتها، لأنني فشلت في رؤية الجانب المضحك فيها.

قال: "عالمك يقترب من نهايته". "إنها نهاية حقبة بالنسبة لك." هل تعتقد أن العالم الذي عرفته طوال حياتك سيتركك بسلام، دون أي ضجة أو فوضى؟ لا! سوف يتلوى تحتك، ويضربك بذيله.

المنظر الذي لم أستطع تحمله:

لطالما كانت لوس أنجلوس موطني. لم يكن اختياري لمدينة لوس أنجلوس اختياراً طوعياً. بالنسبة لي، لطالما كان البقاء في لوس أنجلوس بمثابة الولادة هناك، وربما أكثر من ذلك. لطالما كان ارتباطي العاطفي بها كاملاً. لطالما كان حبي لمدينة لوس أنجلوس شديداً للغاية، وجزءاً لا يتجزأ مني، لدرجة أنني لم أضطر أبداً إلى التعبير عنه. لم يسبق لي أن اضطررت إلى مراجعته أو تجديده، أبداً.

كان لديّ في لوس أنجلوس عائلتي من الأصدقاء. لقد كانوا بالنسبة لي جزءاً من محيطي المباشر، مما يعني أنني قبلتهم تماماً، بالطريقة التي قبلت بها المدينة. قال أحد أصدقائي ذات مرة، على سبيل المزاح، إننا جميعاً نكره بعضنا البعض كراهية ودية. لا شك أنهم كانوا قادرين على تحمل مشاعر كهذه بأنفسهم، لأن لديهم ترتيبات عاطفية أخرى تحت تصرفهم، مثل الآباء والزوجات والأزواج. لم يكن لدي سوى أصدقائي في لوس أنجلوس.

لأي سبب كان، كنتُ كاتم أسرار كل واحد منهم. كل واحد منهم أفصح لي عن مشاكله وتقلباته. كان أصدقائي مقربين مني لدرجة أنني لم أعتبر مشاكلهم أو محنهم إلا أمراً طبيعياً. كان بإمكاني التحدث معهم لساعات عن نفس الأشياء التي أرعبتني من الطبيب النفسي وأشرطته.

علاوة على ذلك، لم أكن أدرك أبداً أن كل واحد من أصدقائي كان يشبه بشكل مذهل الطبيب النفسي وأستاذ الأنثروبولوجيا. لم ألحظ قط مدى توتر أصدقائي. جميعهم كانوا يدخنون بشكل قهري، مثل الطبيب النفسي، لكن الأمر لم يكن واضحاً لي أبداً لأنني كنت أدخن بنفس القدر وكنت متوتراً بنفس القدر. كان تصنّعهم في الكلام أمراً آخر لم يكن واضحاً لي أبداً، على الرغم من وجوده. لقد كانوا دائماً يتبنون لكنة غرب الولايات المتحدة، لكنهم كانوا على دراية تامة بما يفعلونه. ولم ألحظ قط تلميحاتهم الصارخة حول حسية كانوا عاجزين عن الشعور بها، إلا فكرياً.

بدأت المواجهة الحقيقية مع نفسي عندما واجهت معضلة صديقي بيت. جاء لرؤيتي، وكان جسده كله متورماً. كان فمه منتفخاً وعينه اليسرى حمراء ومنتفخة، ومن الواضح أنها تعرضت للضرب وبدأت تتحول إلى اللون الأزرق. قبل أن تتاح لي الفرصة لسؤاله عما حدث له، صرخ قائلاً إن زوجته، باتريشيا، ذهبت إلى مؤتمر لوسطاء العقارات خلال

عطلة نهاية الأسبوع، فيما يتعلق بعملها، وأن شيئًا فظيعًا قد حدث لها. من خلال مظهر بيت، ظننت أن باتريشيا ربما تكون قد أصيبت، أو حتى قُتلت، في حادث.

"هل هي بخير؟" سأل، بدافع القلق الحقيقي.

"بالطبع هي بخير"، قال بنبرة حادة. "إنها عاهرة وساقطة، ولا يحدث للعاهرات إلا أنهن يُمارس معهن الجنس، وهن يستمتعن بذلك!"

كان بيت مسعوراً. كان يرتجف، ويكاد يصاب بتشنجات. كان شعره الكثيف المجعد منتفشاً في كل اتجاه. عادةً، كان يمشط شعره بعناية ويصفف تجعيداته الطبيعية في مكانها. الآن، بدا متوحشاً كشيطان تسمانيا.

وتابع صديقي قائلاً: "كان كل شيء طبيعياً حتى اليوم". ثم، هذا الصباح، بعد أن خرجت من الحمام، قامت بضرب مؤخرتي العارية بمنشفة، وهذا ما جعلني أدرك ما تفعله! عرفت على الفور أنها كانت على علاقة بشخص آخر.

لقد حيرني منطقه. استجوبته أكثر، وسألته كيف يمكن لضرب منشفة أن يكشف أي شيء من هذا القبيل لأي شخص.

"لن يكشف ذلك أي شيء للأوغاد!" قال ذلك بنبرة حاقدة. "لكنني أعرف باتريشيا، ويوم الخميس، قبل أن تذهب إلى مؤتمر السماسرة، لم تكن قادرة على الضرب بمنشفة!" في الحقيقة، لم تتمكن من الضرب بالمنشفة طوال فترة زواجنا. لا بد أن أحدهم علمها فعل ذلك، بينما كانوا عراة! لذا أمسكت بها من حلقها وخنقتها حتى انتزعت منها الحقيقة! نعم! إنها تضاجع رئيسها!"

قال بيت إنه ذهب إلى مكتب باتريشيا ليواجه رئيسها، لكن الرجل كان محميًا بشكل كبير من قبل حراسه الشخصيين. ألقوا به في موقف السيارات.

أراد تحطيم نوافذ المكتب، وإلقاء الحجارة عليها، لكن الحراس الشخصيين قالوا إنه إذا فعل ذلك، فسوف ينتهي به المطاف في السجن، أو ما هو أسوأ من ذلك، فسوف يُصاب برصاصة في رأسه.

"هل هم من ضربوك يا بيت؟" سألته.

قال بنبرة يائسة: "لا". "مشيت في الشارع ودخلت إلى مكتب مبيعات

في ساحة لبيع السيارات المستعملة. لكمت أول بائع جاء للتحدث معي. لقد صُدم الرجل، لكنه لم يغضب. قال: "اهدأ يا سيدي، اهدأ!"

هناك مجال للتفاوض. عندما لكمته مرة أخرى في فمه، غضب بشدة. كان رجلاً ضخماً، وضربني في فمي وعيني وأفقدني الوعي. وتابع بيت قائلاً: "عندما استعدت وعيي، كنت مستلقياً على الأريكة في مكتبهم. سمعت صوت سيارة إسعاف تقترب. كنت أعلم أنهم قادمون من أجلي، لذلك نهضت وركضت للخارج. ثم جئت لأراك."

بدأ يبكي بشكل لا يمكن السيطرة عليه. أصيب بالغثيان. كان في حالة يرثى لها. اتصلت بزوجته، وفي أقل من عشر دقائق كانت في الشقة. ركعت أمام بيت وأقسمت أنها لا تحب إلا هو، وأن كل ما فعلته غير ذلك كان غباءً محضاً، وأن حبهما كان مسألة حياة أو موت - أما الآخرون فلم يكونوا شيئاً. لم تكن تتذكرهم حتى. بكى كلاهما بكاءً شديداً، وبالطبع سامح كل منهما الآخر. كانت باتريشيا ترتدي نظارة شمسية لإخفاء الورم الدموي بجانب عينها اليمنى حيث ضربها بيت

وكان بيت أعسر. كلاهما كانا غافلين عن وجودي، وعندما غادرا، لم يكونا يعلمان حتى أنني كنت هناك. خرجوا ببساطة، تاركين الباب مفتوحاً، وهم يتعانقون.

بدت الحياة بالنسبة لي وكأنها تستمر كما كانت دائماً. تصرف أصدقائي معي كما يفعلون دائماً. كنا كالعادة منشغلين بالذهاب إلى الحفلات، أو السينما، أو مجرد "الدردشة"، أو البحث عن مطاعم تقدم "كل ما يمكنك أكله" بسعر وجبة واحدة. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه الحياة الطبيعية الزائفة، يبدو أن عاملاً جديداً غريباً قد دخل حياتي. بصفتي الشخص الذي كان يمر بهذه التجربة، بدا لي فجأة أنني أصبحت ضيق الأفق للغاية. لقد بدأتُ أحكم على أصدقائي بنفس الطريقة التي حكمت بها على الطبيب النفسي وأستاذ الأنثروبولوجيا. من أنا لأحكم على أي شخص آخر؟

شعرت بذنب هائل. إن الحكم على أصدقائي خلق جواً لم أكن أعرفه من قبل. لكن ما اعتبرته أسوأ من ذلك هو أنني لم أكن أحكم عليهم فحسب، بل كنت أجد مشاكلهم ومصائبهم تافهة بشكل مذهل. كنتُ نفس الرجل؛ وكانوا نفس أصدقائي. لقد سمعت شكواهم ورواياتهم عن أوضاعهم مئات المرات، ولم أشعر قط بأي شيء سوى تعاطف عميق مع ما كنت أستمع إليه. لقد كان رعباً شديداً عندما اكتشفت هذا المزاج الجديد في نفسي.

لم يكن المثل القائل بأن المصائب لا تأتي فرادى إلا فتنطبق عليّ أكثر من ذلك في تلك اللحظة من حياتي. حدث الانهيار التام لأسلوب حياتي عندما طلب مني صديقي رودريغو كامينغز أن أوصله إلى مطار بوربانك؛ ومن هناك كان سيسافر جواً إلى نيويورك. لقد كانت مناورة دراماتيكية ويائسة للغاية من جانبه. اعتبر أن القبض عليه في لوس أنجلوس بمثابة لعنة عليه. أما بالنسبة لبقية أصدقائه، فقد كانت مزحة كبيرة، حقيقة أنه حاول قيادة سيارته عبر البلاد إلى نيويورك عدة مرات، وفي كل مرة حاول فيها ذلك، تعطلت

سيارته. في إحدى المرات، وصل إلى مدينة سولت ليك قبل أن تتعطل سيارته؛ كانت بحاجة إلى محرك جديد. كان عليه أن يتخلص منها هناك. في أغلب الأحيان، كانت سياراته تتوقف عن العمل في ضواحي لوس أنجلوس.

"ماذا يحدث لسياراتك يا رودريغو؟" سألته مرة واحدة، بدافع الفضول الصادق.

أجاب قائلاً: "لا أعرف"، بنبرة تحمل شعوراً خفياً بالذنب. ثم قال بصوت يليق بأستاذ الأنثروبولوجيا في دوره كواعظ إحياء ديني: "ربما يكون ذلك لأنني عندما أسلك الطريق، أزيد السرعة لأنني أشعر بالحرية. أفتح عادةً جميع نوافذي. أريد أن تهب الرياح على وجهي. أشعر أنني طفل يبحث عن شيء جديد."

كان من الواضح لي أن سياراته، التي كانت دائماً سيارات خردة، لم تعد قادرة على السير بسرعة، وأنه ببساطة أحرق محركاتها.

عاد رودريغو من مدينة سولت ليك إلى لوس أنجلوس، متنقلاً عبر طلب النقل من على الطريق. بالطبع، كان بإمكانه أن يستقل سيارة إلى نيويورك، لكن ذلك لم يخطر بباله أبداً. بدا أن رودريغو مصاب بنفس الحالة التي أصبت بها: شغف لا شعوري بلوس أنجلوس، والذي أراد رفضه بأي ثمن.

وفي مرة أخرى، كانت سيارته في حالة ميكانيكية ممتازة. كان بإمكانه القيام بالرحلة بأكملها بسهولة، لكن من الواضح أن رودريغو لم يكن في حالة تسمح له بمغادرة لوس أنجلوس. قاد سيارته حتى سان برناردينو، حيث ذهب لمشاهدة فيلمالوصايا العشر. هذا الفيلم، لأسباب لا يعلمها إلا رودريغو، خلق لديه حنيناً لا يقهر إلى لوس أنجلوس. عاد، وبكى، وأخبرني كيف أن مدينة لوس أنجلوس اللعينة قد بنت سياجاً حوله لم يسمح له بالمرور. كانت زوجته

سعيدة لأنه لم يذهب، وكانت صديقته ميليسا أكثر سعادة، على الرغم من أنها شعرت بالحرج أيضاً لأنها اضطرت إلى إعادة القواميس التي أعطاها إياها.

لقد أصبحت محاولته الأخيرة اليائسة للوصول إلى نيويورك بالطائرة أكثر دراماتيكية لأنه اقترض المال من أصدقائه لدفع ثمن التذكرة. وقال إنه بهذه الطريقة، ولأنه لا ينوي سداد ديونه لهم، فإنه تأكد من أنه لن يعود.

وضعت حقائبه في صندوق سيارتي وانطلقت معه إلى مطار بوربانك. وأشار إلى أن الطائرة لم تغادر حتى الساعة السابعة. كان الوقت بعد الظهر بقليل، وكان لدينا متسع من الوقت لمشاهدة فيلم. إلى جانب ذلك، أراد أن يلقي نظرة أخيرة على

شارع هوليوود، مركز حياتنا وأنشطتنا.

ذهبنا لمشاهدة فيلم ملحمي بتقنية تيكنيكولور وسينيراما. كان فيلماً طويلاً ومملاً بدا أنه يجذب انتباه رودريغو بشدة. عندما خرجنا من السينما، كان الظلام قد بدأ يحل. هرعت إلى بوربانك وسط ازدحام مروري خانق. أصرّ على أن نسلك الشوارع المحلية بدلاً من الطريق السريع، الذي كان مزدحماً في تلك الساعة. كانت الطائرة على وشك الإقلاع عندما وصلنا إلى المطار.

كان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. ذهب رودريغو، وهو يشعر بالضعف والهزيمة، إلى أمين الصندوق وقدم تذكرته ليسترد أمواله. قام أمين الصندوق بتدوين اسمه وأعطاه إيصالاً وقال إن أمواله سترسل في غضون ستة إلى اثني عشر أسبوعاً من ولاية تينيسي، حيث تقع مكاتب المحاسبة الخاصة بشركة الطيران.

عدنا بالسيارة إلى مبنى الشقق الذي كنا نسكن فيه. ولأنه لم يودع أحداً هذه المرة، خوفاً من فقدان ماء الوجه، لم يلاحظ أحد أنه حاول المغادرة مرة أخرى. العيب الوحيد كان أنه باع سيارته. طلب مني أن أوصله إلى منزل والديه، لأن والده كان سيعطيه المال الذي أنفقه على التذكرة. كان والده دائماً، على حدّ ذاكرتي، هو الرجل الذي أنقذ رودريغو من كل موقف إشكالي وقع فيه على الإطلاق. كان شعار الأب: "لا تخافوا، رودريغو الأب هنا!" بعد أن سمع الأب طلب رودريغو للحصول على قرض لسداد قرضه الآخر، نظر إلى صديقي بتعبير حزين لم أره من قبل. كان يعاني هو نفسه من صعوبات مالية شديدة.

وضع ذراعه حول كتفي ابنه وقال: "لا أستطيع مساعدتك هذه المرة يا بني". الآن يجب أن تشعروا بالخوف، لأن رودريغو الأب لم يعد هنا.

كنت أرغب بشدة في التعاطف مع صديقي، وأن أشعر بمعاناته كما كنت أشعر بها دائماً، لكنني لم أستطع. ركزت فقط على تصريح والده. بدا لي الأمر حاسماً لدرجة أنه حفزني.

كنت أسعى بشدة إلى صحبة دون خوان. تركت كل شيء معلقاً في لوس أنجلوس وقمت برحلة إلى سونورا. أخبرته عن الحالة المزاجية الغريبة التي انتابتني مع أصدقائي. وأنا أبكي من شدة الندم، قلت له إنني بدأت أحكم عليهم.

قال دون خوان بهدوء: "لا تنزعج كثيراً من لا شيء". "أنت تعلم بالفعل أن حقبة كاملة من حياتك تقترب من نهايتها، لكن الحقبة لا تنتهي حقًا إلا بموت الملك."

"ماذا تقصد بذلك يا دون خوان؟"

"أنت الملك، وأنت مثل أصدقائك تماماً." هذه هي الحقيقة التي تجعلك ترتجف خوفاً. أحد الأشياء التي يمكنك فعلها هو قبولها كما هي، وهو أمر لا يمكنك فعله بالطبع. والشيء الآخر الذي يمكنك فعله هو أن تقول لنفسك: "أنا لست كذلك، أنا لست كذلك"، وتكرر لنفسك أنك لست كذلك. لكنني أعدك بأن لحظة ستأتي عندما تدرك أنك كذلك.

الموعد الذي لا مفر منه

كان هناك شيء ما ظل يلح عليّ في أعماق ذهني: كان عليّ الرد على رسالة بالغة الأهمية تلقيتها، وكان عليّ القيام بذلك مهما كلف الأمر. ما منعني من القيام بذلك هو مزيج من الكسل ورغبة عميقة في إرضاء الآخرين. صديقي عالم الأنثروبولوجيا الذي كان مسؤولاً عن لقائي

بخوان ماتوس كتب لي رسالة قبل شهرين. أراد أن يعرف كيف تسير دراستي في علم الإنسان، وحثني على زيارته. لقد كتبت ثلاث رسائل طويلة. عندما أعدت قراءة كل منها، وجدتها مبتذلة ومتملقة لدرجة أنني مزقتها. لم أستطع التعبير في رسائلي عن عمق امتناني، وعمق مشاعري تجاهه. بررت تأخري في الرد بعزم صادق على الذهاب لرؤيته وإخباره شخصيًا بما كنت أفعله مع دون خوان ماتوس، لكنني ظللت أؤجل رحلتي الوشيكة لأنني لم أكن متأكدًا مما كنت أفعله مع دون خوان. كنت أرغب في أن أُري صديقي نتائج حقيقية يوماً ما. في الواقع، لم يكن لدي سوى رسومات تخطيطية غامضة للاحتمالات، والتي، في نظره المتطلب، لم تكن لتعتبر عملاً ميدانياً أنثروبولوجياً على أي حال.

وفي أحد الأيام علمت أنه قد مات. لقد أدخلني موته في واحدة من تلك الاكتئابات الصامتة الخطيرة. لم يكن لدي أي وسيلة للتعبير عما شعرت به لأن ما كنت أشعر به لم يكن قد تبلور بشكل كامل في ذهني. كان مزيجاً من الإحباط واليأس والاشمئزاز من نفسي لعدم ردي على رسالته، ولعدم ذهابي لرؤيته.

قمت بزيارة دون خوان ماتوس بعد ذلك بوقت قصير. عند وصولي إلى منزله، جلست على أحد الصناديق تحت شرفته وحاولت البحث عن كلمات لا تبدو مبتذلة للتعبير عن شعوري بالحزن على وفاة صديقي. لأسباب غير مفهومة بالنسبة لي، كان دون خوان يعرف أصل اضطرابي والسبب الظاهر لزيارتي له.

قال دون خوان ببرود: "نعم". "أعلم أن صديقك، عالم الأنثروبولوجيا الذي أرشدك لمقابلتي، قد توفي." لأي سبب كان، عرفتُ اللحظة التي مات فيها بالضبط. رأيتها ".

لقد أيقظتني تصريحاته من غفلتي.

"لقد رأيت ذلك قادماً منذ زمن طويل." لقد أخبرتك بذلك بالفعل، لكنك تجاهلت ما قلته. أنا متأكد من أنك لا تتذكر ذلك حتى.

لقد تذكرت كل كلمة قالها، لكنها لم تكن ذات معنى بالنسبة لي في ذلك الوقت. ذكر دون خوان أن حدثاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بلقائنا، ولكنه ليس جزءاً منه، هو حقيقة أنه رأى صديقي عالم الأنثروبولوجيا وهو يحتضر.

قال لي: " رأيت الموت كقوة خارجية تفتح صديقك بالفعل". "كل واحد منا لديه شق طاقي، صدع طاقي أسفل السرة." هذا الشق، الذي يسميه السحرة الفجوة، يتم إغلاقه عندما يكون الرجل في مقتبل عمره ".

قال إنه في العادة، كل ما يمكن تمييزه لعين الساحر هو تغير طفيف في اللون في التوهج الأبيض للكرة المضيئة. ولكن عندما يكون الرجل على وشك الموت، تصبح هذه الفجوة واضحة تمامًا. لقد أكد لي أن فجوة صديقي كانت مفتوحة على مصراعيها.

"ما أهمية كل هذا يا دون خوان؟" سألتُ بشكل روتيني.

أجاب قائلاً: "إنها ذات دلالة قاتلة". "كانت الروح تشير لي إلى أن شيئًا ما يقترب من نهايته. ظننت أن حياتي هي التي كانت تقترب من نهايتها، وتقبلت الأمر بأكبر قدر ممكن من اللطف. أدركتُ بعد ذلك بكثير أن

الأمر لم يكن يتعلق بحياتي أنا التي كانت على وشك الانتهاء، بل بنسلي بأكمله."

لم أكن أعرف عما كان يتحدث. لكن كيف لي أن آخذ كل ذلك على محمل الجد؟ بالنسبة لي، كان الأمر، في ذلك الوقت الذي قال فيه ذلك، مثل كل شيء آخر في حياتي: مجرد كلام.

قال دون خوان: "أخبرك صديقك بنفسه، وإن لم يصرح بذلك صراحة، أنه يحتضر". "لقد أقررت بما كان يقوله بنفس الطريقة التي أقررت بها بما قلته، ولكن في كلتا الحالتين، اخترت تجاهله."

ليس لدي أي تعليقات لأدلي بها. لقد غمرني ما كان يقوله. أردت أن أغرق في الصندوق الذي كنت أجلس عليه، وأن أختفي، وأن تبتلعني الأرض.

وتابع قائلاً: "ليس ذنبك أنك تتجاهل أموراً كهذه". "إنه الشباب." لديك الكثير من الأشياء لتفعلها، والكثير من الناس من حولك. أنت لست متيقظاً. على أي حال، لم تتعلم أبدًا أن تكون متيقظًا.

وفي سياق الدفاع عن آخر معاقل نفسي، وفكرتي بأنني كنت يقظاً، أشرت إلى دون خوان إلى أنني كنت في مواقف حياة أو موت تطلبت مني

سرعة بديهتي ويقظتي. لم يكن الأمر أنني أفتقر إلى القدرة على اليقظة، بل كنت أفتقر إلى التوجيه اللازم لوضع قائمة مناسبة بالأولويات؛ لذلك، كان كل شيء إما مهمًا أو غير مهم بالنسبة لي.

قال دون خوان: "أن تكون متيقظاً لا يعني أن تكون حذراً". "بالنسبة للسحرة، أن يكونوا متيقظين يعني أن يكونوا على دراية بنسيج العالم اليومي الذي يبدو غريباً عن تفاعل اللحظة." في الرحلة التي قمت بها مع صديقك قبل أن تقابلني، لم تلاحظ سوى التفاصيل الواضحة. لم تلاحظ كيف كان موته يستحوذ عليه، ومع ذلك كان شيء ما بداخلك يعلم ذلك.

بدأتُ بالاحتجاج، لأخبره أن ما يقوله ليس صحيحاً.

قال بنبرة اتهامية: "لا تختبئ وراء التفاهات". "قف. ولو للحظة التي تقضيها معي، فتحمل مسؤولية ما تعرفه. لا تضيع في تفاصيل العالم الخارجي من حولك، بعيدًا عما يحدث. لو لم تكن مهتماً بنفسك وبمشاكلك إلى هذا الحد، لكنت عرفت أن تلك كانت رحلته الأخيرة. كنت ستلاحظ أنه كان يغلق حساباته، ويلتقي بالأشخاص الذين ساعدوه، ويودعهم.

وتابع دون خوان قائلاً: "لقد تحدث معي صديقك عالم الأنثروبولوجيا ذات مرة". "لقد تذكرته بوضوح شديد لدرجة أنني لم أتفاجأ على الإطلاق عندما أحضرك إليّ في محطة الحافلات تلك. لم أستطع مساعدته عندما تحدث إليّ. لم يكن هو الرجل الذي كنت أبحث عنه، لكنني تمنيت له الخير من فراغ ساحري، من صمت ساحري. ولهذا السبب، أعلم أنه في رحلته الأخيرة، كان يوجه الشكر للأشخاص الذين كان لهم دور مهم في حياته.

اعترفت لدون خوان بأنه كان محقاً تماماً، وأن هناك العديد من التفاصيل التي كنت على دراية بها، لكنها لم تكن تعني لي شيئاً في ذلك الوقت، مثل، على سبيل المثال، نشوة صديقي في مشاهدة المناظر الطبيعية من حولنا. كان يوقف السيارة لمجرد المشاهدة، لساعات متواصلة، للجبال البعيدة، أو مجرى النهر، أو الصحراء. تجاهلت هذا الأمر باعتباره عقلية حمقاء لرجل في منتصف العمر. بل إنني لمحت له تلميحات مبهمة بأنه ربما كان يشرب كثيراً. أخبرني أنه في الحالات العصيبة، يسمح الشراب للرجل بلحظة من السلام والانفصال، لحظة طويلة بما يكفي لتذوق شيء لا يتكرر.

قال دون خوان: "كانت تلك الرحلة، بكل تأكيد، مخصصة لعينيه فقط". "يقوم السحرة بمثل هذه الرحلة، وفيها لا شيء يهم سوى ما تستطيع أعينهم استيعابه. كان صديقك يتخلص من كل ما هو زائد عن الحاجة."

اعترفت لدون خوان بأنني تجاهلت ما قاله لي عن صديقي المحتضر لأنني، على مستوى غير معروف، كنت أعرف أنه صحيح.

قال: "السحرة لا يقولون الأشياء عبثاً". "أنا حريص للغاية فيما أقوله لك أو لأي شخص آخر. الفرق بيني وبينك هو أنني لا أملك أي وقت على الإطلاق، وأتصرف وفقًا لذلك. أما أنت، من ناحية أخرى، فتعتقد أن لديك كل الوقت في العالم، وتتصرف وفقًا لذلك. النتيجة النهائية لسلوكياتنا الفردية هي أنني أقيس كل ما أفعله وأقوله، وأنت لا تفعل ذلك."

أقررت بأنه كان محقاً، لكنني أكدت له أن كل ما يقوله لا يخفف من اضطرابي أو حزني. ثم انفجرت في الكلام، بشكل لا يمكن السيطرة عليه، بكل تفاصيل مشاعري المتضاربة. أخبرته أنني لستُ أبحث عن نصيحة. كنت أريده أن يصف لي طريقة سحرية لإنهاء معاناتي. كنت أعتقد أنني مهتم حقًا بالحصول منه على بعض المهدئات الطبيعية، نوع من الفاليوم العضوي، وقد أخبرته بذلك. هز دون خوان رأسه في حيرة.

قال: "أنتِ مفرط". "بعد ذلك ستطلب دواءً من ساحر لإزالة كل ما يزعجك، دون أي جهد من جانبك - فقط جهد ابتلاع ما يُعطى لك. كلما كان الطعم أسوأ، كانت النتائج أفضل. هذا هو شعار الرجل الغربي. تريد نتائج - جرعة واحدة وستشفى.

وتابع دون خوان قائلاً: "يواجه السحرة الأمور بطريقة مختلفة". "بما أنهم لا يملكون أي وقت فراغ، فإنهم يكرسون أنفسهم بالكامل لما هو أمامهم.

اضطرابك هو نتيجة افتقارك إلى الرصانة. لم تكن لديك القدرة على شكر صديقك كما ينبغي. هذا يحدث لكل واحد منا. لا نعبر أبداً عما نشعر به، وعندما نريد ذلك، يكون الوقت قد فات، لأن الوقت قد نفد. ليس صديقك فقط هو من نفد وقته. لقد نفد منك أيضاً. كان ينبغي عليك أن تشكره جزيل الشكر في أريزونا. لقد تكبد عناء اصطحابك في جولة، وسواء فهمت ذلك أم لا، فقد بذل قصارى جهده في محطة الحافلات. لكن في اللحظة التي كان ينبغي عليك أن تشكره فيها، كنت غاضباً منه - كنت تحكم عليه، لقد كان فظاً معك، مهما يكن. ثم أجلت رؤيته. في الحقيقة، ما فعلته هو تأجيل شكره.

الآن أنت عالق مع شبح يطاردك. لن تتمكن أبداً من سداد ما تدين به له."

لقد أدركت عظمة ما كان يقوله. لم يسبق لي أن واجهت أفعالي بهذه الطريقة. في الحقيقة، لم أشكر أحداً قط. دفع دون خوان سهامه إلى أعماق أكبر. قال: "كان صديقك يعلم أنه يحتضر". "لقد كتب لك رسالة أخيرة ليعرف ما الذي تفعله. ربما دون علمه، أو علمك، كنت آخر ما فكر فيه."

كان ثقل كلمات دون خوان أكبر من أن أتحملها. انهارت. شعرت أنني مضطر للاستلقاء. كان رأسي يدور. ربما كان السبب هو المكان. لقد ارتكبت خطأً فادحاً بالوصول إلى منزل دون خوان في وقت متأخر من بعد الظهر.

بدت الشمس عند غروبها ذهبية بشكل مذهل، وكانت انعكاساتها على الجبال الجرداء شرق منزل دون خوان ذهبية وأرجوانية. لم تكن السماء تحوي ذرة من الغيوم. لم يبدُ أن شيئاً يتحرك. كان الأمر كما لو أن العالم بأسره كان مختبئاً، لكن وجوده كان طاغياً. كان هدوء صحراء سونوران أشبه بخنجر. لقد وصل الأمر إلى نخاع عظامي. أردتُ المغادرة، أن أركب سيارتي وأنطلق. أردت أن أكون في المدينة، وأن أضيع في ضجيجها.

"أنت تتذوق اللانهائية"، قال دون خوان بنهاية خطيرة. "أعرف ذلك، لأنني كنت في مكانك." تريد الهروب، والانغماس في شيء إنساني، دافئ، متناقض، غبي، من يهتم؟ تريد أن تنسى وفاة صديقك. لكن اللانهائية لن تسمح لك بذلك ". خفت حدة صوته. "لقد أمسكت بك في قبضتها القاسية."

"ماذا يمكنني أن أفعل الآن يا دون خوان؟" سألت.

قال دون خوان: "الشيء الوحيد الذي يمكنك فعله هو أن تحافظ على ذكرى صديقك حية، وأن تبقيها حية لبقية حياتك وربما حتى بعد ذلك. يعبّر السحرة بهذه الطريقة عن الشكر الذي لم يعد بإمكانهم التعبير عنه بالكلام. قد تعتقد أنها طريقة سخيفة، لكن هذا أفضل ما يمكن أن يفعله السحرة."

لا شك أن حزني هو الذي جعلني أعتقد أن دون خوان المفعم بالحيوية كان حزيناً مثلي. تجاهلت الفكرة فوراً. هذا غير ممكن.

قال دون خوان، وقد انفجرت أفكاري مرة أخرى: "الحزن، بالنسبة للسحرة، ليس أمراً شخصياً". إنه ليس حزناً تماماً. إنها موجة من الطاقة تأتي من أعماق الكون، وتصيب السحرة عندما يكونون مستعدين، عندما يكونون مثل أجهزة الراديو، قادرين على التقاط موجات الراديو.

"كان سحرة العصور القديمة، الذين قدموا لنا الشكل الكامل

للسحر، يعتقدون أن هناك حزنًا في الكون، كقوة، كحالة، مثل الضوء، مثل النية، وأن هذه القوة الدائمة تؤثر بشكل خاص على السحرة لأنهم لم يعد لديهم أي دروع دفاعية." لا يمكنهم الاختباء وراء أصدقائهم أو دراستهم. لا يمكنهم الاختباء وراء الحب، أو الكراهية، أو السعادة، أو البؤس. لا يمكنهم الاختباء وراء أي شيء.

وتابع دون خوان قائلاً: "إن حالة السحرة هي أن الحزن بالنسبة لهم مجرد فكرة مجردة". لا ينبع ذلك من الطمع أو النقص في شيء ما، أو من الشعور بأهمية الذات. لا يأتي مني. إنه يأتي من اللانهائية. إن الحزن الذي تشعر به لعدم شكر صديقك يميل بالفعل في هذا الاتجاه.

وتابع قائلاً: "كان أستاذي، الناغوال جوليان، ممثلاً رائعاً". لقد عمل في الواقع بشكل احترافي في المسرح. كان لديه قصة مفضلة اعتاد أن يرويها في جلساته المسرحية. اعتاد أن يدفعني إلى نوبات رهيبة من الألم معها. وقال إنها قصة للمحاربين الذين يملكون كل شيء ومع ذلك يشعرون بلسعة الحزن العالمي. لطالما اعتقدت أنه كان يروي القصة نيابة عني شخصياً.

ثم أعاد دون خوان صياغة كلام معلمه، قائلاً لي إن القصة تشير إلى رجل يعاني من السّوداوية. ذهب لرؤية أفضل الأطباء في عصره، لكن جميع هؤلاء الأطباء فشلوا في مساعدته. وأخيراً وصل إلى مكتب طبيب بارز، معالج للنفس. اقترح الطبيب على مريضه أنه ربما يجد العزاء، ونهاية حزنه، في الحب. أجاب الرجل بأن الحب ليس مشكلة بالنسبة له، وأنه ربما محبوب كما لم يكن محبوباً من قبل أي شخص آخر في العالم. وكان اقتراح الطبيب التالي هو أنه ربما ينبغي على المريض القيام برحلة بحرية ورؤية أجزاء أخرى من العالم. أجاب الرجل بأنه، دون مبالغة، كان في كل ركن من أركان العالم. أوصى الطبيب

بهوايات مثل الفنون والرياضة وما إلى ذلك. أجاب الرجل على كل توصياته بنفس العبارة: لقد فعل ذلك ولم يجد أي راحة. اشتبه الطبيب في أن الرجل ربما كان كاذباً لا يُرجى شفاؤه. لم يكن بإمكانه فعل كل تلك الأشياء، كما ادعى. لكن الطبيب، لكونه معالجاً جيداً، توصل إلى فكرة أخيرة. "أجل!" صرخ قائلاً: لدي الحل الأمثل لك يا سيدي. يجب عليك حضور عرض لأعظم كوميدي في عصرنا. سيسعدك لدرجة أنك ستنسى كل تفاصيل حزنك. يجب عليك حضور عرض مسرحية "غاريك العظيم"!

قال دون خوان إن الرجل نظر إلى الطبيب بأحزن نظرة يمكن تخيلها، وقال: "يا دكتور، إذا كانت هذه توصيتك، فأنا رجل ضائع". ليس لي علاج. أنا غاريك العظيم.

نقطة الانـهيار

عرّف دون خوان الصمت الداخلي بأنه حالة غريبة من الوجود تم فيها إلغاء الأفكار ويمكن للمرء أن يعمل من مستوى آخر غير مستوى الوعي اليومي. وشدد على أن الصمت الداخلي يعني تعليق الحوار الداخلي - الرفيق الدائم للأفكار - وبالتالي كان حالة من الهدوء العميق.

قال دون خوان: "أطلق عليه السحرة القدامى اسم الصمت الداخلي لأنه حالة لا يعتمد فيها الإدراك على الحواس. إن ما يحدث أثناء الصمت الداخلي هو ملكة أخرى يمتلكها الإنسان، وهي الملكة التي تجعله كائناً سحرياً، وهي الملكة نفسها التي تم تقليصها، ليس من قبل الإنسان نفسه ولكن من قبل بعض التأثيرات الخارجية."

"ما هو هذا التأثير الخارجي الذي يحد من القدرة السحرية للإنسان؟" سألت.

أجاب دون خوان: "هذا موضوع لشرح لاحق، وليس موضوع

نقاشنا الحالي، على الرغم من أنه بالفعل الجانب الأكثر خطورة في سحر الشامان في المكسيك القديمة.

وتابع قائلاً: "الصمت الداخلي " هو الموقف الذي ينبع منه كل شيء في السحر. بمعنى آخر، كل ما نفعله يؤدي إلى ذلك الموقف، الذي، مثل كل شيء آخر في عالم السحرة، لا يكشف عن نفسه إلا إذا هزنا شيء هائل."

قال دون خوان إن سحرة المكسيك القديمة ابتكروا طرقًا لا حصر لها لزعزعة أنفسهم أو ممارسي السحر الآخرين من أسسهم من أجل الوصول إلى تلك الحالة المرغوبة من الصمت الداخلي. اعتبروا أن أكثر الأفعال البعيدة المنال، والتي قد تبدو غير مرتبطة تمامًا بالسعي وراء الصمت الداخلي، مثل القفز إلى الشلالات أو قضاء الليالي معلقة رأسًا على عقب من الفرع العلوي للشجرة، هي النقاط الرئيسية التي جلبتها إلى حيز الوجود.

وباتباع منطق سحرة المكسيك القديمة، صرح دون خوان بشكل قاطع بأن الصمت الداخلي يتراكم ويتراكم. في حالتي، كافح لإرشادي لبناء نواة من الصمت الداخلي في نفسي، ثم أضاف إليها، ثانية تلو الأخرى، في كل مناسبة مارستها. وأوضح أن سحرة المكسيك القديمة اكتشفوا أن لكل فرد عتبة مختلفة من الصمت الداخلي من حيث الوقت، مما يعني أنه يجب على كل واحد منا الحفاظ على الصمت الداخلي طوال فترة عتبتنا المحددة قبل أن يتمكن من العمل.

"ما الذي اعتبره هؤلاء السحرة علامة على أن الصمت الداخلي يعمل، يا دون خوان؟" سألت.

"الصمت الداخلي يعمل منذ اللحظة التي تبدأ في استحقاقه"، أجاب. "ما كان يسعى إليه السحرة القدماء هو النتيجة النهائية الدرامية للوصول إلى عتبة الصمت الفردية تلك. يحتاج بعض الممارسين الموهوبين للغاية إلى بضع دقائق فقط من الصمت للوصول إلى ذلك الهدف المنشود. أما الآخرون، الأقل موهبة، فيحتاجون إلى فترات طويلة من الصمت، ربما أكثر من ساعة من الهدوء التام، قبل أن يصلوا إلى

النتيجة المرجوة. والنتيجة المرجوة هي ما أطلق عليه السحرة القدامى إيقاف العالم، اللحظة التي يتوقف فيها كل شيء من حولنا عن كونه ما كان عليه دائمًا.

وتابع دون خوان قائلاً: "هذه هي اللحظة التي يعود فيها السحرة إلى الطبيعة الحقيقية للإنسان". "أطلق عليها السحرة القدامى أيضًا اسم الحرية الكاملة. إنها اللحظة التي يتحول فيها الإنسان العبد إلى إنسان

حر، قادر على إنجازات إدراكية تتحدى خيالنا الخطي."

أكد لي دون خوان أن الصمت الداخلي هو السبيل الذي يؤدي إلى تعليق حقيقي للحكم - للحظة تتوقف فيها البيانات الحسية المنبثقة من الكون ككل عن أن تُفسر بواسطة الحواس؛ لحظة تتوقف فيها المعرفة عن كونها القوة التي، من خلال الاستخدام والتكرار، تحدد طبيعة العالم.

قال دون خوان: "يحتاج السحرة إلى نقطة تحول حتى يبدأ عمل الصمت الداخلي". " نقطة تحول مثل الملاط الذي يضعه البناء بين الطوب. لا يتحول الطوب المفكك إلى هيكل إلا بعد أن يتصلب الملاط.

منذ بداية علاقتنا، غرس دون خوان في نفسي قيمة وضرورة الصمت الداخلي. بذلت قصارى جهدي لاتباع اقتراحاته من خلال تراكم الصمت الداخلي ثانيةً بثانية. لم تكن لدي أي وسيلة لقياس تأثير هذا التراكم، ولم تكن لدي أي وسيلة للحكم على ما إذا كنت قد وصلت إلى أي عتبة أم لا. لقد سعيت بكل إصرار إلى جمعها، ليس فقط لإرضاء دون خوان ولكن لأن عملية جمعها أصبحت تحديًا في حد ذاتها.

في أحد الأيام، كنت أنا ودون خوان نتمشى على مهل في الساحة الرئيسية لمدينة هيرموسيلو. كان ذلك في وقت مبكر من بعد ظهر يوم غائم. كان الجو جافاً، بل وممتعاً للغاية. كان هناك الكثير من الناس يتجولون. كانت هناك متاجر حول الساحة. لقد زرت هيرموسيلو مرات عديدة، ومع ذلك لم ألحظ المتاجر قط. كنت أعلم أنها موجودة هناك، لكن وجودها لم يكن شيئاً كنت على دراية به بوعي. لم أكن لأستطيع رسم خريطة لتلك

الساحة حتى لو كان الأمر متعلقاً بحياتي. في ذلك اليوم، بينما كنت أسير مع دون خوان، كنت أحاول تحديد مواقع المتاجر والتعرف عليها. بحثت عن شيء أستخدمه كأداة مساعدة على التذكر من شأنه أن يثير ذاكرتي لاستخدامه لاحقًا.

قال دون خوان، مقاطعاً تركيزي: "كما أخبرتك من قبل مرات عديدة، كل ساحر أعرفه، ذكراً كان أم أنثى، يصل عاجلاً أم آجلاً إلى نقطة التحول في حياته".

"هل تقصد أنهم أصيبوا بانهيار عصبي أو شيء من هذا القبيل؟" سألت

"لا، لا"، قال ضاحكًا. "الانهيارات العصبية هي من نصيب الأشخاص الذين ينغمسون في أنفسهم. السحرة ليسوا أشخاصاً. ما أقصده هو أنه في لحظة معينة، يجب أن تنقطع استمرارية حياتهم حتى يسود الصمت الداخلي ويصبح جزءًا فعالًا من بنيتهم.

وتابع دون خوان قائلاً: "من المهم جداً جداً أن تصل أنت بنفسك إلى نقطة التحول تلك عن قصد، أو أن تخلقها بشكل مصطنع وذكي".

"ماذا تقصد بذلك يا دون خوان؟" سألته، وقد أذهلني منطقه المثير للاهتمام.

قال:"نقطة التحول هي إيقاف حياتك كما تعرفها. لقد فعلت كل ما طلبته منك، بإخلاص ودقة. إذا كنت موهوباً، فلن تُظهر ذلك أبداً. يبدو أن هذا هو أسلوبك.

أنت لست بطيئاً، لكنك تتصرف كما لو كنت كذلك. أنت واثق جداً من نفسك، لكنك تتصرف كما لو كنت غير واثق من نفسك. أنت لست جباناً، ومع ذلك تتصرف كما لو كنت تخاف من الناس. كل ما تفعله يشير إلى نقطة واحدة: حاجتك إلى تحطيم كل ذلك، بلا رحمة.

"لكن بأي طريقة يا دون خوان؟" ما الذي يدور في ذهنك؟" سألتُ وأنا في حالة من الذعر الشديد.

قال: "أعتقد أن كل شيء يختزل إلى فعل واحد". "يجب أن تترك أصدقاءك. يجب أن تقول لهم وداعاً، وداعاً نهائياً. ليس من الممكن لك

أن تستمر في طريق المحاربين حاملاً تاريخك الشخصي معك، وما لم تتوقف عن أسلوب حياتك هذا، فلن أتمكن من المضي قدماً في تعليماتي.

قلت: "مهلاً، مهلاً، مهلاً يا دون خوان، عليّ أن أضع حداً للأمر. أنت تطلب مني الكثير. لأكون صريحاً معك، لا أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك. أصدقائي هم عائلتي، وهم مرجعي في الحياة."

"بالضبط، بالضبط"، هكذا علّق. "إنهم نقاط مرجعك." لذلك، عليهم الرحيل. لدى السحرة نقطة مرجعية واحدة فقط: اللانهائية".

"لكن كيف تريدني أن أواصل، دون خوان؟" سألت بصوت حزين. كان طلبه يثير غضبي بشدة.

قال ببرود: "عليك ببساطة أن تغادر". "ارحل بأي طريقة ممكنة." "لكن إلى أين سأذهب؟" سألت.

قال: "أنصحك باستئجار غرفة في أحد تلك الفنادق الرخيصة التي تعرفها". "كلما كان المكان أقبح، كان ذلك أفضل. إذا كانت الغرفة تحتوي على سجادة خضراء باهتة، وستائر خضراء باهتة، وجدران خضراء باهتة، فهذا أفضل بكثير - مكان يُضاهي ذلك الفندق الذي أريتك إياه مرة في لوس أنجلوس."

ضحكت بتوتر وأنا أتذكر الوقت الذي كنت أقود فيه السيارة مع دون خوان عبر الجانب الصناعي من لوس أنجلوس، حيث لم يكن هناك سوى مستودعات وفنادق متداعية للعابرين. لفت فندق واحد على وجه الخصوص انتباه دون خوان بسبب اسمه المبهر: إدوارد السابع. توقفنا على الجانب الآخر من الشارع للحظة لنلقي نظرة عليه.

قال دون خوان، مشيرًا إليه: "هذا الفندق هناك يمثل بالنسبة لي التمثيل الحقيقي للحياة على الأرض بالنسبة للشخص العادي." إذا كنت محظوظاً، أو قاسياً، فستحصل على غرفة مطلة على الشارع، حيث سترى هذا العرض الذي لا ينتهي من البؤس البشري. إذا لم تكن محظوظًا أو قاسيًا إلى هذا الحد، فستحصل على غرفة في الداخل، مع نوافذ تطل على جدار المبنى المجاور. تخيل أنك تقضي عمرك ممزقًا بين هذين المنظرين، تحسد منظر الشارع إذا كنت في الداخل، وتحسد منظر الجدار إذا كنت في

الخارج، متعبًا من النظر إلى الخارج."

أزعجني تشبيه دون خوان كثيراً، لأنني كنت قد استوعبته بالكامل.

الآن، في مواجهة احتمال الاضطرار إلى استئجار غرفة في فندق مماثل لفندق إدوارد السابع، لم أكن أعرف ماذا أقول أو أي طريق أسلك.

"ماذا تريدني أن أفعل هناك يا دون خوان؟" سألت.

قال وهو ينظر إليّ بنظرة ثابتة: "يستخدم الساحر مكاناً كهذا ليموت". "لم تكن وحيداً في حياتك قط. حان الوقت لفعل ذلك. ستبقى في تلك الغرفة حتى تموت."

أخافني طلبه، لكن في الوقت نفسه، جعلني أضحك.

قلت: "ليس الأمر أنني سأفعل ذلك يا دون خوان، ولكن ما هي المعايير التي ساعرف أنني ميت؟إلا إذا كنت تريدني أن أموت جسديًا بالفعل."

قال: "لا، لا أريد أن يموت جسدك جسدياً". أريد أن يموت الشخصك. الأمران مختلفان تماماً. باختصار، لا علاقة لشخصك بجسدك. شخصيتك هي عقلك، وصدقني، عقلك ليس ملكك.

"ما هذا الهراء يا دون خوان، أن عقلي ليس ملكي؟" سمعت نفسي أسأل بنبرة عصبية في صوتي.

قال: "سأخبرك عن هذا الموضوع يوماً ما، ولكن ليس وأنت محاط بأصدقائك."

وتابع قائلاً: "إن المعيار الذي يشير إلى موت الساحر هو عندما لا يفرق معه ما إذا كان بصحبة أحد أو ما إذا كان وحيداً. اليوم الذي لا تتوق فيه إلى صحبة أصدقائك، الذين تستخدمهم كدروع، هو اليوم الذي ماتت فيه شخصيتك. ما رأيك؟ هل أنت مستعد؟"

قلت: "لا أستطيع فعل ذلك يا دون خوان". "لا فائدة من محاولتي الكذب عليك. لا أستطيع أن أترك

أصدقائي."

قال دون إنزعاج: "لا بأس على الإطلاق". لم يبدُ أن تصريحي قد أثر

فيه على الإطلاق. "لن أتمكن من التحدث إليك بعد الآن، ولكن دعنا نقول أنك تعلمت الكثير خلال الوقت الذي قضيناه معًا. لقد تعلمت أشياء ستجعلك قوياً جداً، بغض النظر عما إذا كنت ستعود أم ستبتعد."

ربت على ظهري وقال لي وداعاً. استدار واختفى ببساطة بين الناس في الساحة، كما لو أنه اندمج معهم. للحظة، انتابني شعور غريب بأن الناس في الساحة كانوا مثل ستارة فتحها ثم اختفى خلفها. لقد حانت النهاية، كما حانت كل الأمور الأخرى في عالم دون خوان: بسرعة وبشكل لا يمكن التنبؤ به. فجأة، كان الأمر على عاتقي، وكنت في خضمه، ولم أكن أعرف حتى كيف دخلت فيه.

كان ينبغي أن أشعر بالانكسار. لكنني لم أكن كذلك. لا أعرف لماذا كنت مبتهجاً. لقد انبهرت بالسهولة التي انتهى بها كل شيء. كان دون خوان بالفعل شخصًا أنيقًا. لم يكن هناك أي لوم أو غضب أو أي شيء من هذا القبيل على الإطلاق. ركبت سيارتي وانطلقت، سعيداً للغاية. كنتُ في غاية السعادة. يا له من أمر غريب أن ينتهي كل شيء بهذه السرعة، فكرت، وبدون أي ألم.

كانت رحلة عودتي إلى الوطن هادئة وخالية من الأحداث. في لوس أنجلوس، وفي محيطي المألوف، لاحظت أنني استمديت قدراً هائلاً من الطاقة من آخر لقاء لي مع دون خوان. كنت في الواقع سعيداً جداً، ومسترخياً جداً، واستأنفت ما اعتبرته حياتي الطبيعية بحماس متجدد. لقد نُسيت تماماً كل معاناتي مع أصدقائي، وكل ما أدركته عنهم، وكل ما قلته لدون خوان بخصوص هذا الأمر. كان الأمر كما لو أن شيئاً ما قد محا كل ذلك من ذهني. لقد اندهشت مرتين من سهولة نسياني لشيء كان ذا مغزى كبير، ومن نسيانه تماماً.

كان كل شيء كما هو متوقع. كان هناك تناقض واحد في النموذج المنظم لحياتي الجديدة القديمة: أتذكر بوضوح أن دون خوان قال لي إن رحيلي عن عالم السحرة كان أكاديمياً بحتاً، وأنني سأعود. لقد تذكرت ودونت كل كلمة من حديثنا. بحسب تفكيري المنطقي وذاكرتي، لم يدل دون خوان بتلك التصريحات قط. كيف لي أن أتذكر أشياء لم تحدث قط؟ فكرتُ بلا جدوى. كانت ذكرياتي الزائفة غريبة بما يكفي لتبريرها، لكنني قررت بعد ذلك أنه لا جدوى منها. بالنسبة لي، كنت

خارج دائرة دون خوان.

بعد اتباع اقتراحات دون خوان فيما يتعلق بسلوكي مع أولئك الذين قدموا لي أي فضل، توصلت إلى قرار يهز كياني: وهو تكريم أصدقائي وشكرهم قبل فوات الأوان. أحد الأمثلة على ذلك هو صديقي رودريغو كامينغز. لكن حادثة واحدة تتعلق بصديقي رودريغو قلبت نموذجي الجديد رأساً على عقب وأدت إلى انهياره التام.

لقد تغيرت نظرتي إليه جذرياً عندما تغلبت على أي روح تنافسية معه. اكتشفت أن أسهل شيء في العالم بالنسبة لي هو أن أركز بنسبة 100% على أي شيء يفعله رودريغو. في الحقيقة، كنت مثله تماماً، لكنني لم أكن أعرف ذلك حتى توقفت عن منافسته. ثم ظهرت الحقيقة لي بوضوحٍ مُثيرٍ للجنون. كانت إحدى أهم أمنيات رودريغو هي إكمال دراسته الجامعية. في كل فصل دراسي، كان يسجِّل في المدرسة ويأخذ أكبر عدد ممكن من المقررات الدراسية المسموح بها. ثم، مع تقدم الفصل الدراسي، قام بإسقاطها واحداً تلو الآخر. في بعض الأحيان كان ينسحب من المدرسة تماماً. وفي أوقات أخرى، كان يلتزم بدورة واحدة من ثلاث وحدات حتى النهاية المريرة.

خلال الفصل الدراسي الأخير، استمر في دراسة علم الاجتماع لأنه كان يحبه. اقترب موعد الامتحان النهائي. أخبرني أن لديه ثلاثة أسابيع للدراسة، لقراءة الكتاب المقرر للدورة. كان يعتقد أن ذلك وقت طويل للغاية لقراءة ستمائة صفحة فقط. كان يعتبر نفسه قارئاً سريعاً إلى حد ما، ولديه مستوى عالٍ من الحفظ؛ وفي رأيه، كانت لديه ذاكرة فوتوغرافية بنسبة 100% تقريباً.

كان يعتقد أن لديه متسعاً من الوقت قبل الامتحان، لذلك سألني عما إذا كنت سأساعده في إعادة تأهيل سيارته لتوزيع الصحف. أراد أن يخلع الباب الأيمن لكي يرمي الصحف من خلال تلك الفتحة بيده اليمنى بدلاً من رميها فوق السطح بيده اليسرى. أشرت إليه بأنه أعسر، فرد قائلاً إن من بين قدراته العديدة، التي لم يلاحظها أي من أصدقائه، قدرته على استخدام كلتا يديه بمهارة. كان محقاً في ذلك؛ لم ألاحظ ذلك بنفسي أبداً. بعد أن ساعده أحدهم في إزالة الباب، قرر أن يمزق بطانة السقف التي كانت ممزقة بشدة. وقال إن سيارته في حالة ميكانيكية مثالية، وأنه سيأخذها إلى تيخوانا بالمكسيك، والتي أطلق عليها اسم "تي جيه" كأحد سكان لوس أنجلوس في ذلك الوقت، لإعادة تبطينها مقابل بضعة دولارات.

قال بفرح:"يمكننا الاستفادة منرحلة ". بل إنه اختار الأصدقاء الذين يرغب في اصطحابهم. "في تي جيه، أنا متأكد من أنك ستذهب للبحث عن كتب مستعملة، لأنك شخص سيء. أما نحن الباقون فسنذهب إلى بيت دعارة. أعرف عدداً لا بأس به."

استغرق الأمر منا أسبوعًا لإزالة جميع البطانة وصنفرة السطح المعدني لتجهيزه للبطانة الجديدة. كان أمام رودريغو أسبوعان للدراسة حينها، وكان لا يزال يعتبر ذلك وقتاً طويلاً جداً - لقد استعان بي حينها لمساعدته في طلاء شقته وتجديد الأرضيات. استغرق الأمر منا أكثر من أسبوع لطلاء الأرضية وصنفرة الأرضيات الخشبية الصلبة. لم يرغب في طلاء ورق الحائط في إحدى الغرف. اضطررنا إلى استئجار آلة لإزالة ورق الجدران عن طريق تعريضه للبخار. بطبيعة الحال، لم نكن أنا ولا رودريغو نعرف كيفية استخدام الآلة بشكل صحيح، وقد أفسدنا المهمة بشكل فظيع. انتهى بنا الأمر إلى استخدام مادة "توبينغ"، وهي عبارة عن خليط دقيق للغاية من الجبس ومواد أخرى تعطي الجدار سطحًا أملسًا.

بعد كل هذه الجهود، لم يتبق أمام رودريغو سوى يومين فقط ليحشر ستمائة صفحة في رأسه. انطلق في ماراثون قراءة محموم طوال اليوم والليل، بمساعدة الأمفيتامينات. ذهب رودريغو إلى المدرسة يوم الامتحان، وجلس على مكتبه، وحصل على ورقة الامتحان متعددة الخيارات.

ما لم يفعله هو البقاء مستيقظاً لأداء الامتحان. انحنى جسده إلى الأمام، وارتطم رأسه بالمكتب بصوت مرعب. كان لا بد من تعليق الامتحان لفترة من الوقت. أصيب أستاذ علم الاجتماع بنوبة هستيرية، وكذلك فعل الطلاب الجالسون حول رودريغو. كان جسده متصلباً وبارداً كالثلج. اشتبه جميع الطلاب في الأسوأ؛ فقد ظنوا أنه مات بنوبة قلبية. تم استدعاء المسعفين لإخراجه. بعد فحص سريع، أعلنوا أن رودريغو كان نائماً نوماً عميقاً ونقلوه إلى المستشفى لينام حتى يزول تأثير الأمفيتامينات.

كان إسقاطي على شخصية رودريغو كامينغز كاملاً لدرجة أنه أخافني. كنت مثله تماماً. أصبح هذا التشابه غير مقبول بالنسبة لي. في عمل اعتبرته عبثية انتحارية كاملة، استأجرت غرفة في فندق متهالك في هوليوود.

كانت السجادات خضراء اللون وعليها آثار حروق سجائر مروعة تم إخمادها بوضوح قبل أن تتحول إلى حرائق كاملة. كانت ستائرها خضراء

وجدرانها خضراء باهتة. ظلّت لافتة الفندق الوامضة تضيء طوال الليل من خلال النافذة.

انتهى بي الأمر بفعل ما طلبه دون خوان بالضبط، ولكن بطريقة ملتوية. لم أفعل ذلك لتلبية أي من متطلبات دون خوان أو بنية إصلاح خلافاتنا. لقد مكثت في غرفة الفندق تلك لأشهر متواصلة، حتى مات شخصي، كما اقترح دون خوان، حتى لم يعد يهمني حقاً ما إذا كنت برفقة أحد أم كنت وحدي.

بعد مغادرتي الفندق، ذهبت لأعيش بمفردي، بالقرب من المدرسة. واصلت دراستي في علم الإنسان، والتي لم تنقطع قط، وبدأت مشروعاً تجارياً مربحاً للغاية مع شريكة. بدا كل شيء على ما يرام حتى جاء يوم أدركت فيه فجأة أنني سأقضي بقية حياتي قلقاً بشأن عملي، أو قلقاً بشأن الخيار الوهمي بين أن أكون أكاديمياً أو رجل أعمال، أو قلقاً بشأن عيوب شريكتي وتصرفاتها الطائشة. لقد اخترق اليأس الحقيقي أعماق كياني. لأول مرة في حياتي، على الرغم من كل الأشياء التي فعلتها ورأيتها، لم يكن لدي أي مخرج. لقدْ تهتُ تماماً. بدأتُ أفكر جدياً في فكرة إيجاد الطريقة الأكثر عملية والأقل إيلاماً لإنهاء أيامي.

في صباح أحد الأيام، أيقظني طرقٌ عالٍ ومستمر على الباب. ظننت أنها صاحبة المنزل، وكنت متأكدًا من أنها إذا لم أجب، فستدخل بمفتاحها الخاص. فتحت الباب، وإذا بدون خوان هناك! لقد فوجئت كثيراً لدرجة أنني شعرت بالخدر. تلعثمت وتلعثمت، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة. أردت أن أقبّل يده، وأن أركع أمامه. دخل دون خوان وجلس بكل سهولة على حافة سريري.

قال: "لقد قمت بالرحلة إلى لوس أنجلوس فقط لأراك".

أردت أن آخذه لتناول الإفطار، لكنه قال إن لديه أموراً أخرى عليه القيام بها، وأنه لا يملك سوى لحظة للتحدث معي. أخبرته على عجل بتجربتي في الفندق. لقد أحدث وجوده فوضى عارمة لدرجة أنني لم أفكر للحظة في سؤاله كيف عرف مكان إقامتي. أخبرت دون خوان كم ندمت بشدة على ما قلته في هيرموسيلو.

"لست مضطراً للاعتذار"، هكذا أكد لي. "كل واحد منا يفعل الشيء نفسه. ذات مرة، هربت من عالم السحرة بنفسي، وكان علي أن أموت تقريبًا

لأدرك غبائي. المسألة المهمة هي الوصول إلى نقطة التحول، بأي طريقة كانت، وهذا بالضبط ما فعلته. أصبح الصمت الداخلي حقيقيًا

بالنسبة لي. هذا هو السبب الذي يجعلني هنا أمامك، أتحدث إليك. هل تفهمت ما أقصده؟

ظننت أنني فهمت ما كان يقصده. ظننت أنه قد استشعر أو قرأ، بالطريقة التي كان يقرأ بها الأشياء في الهواء، أنني وصلت إلى نهاية حيلتي وأنه جاء لإنقاذي.

قال: "ليس لديك وقت لتضيعه". "يجب عليك حل مشروعك التجاري في غضون ساعة، لأن ساعة واحدة هي كل ما يمكنني تحمله من الانتظار - ليس لأنني لا أريد الانتظار، ولكن لأن اللانهائية تضغط علي بلا رحمة." لنفترض أن اللانهائية تمنحك ساعة واحدة لإلغاء نفسك. بالنسبة للنهائية، فإن المشروع الوحيدة الجديرة بالاهتمام للمحارب هي الحرية. أي مشروع آخر هو مشروع احتيالي. هل يمكنك حل كل شيء في ساعة واحدة ؟"

لم يكن عليّ أن أؤكد له أنني أستطيع. كنت أعلم أنه كان عليّ أن أفعل ذلك. أخبرني دون خوان حينها أنه بمجرد أن أنجح في حل كل شيء، سينتظرني في السوق في إحدى مدن المكسيك. في محاولتي للتفكير في حل شركتي، أغفلت ما كان يقوله. كررها، وبالطبع ظننت أنه يمزح.

"كيف يمكنني الوصول إلى تلك البلدة يا دون خوان؟ هل تريدني أن أقود السيارة، أم أن أستقل طائرة؟" سألت.

"قم بحلّ شركتك أولاً"، هكذا أمر. "ثم سيأتي الحل. لكن تذكر، سأنتظرك لمدة ساعة واحدة فقط.

غادر الشقة، وسعيتُ جاهدًا إلى التخلص من كل ما أملك. بطبيعة الحال، استغرق الأمر مني أكثر من ساعة، لكنني لم أتوقف للتفكير في هذا الأمر لأنه بمجرد أن بدأت عملية حل الشركة، حملني زخمها. لم أواجه المعضلة الحقيقية إلا بعد أن انتهيت. أدركت حينها أنني فشلت فشلاً ذريعاً. لم يتبق لي أي عمل، ولا أي فرصة للوصول إلى دون خوان.

ذهبت إلى فراشي وبحثت عن العزاء الوحيد الذي خطر ببالي: الهدوء والصمت. من أجل تسهيل الوصول إلى الصمت الداخلي، علمني دون خوان طريقة للجلوس على سريري، مع ثني الركبتين وتلامس باطن القدمين، ودفع القدمين معًا باليدين عن طريق الإمساك بالكاحلين. لقد أعطاني وتداً سميكاً كنت أحمله دائماً في متناول يدي أينما ذهبت. تم قصها إلى طول أربعة عشر بوصة لدعم وزن رأسي إذا انحنيت ووضعت الوتد على الأرض بين قدمي، ثم وضعت الطرف الآخر، الذي كان مبطناً، على النقطة في منتصف جبهتي. في كل مرة اتخذت فيها هذا الوضع، كنت أغفو في غضون ثوانٍ.

لا بد أنني غفوت بسهولة كعادتي، فقد حلمت أنني كنت في البلدة المكسيكية التي قال دون خوان إنه سيقابلني فيها. لطالما أثارت هذه المدينة فضولي. كان السوق مفتوحاً يوماً واحداً في الأسبوع، وكان المزارعون الذين يعيشون في المنطقة يحضرون منتجاتهم إلى هناك لبيعها. أكثر ما أثار إعجابي في تلك المدينة هو الطريق المعبد الذي يؤدي إليها. عند مدخل المدينة، كان الطريق يمر فوق تل شديد الانحدار. لقد جلست مرات عديدة على مقعد بجوار كشك يبيع الجبن، ونظرت إلى ذلك التل. كنت أرى الناس وهم قادمون إلى المدينة مع حميرهم وأحمالهم، لكنني كنت أرى رؤوسهم أولاً؛ ومع استمرار اقترابهم كنت أرى المزيد من أجسادهم، حتى اللحظة التي كانوا فيها على قمة التل، حينها كنت أرى أجسادهم بالكامل. بدا لي دائماً أنهم يخرجون من الأرض، إما ببطء أو بسرعة كبيرة، حسب سرعتهم. في حلمي، كان دون خوان ينتظرني عند كشك الجبن. اقتربت منه.

قال وهو يربت على ظهري: "لقد وصلت من صمتك الداخلي". "لقد وصلت إلى نقطة التحول. للحظة، بدأت أفقد الأمل. لكنني بقيت في الجوار، مع العلم أنك ستنتجح".

في ذلك الحلم، ذهبنا في نزهة. كنت أسعد مما كنت عليه في أي وقت مضى. كان الحلم واضحاً جداً، وواقعياً بشكل مرعب، لدرجة أنه لم يترك لي أي شك في أنني قد حللت المشكلة، حتى لو كان حلها مجرد خيال حلمي.

ضحك دون خوان وهو يهز رأسه. لقد قرأ أفكاري بالتأكيد. قال: "أنت لست في مجرد حلم، ولكن من أنا لأخبرك بذلك؟ ستعرف ذلك بنفسك يوماً ما - أنه لا توجد أحلام من الصمت الداخلي - لأنك

ستختار أن تعرف ذلك."

قياسات الإدراك

كانت عبارة "نهاية حقبة" بالنسبة لدون خوان وصفًا دقيقًا للعملية التي يمر بها الشامان في تفكيك بنية العالم الذي يعرفونه من أجل استبدالها بطريقة أخرى لفهم العالم من حولهم.

سعى دون خوان ماتوس كمدرس، منذ اللحظة التي التقينا فيها، إلى تعريفي بعالم إدراكالشامان في المكسيك القديمة. كان مصطلح "الإدراك" بالنسبة لي في ذلك الوقت موضع جدل كبير. فهمت الأمر على أنه العملية التي نتعرف من خلالها على العالم من حولنا. تندرج بعض الأمور ضمن نطاق تلك العملية ويمكننا التعرف عليها بسهولة. أما الأشياء الأخرى فلا تفعل ذلك، وبالتالي تبقى غريبة، أشياء ليس لدينا فهم كافٍ لها.

أكد دون خوان، منذ بداية علاقتنا، أن عالم سحرة المكسيك القديمة كان مختلفًا عن عالمنا، ليس بطريقة سطحية، ولكن بطريقة تنظيم عملية الإدراك. وأكد أن إدراكنا في عالمنا يتطلب تفسير البيانات الحسية. وقال إن الكون يتكون من عدد لا نهائي من حقول الطاقة الموجودة في الكون ككل على شكل خيوط مضيئة. تؤثر تلك الخيوط المضيئة على الإنسان ككائن حي. تتمثل استجابة الكائن الحي في تحويل تلك المجالات الطاقية إلى بيانات حسية. ثم يتم تفسير البيانات الحسية، ويصبح هذا التفسير نظامنا الإدراكي. إن فهمي للإدراك أجبرني على الاعتقاد بأنه عملية عالمية، كما أن اللغة عملية عالمية. توجد قواعد نحوية مختلفة لكل لغة، حيث يجب أن يكون هناك ترتيب مختلف قليلاً لكل نظام تفسير في العالم.

لكن تأكيد دون خوان، بأن الشامان في المكسيك القديمة كان لديهم

نظام إدراكي مختلف، كان بالنسبة لي بمثابة القول بأن لديهم طريقة مختلفة للتواصل لا علاقة لها باللغة. ما كنت أريده بشدة أن يقوله هو أن نظامهم الإدراكي المختلف يعادل امتلاك لغة مختلفة، ولكنه يبقى لغة على أي حال. كان معنى "نهاية حقبة" بالنسبة لدون خوان هو أن وحدات الإدراك الأجنبية بدأت تترسخ. بدأت وحدات إدراكي الطبيعي، مهما كانت ممتعة ومجزية بالنسبة لي، بالتلاشي. لحظة عصيبة في حياة رجل!

لعلّ أكثر ما أعتز به هو حياتي الأكاديمية. أي شيء يهدد ذلك كان بمثابة تهديد لجوهر كياني، خاصة إذا كان الهجوم خفياً وغير ملحوظ. حدث ذلك مع أستاذ كنت قد وضعت فيه كل ثقتي، الأستاذ لوركا.

لقد التحقت بدورة البروفيسور لوركا في علم الإدراك لأنه تم ترشيحه لي كواحد من ألمع الأكاديميين الموجودين. كان البروفيسور لوركا وسيماً إلى حد ما، بشعر أشقر مصفف بعناية إلى الجانب. كانت جبهته ناعمة وخالية من التجاعيد، مما أعطى انطباعًا بأنه شخص لم يقلق أبدًا في حياته. كانت ملابسه مصممة بشكل ممتاز للغاية. لم يكن يرتدي ربطة عنق، وهي سمة أعطته مظهراً صبيانياً. كان يرتدي ربطة العنق فقط عند مقابلة الشخصيات المهمة.

في أول حصة دراسية لا تُنسى مع البروفيسور لوركا، شعرت بالحيرة والتوتر عندما رأيته يذرع المكان إيابا وذهاباً لدقائق بدت لي وكأنها دهر. ظل البروفيسور لوركا يحرك شفتيه الرقيقتين المشدودتين لأعلى ولأسفل، مما زاد من حدة التوتر الذي كان يولده في تلك الغرفة المغلقة ذات النوافذ الخانقة. فجأة، توقف عن المشي. وقف في وسط الغرفة، على بعد أقدام قليلة من المكان الذي كنت أجلس فيه، وبدأ يتحدث وهو يضرب جريدة ملفوفة بعناية على المنصة.

"لن يُعرف ذلك أبداً..." هكذا بدأ حديثه.

بدأ جميع من في الغرفة في تدوين الملاحظات بقلق في وقت واحد.

وكرر قائلاً: "لن يُعرف أبداً ما يشعر به الضفدع وهو جالس في

قاع بركة ويفسر عالم الضفادع من حوله." كان صوته يحمل قوة هائلة وحسمًا تامًا. "إذن، ما رأيكم في هذا الشيء؟" لوّح بالجريدة فوق رأسه.

ثم قرأ على الطلاب مقالاً من الصحيفة تناول عمل عالم أحياء. ونُقل عن العالم وصفه لما تشعر به الضفادع عندما تسبح الحشرات فوق رؤوسها.

"هذا المقال يُظهر إهمال المراسل، الذي من الواضح أنه اقتبس كلام العالم بشكل خاطئ"، أكد البروفيسور لوركا بسلطة أستاذ جامعي. "لن يسمح العالم، مهما كان عمله رديئاً، لنفسه أبداً بإضفاء صفات بشرية على نتائج بحثه، إلا إذا كان أحمق بالطبع."

وبهذا كمقدمة، ألقى محاضرة رائعة للغاية حول الطبيعة الانعزالية لنظامنا المعرفي، أو النظام الإدراكي لأي كائن حي، في هذا الشأن. لقد قدم لي، في محاضرته الأولى، وابلاً من الأفكار الجديدة وجعلها بسيطة للغاية وجاهزة للاستخدام. كانت الفكرة الأكثر ابتكاراً بالنسبة لي هي أن كل فرد من كل نوع على هذه الأرض يفسر العالم من حوله، باستخدام البيانات التي يتم الإبلاغ عنها بواسطة حواسه المتخصصة. وأكد أن البشر لا يستطيعون حتى تخيل كيف سيكون الحال، على سبيل المثال، في عالم يحكمه تحديد الموقع بالصدى، كما هو الحال في عالم الخفافيش، حيث لا يمكن حتى تصور أي نقطة مرجعية مستنتجة من قبل العقل البشري. لقد أوضح تماماً أنه من وجهة النظر هذه، لا يمكن أن يكون هناك نظامان إدراكيان متشابهان بين الأنواع.

عندما غادرت القاعة في نهاية المحاضرة التي استمرت ساعة ونصف، شعرت أنني قد انبهرت ببراعة عقل البروفيسور لوركا. ومنذ ذلك الحين، أصبحت من أشد معجبيه. لقد وجدت محاضراته أكثر من مجرد محفزة ومثيرة للتفكير. كانت محاضراته هي الوحيدة التي كنت أتطلع لحضورها على الإطلاق. لم تكن كل غرائبه تعني لي شيئاً مقارنة بتميزه كمعلم ومفكر مبتكر في مجال علم النفس.

عندما حضرت لأول مرة فصل البروفيسور لوركا، كنت أعمل مع دون خوان ماتوس لمدة عامين تقريبًا. كان ذلك نمطاً سلوكياً

راسخاً بالنسبة لي، فقد اعتدت على الروتين، وكنت أخبر دون خوان بكل ما يحدث لي في حياتي اليومية. في أول فرصة سنحت لي، أخبرته بما كان يحدث مع البروفيسور لوركا. أثنيت على البروفيسور لوركا إلى عنان السماء، وأخبرت دون خوان بلا خجل أن البروفيسور لوركا كان قدوتي.

بدا دون خوان متأثراً جداً بإظهاري للإعجاب الحقيقي، ومع ذلك فقد وجه لي تحذيراً غريباً.

قال: "لا تُعجب بالناس من بعيد". "هذه هي الطريقة الأضمن لخلق كائنات أسطورية. تقرّب من أستاذك، وتحدث إليه، وتعرّف على شخصيته كرجل. اختبره. إذا كان سلوك أستاذك ناتجًا عن قناعته بأنه كائن سيموت، فإن كل ما يفعله، مهما كان غريبًا، يجب أن يكون متعمدًا ونهائيًا. إذا تبين أن ما يقوله مجرد كلام، فهو لا يستحق شيئاً."

لقد شعرت بإهانة بالغة مما اعتبرته قسوة دون خوان. ظننت أنه كان يشعر ببعض الغيرة من مشاعري تجاه البروفيسور لوركا. بمجرد أن تبلورت تلك الفكرة في ذهني شعرت بالارتياح؛ لقد فهمت كل شيء.

قلتُ: "أخبرني يا دون خوان"، لأنهي المحادثة بنبرة مختلفة، "ما هو الكائن الذي سيموت حقاً؟ لقد سمعتك تتحدث عن ذلك مرات عديدة، لكنك لم توضح لي معناه بشكل فعلي."

قال: "البشر كائنات ستموت".

"يؤكد السحرة بشدة أن الطريقة الوحيدة للسيطرة على عالمنا، وعلى ما نفعله فيه، هي القبول التام بأننا كائنات في طريقها إلى الموت.

بدون هذا القبول الأساسي، تصبح حياتنا وأفعالنا والعالم الذي نعيش فيه أموراً لا يمكن السيطرة عليها."

"لكن هل مجرد قبول هذا الأمر بعيد المدى إلى هذا الحد؟" سألت بنبرة شبه احتجاجية.

"أراهن بحياتك!" قال دون خوان مبتسماً. "لكن مجرد القبول ليس هو ما يحل المشكلة علينا أن نجسد هذا القبول ونعيشه بكل تفاصيله. قال السحرة عبر العصور إن رؤية الموت هي أكثر النظرات رصانة على الإطلاق. إن الخطأ الذي نعاني منه نحن البشر، والذي كان خطأً منذ الأزل، هو أننا نعتقد

أننا دخلنا عالم الخلود دون أن نصرح بذلك صراحةً. نتصرف كما لو أننا لن نموت أبداً - إنه غرور طفولي. لكن ما هو أشد ضرراً من هذا الشعور بالخلود هو ما يصاحبه: الشعور بأننا نستطيع أن نبتلع هذا الكون الذي لا يمكن تصوره بعقولنا.

لقد سيطر عليّ مزيجٌ قاتلٌ من الأفكار بلا رحمة: حكمة دون خوان ومعرفة البروفيسور لوركا. كلاهما كان صعباً، غامضاً، شاملاً، وجذاباً للغاية. لم يكن أمامي ما أفعله سوى متابعة مجريات الأحداث والسير معها أينما تأخذني.

اتبعتُ اقتراح دون خوان بحذافيره بشأن التواصل مع البروفيسور لوركا. حاولت طوال الفصل الدراسي أن أتقرب منه، وأن أتحدث إليه. كنت أذهب بانتظام إلى مكتبه خلال ساعات عمله، لكن يبدو أنه لم يكن لديه أي وقت لي. لكن على الرغم من أنني لم أستطع التحدث إليه، فقد أعجبت به دون تحيز. بل إنني تقبلت فكرة أنه لن يتحدث معي أبداً. لم يكن ذلك مهماً بالنسبة لي؛ ما كان مهماً هو الأفكار التي جمعتها من دروسه الرائعة.

أبلغت دون خوان بكل ما توصلت إليه من نتائج فكرية. لقد قرأتُ كثيراً عن الإدراك. حثني دون خوان ماتوس، أكثر من أي وقت مضى، على إقامة اتصال مباشر مع مصدر ثورتي الفكرية. قال بنبرة استعجال: "من الضروري أن تتحدث إليه". "السحرة لا يُعجبون بالناس بمعزل عن غيرهم. يتحدثون إليهم؛ ويتعرفون عليهم. إنهم يحددون نقاط مرجعية. يقارنون. ما تفعله فيه شيء من التصرفات الطفولية. أنت تُعجب من بعيد. يشبه الأمر إلى حد كبير ما يحدث للرجل الذي يخاف من النساء. وأخيراً، تتغلب شهوته على خوفه وتجبره على عبادة أول امرأة تقول له "مرحباً".

لقد بذلت جهداً مضاعفاً للتقرب من البروفيسور لوركا، لكنه كان أشبه بحصن منيع. عندما تحدثت إلى دون خوان عن صعوباتي، أوضح لي أن السحرة ينظرون إلى أي نوع من النشاط مع الناس، مهما كان ضئيلاً أو غير مهم، على أنه ساحة معركة. في ساحة المعركة تلك، بذل السحرة قصارى جهدهم في أداء سحرهم. أكد لي أن سر الشعور بالراحة في مثل هذه المواقف، وهو أمر لم أكن بارعاً فيه أبداً، هو مواجهة خصومنا علناً. لقد أعرب عن كراهيته للنفوس الخجولة التي تتجنب التفاعل لدرجة أنها حتى وإن تفاعلت، فإنها تستنتج أو تستخلص فقط، من حيث حالاتها النفسية الخاصة، ما يحدث دون أن تدرك في الواقع ما يحدث بالفعل. يتفاعلون دون أن يكونوا جزءًا

من التفاعل.

وتابع قائلاً: "انظر دائماً إلى الرجل الذي يخوض معك صراعاً". "لا تسحب الحبل فقط؛ انظر إلى الأعلى وانظر إلى عينيه. ستعرف حينها أنه رجل، مثلك تماماً. بغض النظر عما يقوله، وبغض النظر عما يفعله، فهو يرتجف خوفاً، تماماً مثلك. نظرة كهذه تجعل الخصم عاجزاً، ولو للحظة؛ ثم وجه ضربتك.

في أحد الأيام، حالفني الحظ: حاصرت البروفيسور لوركا في الردهة خارج مكتبه.

قلت: "أستاذ لوركا، هل لديك لحظة فراغ لأتمكن من التحدث إليك؟"

"من أنت بحق الجحيم؟" قال ذلك بكل بساطة، كما لو كنت صديقه المقرب وكان يسألني فقط عن شعوري في ذلك اليوم.

كان البروفيسور لوركا فظاً إلى أقصى حد، لكن كلماته

لم يكن لها تأثير فظ عليّ. ابتسم لي بشفتين مضمومتين، كما لو كان يشجعني على المغادرة أو على قول شيء ذي معنى.

قلت: "أنا طالب في علم الإنسان، يا بروفيسور لوركا". "أنا أشارك في وضع ميداني حيث تتاح لي الفرصة للتعرف على النظام الإدراكي للسحرة."

نظر إليّ البروفيسور لوركا بشك وانزعاج. بدت عيناه كنقطتين زرقاوين مليئتين بالحقد. مشط شعره إلى الخلف بيده، كما لو أنه سقط على وجهه.

وتابعت محاولاً استدراج رد فعل: "أنا أعمل مع ساحر حقيقي في المكسيك". "إنه ساحر حقيقي، صدقني. لقد استغرق

الأمر مني أكثر من عام لمجرد تهيئة جوٍّ مناسب له حتى يوافق على التحدث معي.

استرخى وجه البروفيسور لوركا؛ فتح فمه ولوّح بيده الرقيقة أمام عيني، كما لو كان يلف عجينة البيتزا بها، ثم تحدث إليّ. لم أستطع إلا أن ألاحظ أزرار أكمامه الذهبية المطلية بالمينا، والتي كانت متناسقة تماماً مع سترته الخضراء.

"وماذا تريد مني؟" قال.

قلت: "أريدك أن تستمع إليّ للحظة، وأن ترى ما إذا كان ما أفعله قد يثير اهتمامك".

أشار بكتفيه بإشارة تدل على التردد والاستسلام، ثم فتح باب مكتبه ودعاني للدخول. كنت أعلم أنه ليس لدي أي وقت لأضيعه على الإطلاق، وقدمت له وصفاً مباشراً جداً لوضعي الميداني. أخبرته أنني كنت أتلقى تعليماً في إجراءات لا علاقة لها بما وجدته في الأدبيات الأنثروبولوجية حول الشامانية.

حرك شفتيه للحظة دون أن ينطق بكلمة. وأشار عندما تحدث إلى أن عيب علماء الأنثروبولوجيا بشكل عام هو أنهم لا يمنحون أنفسهم الوقت الكافي ليصبحوا على دراية كاملة بجميع الفروق الدقيقة للنظام الإدراكي المحدد الذي يستخدمه الأشخاص الذين يدرسونهم. عرّف "الإدراك" بأنه نظام تفسيري، والذي من خلال الاستخدام يجعل من الممكن للأفراد استخدام جميع الفروق الدقيقة للمعنى التي تشكل البيئة الاجتماعية المحددة قيد الدراسة، بأقصى قدر من الخبرة.

لقد أوضحت كلمات البروفيسور لوركا النطاق الكامل لعملي الميداني. لولا إلمامي بجميع تفاصيل النظام الإدراكي لشامانات المكسيك القديمة، لكان من غير الضروري تماماً بالنسبة لي أن أضع أي فكرة عن ذلك العالم. لو لم ينطق البروفيسور لوركا بكلمة أخرى لي، لكان ما قاله للتو أكثر من كافٍ. وما تلا ذلك كان خطاباً رائعاً حول الإدراك.

قال البروفيسور لوركا: "مشكلتك هي أن النظام الإدراكي لعالمنا اليومي الذي نعرفه جميعًا، تقريبًا منذ يوم ولادتنا، ليس هو نفسه النظام الإدراكي لعالم السحرة".

لقد أحدث هذا التصريح حالة من النشوة في داخلي. شكرت البروفيسور لوركا جزيل الشكر وأكدت له أنه لا يوجد سوى مسار واحد للعمل في حالتي: وهو اتباع أفكاره مهما كانت الظروف.

قال وهو يصطحبني خارج مكتبه: "ما أخبرتك به، بالطبع، هو أمر معروف للجميع". "كل من يقرأ يدرك ما كنت أخبركم به."

افترقنا ونحن على وشك أن نكون أصدقاء. قوبلت إجابتي لدون خوان عن نجاحي في التواصل مع البروفيسور لوركا برد فعل غريب. بدا دون خوان، من جهة، مبتهجاً، ومن جهة أخرى، قلقاً.

قال: "لدي شعور بأن أستاذك ليس كما يدعي تماماً". "هذا بالطبع من وجهة نظر الساحر. ربما يكون من الحكمة التوقف الآن، قبل أن يصبح كل هذا معقداً ومستهلكاً للغاية. من أهم فنون السحرة معرفة متى يتوقفون. يبدو لي أنك قد حصلت من أستاذك على كل ما يمكنك الحصول عليه منه.

رددت على الفور بسلسلة من الدفاعات نيابة عن البروفيسور لوركا. دون خوان هدّأني. وقال إنه لم يكن ينوي انتقاد أو الحكم على أي شخص، ولكن حسب علمه، فإن قلة قليلة من الناس تعرف متى تتوقف، وقلة أقل منهم تعرف كيف تستخدم معرفتها فعلياً.

على الرغم من تحذيرات دون خوان، لم أستسلم؛ بل أصبحت تلميذاً مخلصاً، ومتابعاً، ومعجباً بالبروفيسور لوركا. بدا أنه مهتم حقًا بعملي، على الرغم من أنه شعر بالإحباط الشديد بسبب ترددي وعدم قدرتي على صياغة مفاهيم واضحة حول النظام الإدراكي لعالم السحرة.

في أحد الأيام، صاغ لي البروفيسور لوركا مفهوم العالم الزائر لعالم إدراكي آخر. اعترف بأنه كان على استعداد لأن يكون منفتحًا، ولعبة، كعالم اجتماعي، مع إمكانية وجود نظام إدراكي مختلف. تصور بحثًا فعليًا يتم فيه جمع البروتوكولات وتحليلها. سيتم ابتكار مشاكل الإدراك وإعطائها للشامان الذين أعرفهم، لقياس، على سبيل المثال، قدرتهم على تركيز إدراكهم على جانبين متنوعين من السلوك.

كان يعتقد أن الاختبار سيبدأ بنموذج بسيط

يحاولون فيه فهم واستيعاب نص مكتوب يقرؤونه أثناء لعبهم البوكر. سيتصاعد الاختبار، لقياس، على سبيل المثال، قدرتهم على تركيز إدراكهم على الأشياء المعقدة التي كانت تُقال لهم أثناء نومهم، وما إلى ذلك. أراد البروفيسور لوركا إجراء تحليل لغوي على أقوال الشامان. أراد قياسًا فعليًا لاستجاباتهم من حيث سرعتها ودقتها، بالإضافة إلى متغيرات أخرى ستصبح سائدة مع تقدم المشروع.

انفجر دون خوان ضحكاً عندما أخبرته عن القياسات التي اقترحها البروفيسور لوركا لإدراك الشامان.

قال: "الآن، أنا معجب حقاً بأستاذك". "لكن لا يمكنك أن تكون جادًا بشأن فكرة قياس إدراكنا. ما الذي يمكن أن يستفيده أستاذك من قياس ردود أفعالنا؟ سيقتنع بأننا مجموعة من الحمقى، لأن هذا ما نحن عليه بالفعل. لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نكون أكثر ذكاءً أو أسرع من الرجل العادي. لكن ليس ذنبه أن يعتقد أنه يستطيع قياس الإدراك عبر العوالم. الخطأ خطؤك. لقد فشلت في توضيح الأمر لأستاذك بأن السحرة عندما يتحدثون عن العالم الإدراكي لشامانات المكسيك القديمة، فإنهم يتحدثون عن أشياء ليس لدينا ما يعادلها في عالم الحياة اليومية.

"على سبيل المثال، إن إدراك الطاقة مباشرة أثناء تدفقها في الكون هو وحدة إدراكية يعيش بها الشامان. يرون كيف تتدفق الطاقة، ويتبعون تدفقها. إذا تعرقل تدفقها، فإنها تبتعد للقيام بشيء مختلف تمامًا. يرى الشامان خطوطًا في الكون. إن فنهم، أو وظيفتهم، هو اختيار الخط الذي سيأخذهم، من حيث الإدراك، إلى مناطق ليس لها اسم. يمكن القول إن الشامان يتفاعلون فوراً مع خطوط الكون. يرون البشر ككرات مضيئة، ويبحثون فيها عن تدفق طاقتهم.

وبطبيعة الحال، يتفاعلون على الفور مع هذا المشهد. إنه جزء من إدراكهم."

أخبرت دون خوان أنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال التحدث عن كل هذا مع البروفيسور لوركا لأنني لم أفعل أيًا من الأشياء التي كان يصفها. بقي إدراكي كما هو.

"أجل!" صرخ قائلاً: "الأمر ببساطة أنك لم تتح لك الفرصة بعد لتجسيد

وحدات الإدراك في عالم الشامان."

غادرت منزل دون خوان وأنا في حيرة من أمري أكثر من أي وقت مضى. كان هناك صوت بداخلي يطالبني فعلياً بإنهاء جميع مساعي مع البروفيسور لوركا. أدركت مدى صحة كلام دون خوان عندما قال لي ذات مرة إن الجوانب العملية التي يهتم بها العلماء تؤدي إلى بناء آلات أكثر تعقيداً. لم تكن تلك هي الأمور العملية التي غيرت مسار حياة الفرد من الداخل. لم تكن هذه الأساليب موجهة للوصول إلى اتساع الكون كأمر شخصي وتجريبي. كانت الآلات الهائلة الموجودة، أو تلك التي يجري صنعها، شأناً ثقافياً، وكان لا بد من التمتع بتحقيقها بشكل غير مباشر، حتى من قبل مبتكري تلك الآلات أنفسهم. كانت المكافأة الوحيدة لهم مالية.

من خلال توضيح كل ذلك لي، نجح دون خوان في وضعي في حالة ذهنية أكثر فضولاً. بدأتُ حقاً أشكك في أفكار البروفيسور لوركا، وهو أمر لم أفعله من قبل. وفي الوقت نفسه، استمر البروفيسور لوركا في إطلاق حقائق مذهلة حول الإدراك. كان كل إعلان أشد من سابقه، وبالتالي كان أكثر حدة.

i

في نهاية الفصل الدراسي الثاني مع البروفيسور لوركا، وصلت إلى طريق مسدود. لم يكن هناك أي سبيل على وجه الأرض بالنسبة لي للربط بين خطي الفكر: دون خوان والبروفيسور لوركا. لقد كانا يسيران في مسارين متوازيين. لقد فهمت دافع البروفيسور لوركا لتوصيف وتحديد كمية دراسة الإدراك.

كان علم التحكم الآلي على وشك الظهور في ذلك الوقت، وكان الجانب العملي لدراسات الإدراك حقيقة واقعة. لكن عالم دون خوان كان كذلك أيضاً، والذي لم يكن من الممكن قياسه بالأدوات القياسية للإدراك. لقد حظيت بشرف مشاهدة ذلك، في تصرفات دون خوان، لكنني لم أختبره بنفسي. شعرت أن هذا هو العيب الذي جعل الربط بين هذين العالمين مستحيلاً.

أخبرتُ دون خوان بكل هذا في إحدى زياراتي له. قال إن ما اعتبرته عائقا، وبالتالي العامل الذي جعل الربط بين هذين العالمين مستحيلاً، لم يكن دقيقًا. في رأيه، كان الخلل شيئًا أكثر شمولًا من مجرد ظروف فردية لرجل واحد.

قال: "ربما تتذكر ما قلته لك عن أحد أكبر عيوبنا كبشر عاديين".

لم أستطع تذكر أي شيء على وجه الخصوص. لقد أشار إلى العديد من العيوب التي نعاني منها كبشر عاديين لدرجة أن عقلي ترنح.

قلت: "أنت تريد شيئاً محدداً، ولا أستطيع التفكير فيه".

وقال: "إن العيب الكبير الذي أتحدث عنه هو شيء يجب أن تضعه في اعتبارك في كل ثانية من وجودك". بالنسبة لي، إنها مسألة القضايا، وسأكررها لك مراراً وتكراراً حتى تملّ منها تماماً.

بعد لحظة طويلة، تخليت عن أي محاولة أخرى للتذكر.

قال: "نحن كائنات في طريقها إلى الموت". "لسنا خالدين، لكننا نتصرف كما لو كنا كذلك. هذا هو العيب الذي يُسقطنا كأفراد، وسيُسقطنا كجنس بشري في يوم من الأيام."

ذكر دون خوان أن ميزة السحرة على عامة الناس تكمن في أن السحرة يعلمون أنهم كائنات في طريقها إلى الموت ولا يسمحون لأنفسهم بالانحراف عن هذه المعرفة. وأكد على ضرورة بذل جهد هائل من أجل استخلاص هذه المعرفة والحفاظ عليها كحقيقة مطلقة.

"لماذا يصعب علينا الاعتراف بشيء صادق للغاية؟" سألتُ وأنا في حيرة من أمري بسبب حجم التناقض الداخلي بيننا.

قال بنبرة تصالحية: "إنها ليست غلطة الإنسان حقاً". "في يوم من الأيام، سأخبرك المزيد عن القوى التي تدفع الإنسان للتصرف كالأحمق."

لم يكن هناك ما يقال أكثر من ذلك. كان الصمت الذي أعقب ذلك ينذر بالسوء. لم أكن أرغب حتى في معرفة ما هي القوى التي كان دون خوان يشير إليها.

وتابع دون خوان قائلاً: "ليس من الصعب عليّ تقييم أستاذك عن بعد". "إنه عالم خالد. لن يموت أبداً. أما فيما يتعلق بأي مخاوف بشأن الموت، فأنا متأكد من أنه قد تكفل بها بالفعل. لديه قطعة أرض ليدفن فيها، وبوليصة تأمين على الحياة ضخمة ستعتني بعائلته. بعد أن أنجز هذين الأمرين، لم يعد يفكر في الموت

بعد الأن. لا يفكر إلا في عمله.

وتابع دون خوان قائلاً: "إن البروفيسور لوركا يتحدث بشكل منطقي، لأنه مستعد لاستخدام الكلمات بدقة. لكنه ليس مستعداً لأن يأخذ نفسه على محمل الجد كرجل سيموت. لأنه خالد، فهو لا يعرف كيف يفعل ذلك. لا يهم نوع الآلات المعقدة التي يستطيع العلماء بناؤها. لا يمكن للآلات بأي حال من الأحوال أن تساعد أي شخص على مواجهة الموعد الحتمي: الموعد مع اللانهائية.

وتابع قائلاً: "كان الناغوال جوليان يخبرني عن الجنرالات الفاتحين في روما القديمة". عندما كانوا يعودون إلى ديارهم منتصرين، كانت تُقام لهم مواكب ضخمة لتكريمهم. استعرض الغزاة الكنوز التي غنموها، والشعوب المهزومة التي استعبدوها، وهم يركبون عرباتهم الحربية. كان يرافقهم دائماً عبدٌ مهمته أن يهمس في آذانهم بأن كل الشهرة والمجد ليسا إلا زائلين.

وتابع دون خوان قائلاً: "إذا انتصرنا بأي شكل من الأشكال، فلن يكون لدينا أحد ليهمس في آذاننا بأن انتصاراتنا عابرة". لكن السحرة يملكون اليد العليا؛ فهم كائنات في طريقها إلى الموت، وهناك من يهمس في آذانهم بأن كل شيء زائل. الهامس هو الموت، المستشار المعصوم، الوحيد الذي لن يخبرك بالكذب أبدًا ".

قول شكراً

قال دون خوان: "المحاربون المسافرون لا يتركون أي ديون دون سداد". "عن ماذا تتحدث يا دون خوان؟" سألت.

وقال: "لقد حان الوقت لتسوية بعض الديون التي تراكمت عليك خلال حياتك". "ليس الأمر أنك ستدفع المبلغ كاملاً، ولكن عليك أن تقوم ببادرة. يجب عليك إجراء دفعة رمزية من أجل التكفير، من أجل إرضاء اللانهائية. أخبرتني عن صديقتيك اللتين كانتا تعنيان

لك الكثير، باتريشيا تيرنر وساندرا فلانغان. حان الوقت لتذهب وتجدهم وتقدم لكل منهم هدية واحدة تنفق فيها كل ما تملك. عليك أن تقدم هديتين ستجعلانك مفلساً. هذه هي البادرة.

قلتُ، بنبرة احتجاجية تقريباً: "لا أعرف أين هم يا دون خوان".

"إن العثور عليهم هو التحدي الذي يواجهك. في بحثك عنهم، لن تدخر جهداً في البحث والتقصي. ما تنوي فعله هو شيء بسيط للغاية، ومع ذلك يكاد يكون مستحيلاً. تريد أن تتجاوز عتبة المديونية الشخصية وأن تتحرر دفعة واحدة، لكي تتمكن من المضي قدماً. إذا لم تستطع تجاوز تلك

العتبة، فلن يكون هناك أي جدوى من محاولة الاستمرار معي.

"لكن من أين أتيت بفكرة هذه المهمة لي؟" سألت. "هل اخترعتها بنفسك، لأنك تعتقد أنها مناسبة؟"

قال ببساطة: "أنا لا أخترع أي شيء". "لقد حصلت على هذه المهمة من اللانهائية نفسها. ليس من السهل عليّ أن أقول لك كل هذا. إذا كنت تعتقد أنني أستمتع بمصائبك، فأنت مخطئ. نجاح مهمتك يعني لي أكثر مما يعني لك. إذا فشلت، فلن تخسر الكثير. ماذا؟ زياراتك لي. أمر مهم.

لكنني سأخسرك، وهذا يعني بالنسبة لي خسارة استمرارية نسلي أو إمكانية إغلاقك له بمفتاح ذهبي.

توقف دون خوان عن الكلام. كان يعرف دائماً متى يصبح ذهني مليئاً بالأفكار.

وتابع قائلاً:"لقد أخبرتك مراراً وتكراراً أن المحاربين المسافرين براغماتيين". "إنهم لا ينخرطون في العاطفة، أو الحنين إلى الماضي، أو الكآبة." بالنسبة للمحاربين المسافرين ، هناك صراع فقط، وهو صراع بلا نهاية. إذا كنت تعتقد أنك جئت إلى هنا للعثور على السلام، أو أن هذا هدوء في حياتك، فأنت مخطئ. لا تسترشد مهمة سداد ديونك هذه بأي مشاعر تعرفها.

يسترشد بأنقى المشاعر، مشاعر المسافر المحارب الذي على وشك الغوص في اللانهائية، وقبل أن يفعل ذلك مباشرة، يستدير ليقول شكراً لأولئك الذين فضلوه.

وتابع قائلاً: "يجب أن تواجه هذه المهمة بكل الجاذبية التي تستحقها". "إنها محطتك الأخيرة قبل أن تبتلعك اللانهائية. في الواقع، ما لم يكن المحارب المسافر في حالة سامية من الوجود، فإن اللانهائية لن تلمسه بعمود طوله عشرة أقدام. لذلك، لا تدخر نفسك ؛ لا تدخر أي جهد. ادفعها بلا رحمة، ولكن بأناقة، على الدوام ".

التقيت بالشخصين اللذين أشار إليهما دون خوان على أنهما صديقتاي اللتان كانتا تعنيان الكثير بالنسبة لي أثناء ذهابي إلى الكلية الإعدادية. كنت أعيش في شقة المرآب في المنزل الذي يملكه والدا باتريشيا تيرنر. في مقابل الغرفة والطعام، اعتنيت بكنس حمام السباحة، وتجريف الأوراق، وإلقاء القمامة، وإعداد الإفطار لباتريشيا ولي. كنت أيضًا العامل اليدوي في المنزل بالإضافة إلى سائق العائلة ؛ أوصلت السيدة تيرنر للقيام بالتسوق واشتريت الخمور للسيد تيرنر، الذي اضطررت إلى التسلل به إلى المنزل ثم إلى الاستوديو الخاص به.

كان مديرًا تنفيذيًا في مجال التأمين، وكان يشرب الخمر بمفرده. لقد وعد عائلته بأنه لن يلمس الزجاجة مرة أخرى بعد بعض المشاحنات العائلية الخطيرة بسبب إفراطه في الشرب. اعترف لي بأنه قلل من تناوله للكحول بشكل كبير، لكنه كان يحتاج إلى رشفة من وقت لآخر. كان الاستوديو الخاص به، بطبيعة الحال، محظوراً على الجميع باستثنائي. كان من المفترض أن أدخل لتنظيفه، لكن ما فعلته حقًا هو إخفاء زجاجاته داخل عارضة بدت وكأنها تدعم قوسًا في سقف الاستوديو، لكنها كانت في الواقع مجوفة. كان عليّ أن أدخل الزجاجات خلسةً وأخرج الزجاجات الفارغة خلسةً وأتخلص منها في السوق.

كانت باتريشيا تدرس الدراما والموسيقى في الجامعة، وكانت مغنية رائعة. كان هدفها الغناء في المسرحيات الموسيقية في برودواي. لا داعي للقول إنني وقعت في حب باتريشيا تيرنر من النظرة الأولى. كانت نحيفة للغاية ورياضية، سمراء ذات ملامح حادة، وأطول مني بحوالي رأس، وهو الشرط الأساسي الذي يجعلني أقع في غرام أي امرأة.

بدا أنني ألبي حاجة عميقة لديها، وهي الحاجة إلى رعاية شخص ما، خاصة بعد أن أدركت أن والدها يثق بي ثقة مطلقة. أصبحت أمي

الصغيرة. لم أستطع حتى أن أفتح فمي دون موافقتها. كانت تراقبني كالصقر. بل إنها كتبت لي أوراقًا بحثية، وقرأت الكتب الدراسية، وأعطتني ملخصات عنها. وقد أعجبني ذلك، ولكن ليس لأنني أردت أن أتلقى الرعاية؛ لا أعتقد أن تلك الحاجة كانت جزءًا من إدراكي على الإطلاق. استمتعت بحقيقة أنها فعلت ذلك. لقد استمتعت بصحبتها.

كانت تأخذني إلى السينما يومياً. كانت لديها تصاريح دخول لجميع دور السينما الكبيرة في لوس أنجلوس، مُنحت لوالدها من قِبل بعض كبار منتجي الأفلام. لم يستخدمها السيد تيرنر بنفسه قط؛ فقد شعر أن إظهار تصاريح دخول السينما أمر لا يليق بكرامته. كان موظفو السينما دائماً يُلزمون متلقي هذه التصاريح بالتوقيع على إيصال. لم يكن لدى باتريشيا أي تحفظات بشأن التوقيع على أي شيء، ولكن في بعض الأحيان كان الموظفون السيئون يريدون من السيد تيرنر التوقيع، وعندما ذهبت لأفعل ذلك، لم يكونوا راضين عن توقيع السيد تيرنر فقط. طالبوا رخصة قيادة. أحدهم، شاب وقح، أدلى بتعليق أضحكه وأضحكني أنا أيضاً، لكنه أثار غضب باتريشيا بشدة.

قال بابتسامة خبيثة للغاية: "أعتقد أنك السيد تورد، وليس السيد تيرنر".

كان بإمكاني تجاهل تلك الملاحظة، لكنه بعد ذلك عرّضنا للإذلال الشديد برفضه دخولنا لمشاهدة فيلم هرقل من بطولة ستيف ريفز.

عادةً، كنا نذهب إلى كل مكان مع صديقة باتريشيا المقربة، ساندرا فلانغان، التي كانت تعيش في المنزل المجاور مع والديها. كانت ساندرا نقيض باتريشيا تماماً. كانت بنفس الطول، لكن وجهها كان مستديراً، بخدود وردية وفم مثير؛ كانت أكثر صحة من حيوان الراكون. لم يكن لديها أي اهتمام بالغناء. لم تكن مهتمة إلا بالملذات الحسية للجسد. كانت تستطيع أن تأكل وتشرب أي شيء وتهضمه، والميزة التي حسمت الأمر بالنسبة لي هي أنه بعد أن أنهت طبقها، تمكنت من فعل الشيء نفسه مع طبقي، وهو أمر لم أستطع فعله طوال حياتي، لكوني شخصًا صعب الإرضاء في الطعام. كانت أيضاً رياضية للغاية، ولكن بطريقة خشنة وسليمة. كانت تستطيع أن تضرب كالرجل وأن تركل كالحمار.

من باب المجاملة لباتريشيا، كنت أقوم بنفس الأعمال المنزلية لوالدي ساندرا التي كنت أقوم بها لوالديها: تنظيف حمام السباحة الخاص بهم بالمكنسة الكهربائية، وجمع أوراق الشجر من حديقتهم، وإخراج القمامة في يوم جمع القمامة، وحرق الأوراق والنفايات القابلة للاشتعال. كان ذلك الوقت في لوس أنجلوس عندما ازداد تلوث الهواء بسبب استخدام محارق النفايات

المنزلية.

ربما كان السبب في وقوعي في حب كلتيهما بجنون هو قربهما مني، أو سهولة التعامل معهما.

ذهبت لأطلب النصيحة من شاب غريب الأطوار كان صديقي، نيكولاس فان هوتين. كان لديه حبيبتان، وكان يعيش معهما كلتيهما، ويبدو أنه كان يعيش في حالة من السعادة الغامرة. بدأ بإعطائي، كما قال، أبسط نصيحة: كيف تتصرف في دار السينما إذا كان لديك صديقتان. قال إنه كلما ذهب إلى السينما مع صديقتيه، كان كل انتباهه يتركز دائماً على من يجلس على يساره. بعد فترة، كانت الفتاتان تذهبان إلى الحمام، وعند عودتهما، كان يطلب منهما تغيير ترتيب الجلوس. جلست آنا في المكان الذي كانت تجلس فيه بيتي، ولم يكن أحد من حولهما على علم بذلك. لقد أكد لي أن هذه هي الخطوة الأولى في عملية طويلة لكسر حواجز الفتيات وجعلهن يتقبلن وضع الثلاثي بشكل واقعي؛ كان نيكولاس مبتذلاً إلى حد ما، واستخدم ذلك التعبير الفرنسي المبتذل: علاقة ثلاثية .

اتبعت نصيحته وذهبت إلى مسرح يعرض أفلامًا صامتة في شارع فيرفاكس في لوس أنجلوس مع باتريشيا وساندي. أجلست باتريشيا على يساري وركزت كل اهتمامي عليها. ذهبوا إلى الحمام، وعندما عادوا طلبت منهم تبديل الأماكن. بدأت حينها في فعل ما نصح به نيكولاس فان هوتين، لكن باتريشيا لم تكن لتتحمل أي هراء من هذا القبيل. نهضت وغادرت المسرح، وهي تشعر بالإهانة والإذلال والغضب الشديد. أردت أن أركض خلفها وأعتذر، لكن ساندرا أوقفتني.

قالت بابتسامة خبيثة: "دعها تذهب". "إنها فتاة كبيرة." لديها ما يكفي من المال لاستقلال سيارة أجرة والعودة إلى المنزل.

انخدعت بالأمر وبقيت في المسرح أقبل ساندرا، بتوتر شديد، وشعور بالذنب. كنت في منتصف قبلة عاطفية عندما شعرت بشخص يسحبني للخلف من شعري. كانت باتريشيا. كان صف المقاعد مرتخياً ومائلاً للخلف. قفزت باتريشيا الرياضية جانباً قبل أن تتحطم المقاعد التي كنا نجلس عليها على صف المقاعد الذي خلفها. سمعت صرخات الخوف لاثنين من مشاهدي الأفلام كانا يجلسان في نهاية الصف، بجوار الممر.

كانت نصيحة نيكولاس فان هوتين نصيحة بائسة. عدنا أنا وباتريشيا وساندرا إلى المنزل في صمت تام. لقد تصالحنا، وسط وعود غريبة للغاية، ودموع، وكل ما يصاحب ذلك. كانت نتيجة علاقتنا الثلاثية أننا في النهاية كدنا ندمر أنفسنا. لم نكن مستعدين لمثل هذا المسعى. لم نكن نعرف كيف نحل مشاكل العاطفة والأخلاق والواجب والأعراف الاجتماعية. لم أستطع ترك أحدهن

من أجل الأخرى، ولم يستطيعا تركي. في أحد الأيام، وفي ذروة اضطراب هائل، ومن شدة اليأس، هربنا نحن الثلاثة في اتجاهات مختلفة، ولم نرَ بعضنا البعض مرة أخرى.

شعرتُ بالانهيار. لم يكن لأي شيء فعلته أن يمحو أثرهم على حياتي. غادرت لوس أنجلوس وانشغلت بأمور لا حصر لها في محاولة لتهدئة شوقي. دون مبالغة على الإطلاق، أستطيع أن أقول بصدق أنني سقطت في أعماق الجحيم، كما اعتقدت، ولن أخرج منها أبداً. لولا تأثير دون خوان على حياتي وشخصيتي، لما كنت قد نجوت من شياطين نفسي الداخلية. أخبرت دون خوان أنني أعلم أن كل ما فعلته كان خطأ، وأنه ليس من شأني إشراك هؤلاء الأشخاص الرائعين في مثل هذه التصرفات الدنيئة والغبية التي لم أكن مستعدًا لمواجهتها.

قال دون خوان: "المشكلة كانت أنكم الثلاثة كنتم ضائعين ومتغطرسين". كاد غرورك أن يدمرك. إذا لم تكن لديك أهمية ذاتية، فلن يكون لديك سوى مشاعر.

وتابع قائلاً: "أرجوكم، قوم بهذا التمرين البسيط والمباشر الذي قد يعني لك الكثير: تخلص من أي عبارات تقولها لنفسك عن هاتين الفتاتين، مثل: "قالت لي كذا وكذا، وصرخت، وصرخت الأخرى، في وجهي!" وابقَ على مستوى مشاعرك. لو لم تكن شديد الغرور، فماذا كان سيتبقى لديك كبقايا لا يمكن اختزالها؟

قلتُ وأنا على وشك الاختناق: "حبي لهم بلا تحيز". "وهل هو أقل اليوم مما كان عليه في ذلك الوقت؟" سأل دون خوان.

قلت بصدق: "لا، ليس كذلك يا دون خوان"، وشعرت بنفس وخزة الألم التي طاردتني لسنوات.

وقال: "هذه المرة، احتضنهم من خلال صمتك". "لا تكن أحمقاً حقيراً." احتضنهم تمامًا للمرة الأخيرة. لكن تنوي أن تكون هذه هي المرة الأخيرة على الأرض. تنوي ذلك من ظلامك. وتابع قائلاً: "إذا كنت تستحق ما تستحقه، فعندما تقدم لهم هديتك، ستلخص حياتك بأكملها مرتين". أعمال من هذا القبيل تجعل المحاربين محمولين جوا، تقريبا بخار ".

امتثالاً لأوامر دون خوان، أخذت المهمة على محمل الجد. أدركت أنه إذا لم أنتصر، فلن يكون دون خوان هو الخاسر الوحيد. كنت سأفقد شيئًا ما أيضًا، وأيًا كان ما سأفقده كان بنفس أهمية ما وصفه دون خوان بأنه مهم بالنسبة له. كنت سأفقد فرصتي في مواجهة اللانهائية وأن أكون واعيًا بها.

لقد أدخلتني ذكرى باتريشيا تيرنر وساندرا فلانغان في حالة نفسية سيئة للغاية. كان الشعور المدمر بالخسارة التي لا يمكن إصلاحها والذي طاردني طوال هذه السنوات واضحاً كما كان دائماً. عندما فاقم دون خوان ذلك الشعور، عرفت على وجه اليقين أن هناك أشياء معينة يمكن أن تبقى معنا، على حد تعبير دون خوان، مدى الحياة وربما إلى ما بعد الموت. كان عليّ أن أجد باتريشيا تيرنر وساندرا فلانغان. كانت توصية دون خوان الأخيرة هي أنه إذا وجدتهما، فلا يمكنني البقاء معهما. لم يكن لدي وقت إلا للتكفير عن ذنبي، ولأغمر كل واحدة منهن بكل المودة التي شعرت بها، دون أصوات الغضب واللوم والشفقة على الذات أو جنون العظمة.

شرعتُ في مهمة ضخمة تتمثل في معرفة ما آل إليه مصيرهم، وأين هم الآن. بدأت بطرح أسئلة على الأشخاص الذين يعرفون آباءهم.

انتقل والداهما من لوس أنجلوس، ولم يستطع أحد أن يدلني على مكان وجودهما. لم يكن هناك أحد للتحدث إليه. فكرت في وضع إعلان شخصي في الصحيفة. لكنني فكرت حينها أنهم ربما انتقلوا من كاليفورنيا. اضطررت في النهاية إلى توظيف محقق خاص. من خلال علاقاته مع المكاتب الرسمية للسجلات وما شابه، تمكن من تحديد موقعهما في غضون أسبوعين.

كانتا تعيشان في نيويورك، على مسافة قصيرة من بعضهم البعض، وكانت صداقتهما وثيقة كما كانت دائماً. ذهبت إلى نيويورك وواجهت باتريشيا تيرنر أولاً. لم تصل إلى النجومية في برودواي بالطريقة التي كانت ترغب بها، لكنها كانت جزءًا من إنتاج مسرحي. لم أكن أرغب في معرفة ما إذا كان ذلك بصفة فنان أو بصفة إداري. زرتها في مكتبها. لم تخبرني بما فعلت. لقد صُدمت عندما رأتني. كل ما فعلناه هو أننا جلسنا معاً،

وأمسكنا بأيدينا، وبكينا. لم أخبرها بما فعلت أيضاً. قلت إنني جئت لرؤيتها لأنني أردت أن أقدم لها هدية تعبر عن امتناني، وأنني كنت أشرع في رحلة لا أنوي العودة منها.

"لماذا هذه الكلمات المشؤومة؟" سألت، ويبدو أنها كانت تشعر بقلق حقيقي. "ماذا تخطط أن تفعل؟ هل أنت مريض؟ لا تبدو مريضاً."

أكدت لها قائلة: "لقد كان ذلك تعبيراً مجازياً". "سأعود إلى أمريكا الجنوبية، وأعتزم البحث عن ثروتي هناك." المنافسة شرسة، والظروف قاسية للغاية، هذا كل ما في الأمر. إذا أردت النجاح، فسيتعين عليّ أن أبذل كل ما في وسعي من أجله.

بدت عليها علامات الارتياح، وعانقتني. بدت كما هي، إلا أنها كانت أكبر بكثير، وأكثر قوة، وأكثر نضجاً، وأنيقة للغاية. قبلت يديها، وغمرني شعور جارف بالمودة. كان دون خوان محقاً. محرومًا من اللوم، لم يكن لدي سوى المشاعر.

قلت: "أريد أن أقدم لكِ هدية يا باتريشيا تيرنر". "اسأليني أي شيء تريده، وإذا كان ذلك في حدود إمكانياتي، فسأحضره لك."

"هل أصبحت ثرياً؟" قالت ذلك وضحكت. "الشيء الرائع فيك هو أنك لم تمتلك شيئاً قط، ولن تمتلكه أبداً. أنا وساندرا نتحدث عنك كل يوم تقريباً. نتخيلك تركن السيارات، وتعيش على حساب النساء، وما إلى ذلك. أنا آسفة، لا نستطيع منع أنفسنا، لكننا ما زلنا نحبك.

أصررتُ على أن تخبرني بما تريد. بدأت تبكي وتضحك في نفس الوقت.

"هل ستشتري لي معطفاً من فرو المنك؟" سألتني بين البكاء.

ربتت على شعرها وقلت إنني سأفعل.

قلت: "إذا لم يعجبك، يمكنك إعادته إلى المتجر واسترداد أموالك".

ضحكت ولكمتني بالطريقة التي كانت تفعلها سابقاً. كان عليها العودة إلى العمل، وافترقنا بعد أن وعدتها بأنني سأعود لرؤيتها، ولكن إن لم أفعل، فأردتُها أن تفهم أن تقلبات حياتي كانت تجذبني في كل اتجاه، ومع ذلك سأحتفظ بذكراها في داخلي طوال

حياتي وربما ما بعدها. لقد عدت بالفعل، ولكن فقط لأرى من بعيد كيف قاموا بتسليم معطف المنك إليها. سمعت صرخات فرحها.

لقد انتهيت من ذلك الجزء من مهمتي. رحلت، لكنني لم أكن كالبخار الجوي، كما قال دون خوان أنني سأكون. لقد فتحت جرحاً قديماً وبدأ ينزف. لم تكن السماء تمطر بغزارة في الخارج؛ بل كان ضباباً خفيفاً بدا وكأنه يتغلغل حتى نخاع عظامي.

بعد ذلك، ذهبت لرؤية ساندرا فلانغان. كانت تعيش في إحدى ضواحي نيويورك التي يمكن الوصول إليها بالقطار. طرقت بابها. فتحت ساندرا الباب ونظرت إليّ كما لو كنت شبحاً. اختفى اللون تماماً من وجهها. كانت أجمل من أي وقت مضى، ربما لأنها اكتسبت وزناً زائداً وبدت بحجم منزل.

"لماذا أنت، أنت، أنت!" تلعثمت، ولم تكن قادرة تماماً على نطق اسمي.

انتحبت، وبدت ساخطة وعاتبة للحظة. لم أمنحها فرصة للاستمرار. كان صمتي تاماً. وفي النهاية، أثر ذلك عليها. سمحت لي بالدخول وجلسنا في غرفة معيشتها.

"ما الذي تفعله هنا؟!" قالت، وقد هدأت كثيراً. "لا يمكنك البقاء! أنا امرأة متزوجة! لدي ثلاثة أطفال! وأنا سعيدة جداً في زواجي."

وبسرعة، كأنها تطلق كلماتها من مدفع رشاش، أخبرتني أن زوجها كان جديراً بالثقة، ليس خيالياً جداً ولكنه رجل طيب، وأنه لم يكن شهوانياً، وأنها كانت مضطرة إلى توخي الحذر الشديد لأنه كان يتعب بسهولة عندما يمارسان الحب، وأنه كان يمرض بسهولة وأحياناً لا يستطيع الذهاب إلى العمل، لكنه تمكن من إنجاب ثلاثة أطفال جميلين، وأنه بعد طفلها الثالث، استقال زوجها، الذي يبدو أن اسمه هربرت، ببساطة. لم يعد يستطيع، لكن ذلك لم يكن مهماً بالنسبة لها.

حاولت تهدئتها من خلال التأكيد لها مراراً وتكراراً أنني جئت لزيارتها للحظة فقط، وأنني لم أكن أنوي تغيير حياتها أو إزعاجها بأي شكل من الأشكال. وصفت لها مدى صعوبة العثور عليها.

قلت: "لقد جئت إلى هنا لأودعك، ولأخبرك أنك حب حياتي". أريد أن أقدم لك هدية رمزية، تعبيراً عن امتناني

ومحبتي الأبدية.

بدت متأثرة بشدة. ابتسمت بصدق كما كانت تفعل في السابق. الفراغ بين أسنانها جعلها تبدو كطفلة. علقت لها بأنها أصبحت أجمل من أي وقت مضى، وهذا ما كان صحيحاً بالنسبة لي.

ضحكت وقالت إنها ستتبع نظامًا غذائيًا صارمًا، ولو كانت تعلم أنني سأزورها، لكانت قد بدأت نظامها الغذائي منذ زمن طويل. لكنها ستبدأ الآن، وسأجدها في المرة القادمة نحيفة كما كانت دائماً. أكدت مجدداً على فظاعة حياتنا معاً ومدى تأثرها العميق بها. حتى أنها فكرت، على الرغم من كونها كاثوليكية متدينة، في الانتحار، لكنها وجدت في أطفالها العزاء الذي كانت تحتاجه؛ فكل ما فعلناه كان مجرد نزوات شبابية لا يمكن محوها بالمكنسة الكهربائية، ولكن كان لا بد من إخفائها.

عندما سألتها عما إذا كان هناك هدية يمكنني تقديمها لها كعربون امتنان ومودة لها، ضحكت وقالت بالضبط ما قالته باتريشيا تيرنر: أنني لا أملك شيئاً لأتبول فيه، ولن أملك واحداً أبداً، لأن هذه هي طبيعتي. أصررتُ على أن تُسمّي شيئاً ما.

"هل يمكنك شراء سيارة ستيشن واغن تتسع لجميع أطفالي؟" قالت ضاحكة. "أريد سيارة بونتياك، أو أولدزموبيل، بكل الكماليات."

قالت ذلك وهي تعلم في قرارة نفسها أنني لا أستطيع أن أقدم لها مثل هذه الهدية. لكنني فعلت.

قدت سيارة التاجر، وتبعته وهو يسلم سيارة ستيشن واجن لها في اليوم التالي، ومن السيارة المتوقفة حيث كنت أختبئ، سمعت دهشتها؛ ولكن بما يتناسب مع طبيعتها الحسية، لم تكن دهشتها تعبيراً عن السرور. كان رد فعل جسدي، شهقة ألم وحيرة. بكت، لكنني كنت أعرف أنها لم تكن تبكي لأنها تلقت الهدية. كانت تعبر عن شوق كان له صدى في داخلي. انهرتُ على مقعد السيارة. في رحلتي بالقطار إلى نيويورك، وفي رحلتي الجوية إلى لوس أنجلوس، كان الشعور الذي رافقني هو أن حياتي كانت تتلاشى؛ كانت تتسرب مني مثل الرمال المتشابكة. لم أشعر بأي شكل من الأشكال بالتحرر أو التغيير بعد قول "شكراً" و"مع السلامة". بل على العكس تماماً، شعرت بعبء ذلك التعلق الغريب بشكل أعمق من أي وقت مضى. شعرت برغبة في البكاء. ما كان يدور في ذهني مراراً

وتكراراً هو العناوين التي ابتكرها صديقي رودريغو كامينغز لكتب لم يكن من المفترض أن تُكتب أبداً. كان متخصصاً في كتابة العناوين. كانت أغنيته المفضلة "سنموت جميعًا في هوليوود"؛ وأخرى "لن نتغير أبدًا"؛ أما أغنيتي المفضلة، التي اشتريتها بعشرة دولارات، فكانت "من حياة وخطايا رودريغو كامينغز". كل تلك العناوين كانت تدور في ذهني. كنت رودريغو كامينغز، وكنت عالقاً في الزمان والمكان، وكنت أحب امرأتين أكثر من حياتي، ولن يتغير ذلك أبداً. ومثل بقية أصدقائي، سأموت في هوليوود.

أخبرت دون خوان بكل هذا في تقريري عن ما اعتبرته نجاحي الزائف. لم يعر الأمر أي اعتبار بلا خجل. قال إن ما شعرت به لم يكن سوى نتيجة الانغماس في المشاعر والشفقة على الذات، وأنه لكي يقول السحرة وداعاً وشكراً، وأن يكونوا صادقين في ذلك ويحافظوا عليه، كان عليهم أن يعيدوا تشكيل أنفسهم.

"تخلص من شفقتك على نفسك الآن"، هكذا طالب. "تخلص من فكرة أنك متألم، وماذا تبقى لديك كأثر لا يمكن التخلص منه؟"

ما تبقى لديّ كأثر لا يمكن اختزاله هو الشعور بأنني قدمت لهما هديتي النهائية. ليس بروح تجديد أي شيء، أو إيذاء أي شخص، بما في ذلك نفسي، ولكن بالروح الحقيقية التي حاول دون خوان أن يشير إليها لي - بروح المحارب المسافر الذي قال إن فضيلته الوحيدة هي إبقاء ذكرى كل ما أثر فيه حية، والذي كانت طريقته الوحيدة لقول شكراً ووداعاً هي من خلال هذا العمل السحري: تخزين كل ما أحبه في صمته.

ما وراء بناء الجملة

المرشد

كنت في منزل دون خوان في سونورا، غارقاً في نوم عميق على سريري، عندما أيقظني. لقد سهرت طوال الليل تقريباً، أفكر ملياً في المفاهيم التي شرحها لي.

قال بحزم، وبصوت أجش تقريباً، وهو يهزني من كتفيّ: "لقد استرحت بما فيه الكفاية". "لا تستسلم للإرهاق. إن إرهاقك، أكثر من مجرد إرهاق، هو رغبة في عدم التعرض للإزعاج. هناك شيء ما بداخلك يكره أن يتم إزعاجه. لكن الأهم هو أن تزيد من حدة ذلك الجزء منك حتى ينهار. هيا بنا في نزهة.

كان دون خوان محقاً. كان هناك جزء مني يشعر بالاستياء الشديد من أن يتم إزعاجه. أردت أن أنام لأيام ولا أفكر في مفاهيم دون خوان السحرية بعد الآن. رغماً عن إرادتي، نهضت وتبعته. كان دون خوان قد أعد وجبة مسبقاً، التهمتها كما لو أنني لم آكل منذ أيام، ثم خرجنا من المنزل واتجهنا شرقاً نحو الجبال. كنت في حالة ذهول لدرجة أنني لم ألاحظ أن الصباح الباكر قد حلّ حتى رأيت الشمس، التي كانت فوق سلسلة الجبال الشرقية مباشرة. أردت أن أقول لدون خوان إنني نمت طوال الليل دون أن أتحرك، لكنه أسكتني. قال إننا سنذهب في رحلة استكشافية إلى الجبال للبحث عن نباتات محددة.

"ماذا ستفعل بالنباتات التي ستجمعها يا دون خوان؟" سألته فور انطلاقنا.

قال مبتسماً: "إنها ليست مناسبة لي". "إنها لصديق لي، وهو عالم نباتات وصيدلي." يصنع منها جرعات سحرية.

"هل هو من قبيلة الياكي يا دون خوان؟ هل يعيش هنا في سونورا؟ سألت.

"لا، إنه ليس من قبيلة الياكي، وهو لا يعيش هنا في سونورا. ستقابله يوماً ما."

"هل هو ساحر يا دون خوان؟" أجاب
ببرود: "نعم، هو كذلك.

سألته حينها عما إذا كان بإمكاني أخذ بعض النباتات لتحديدها في الحديقة النباتية بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس.

"بالتأكيد، بالتأكيد!" قال.

لقد اكتشفت في الماضي أنه كلما قال "بالتأكيد"، لم يكن يعني ذلك. كان من الواضح أنه لم يكن لديه أي نية على الإطلاق لإعطائي أي عينات لتحديد هويتها. انتابني فضول شديد بشأن صديقه الساحر، وطلبت منه أن يخبرني المزيد عنه، وربما يصفه، ويخبرني أين يعيش وكيف التقى به.

"مهلاً، مهلاً، مهلاً!" قال دون خوان، كما لو كنت حصاناً. "انتظر، انتظر! من أنت؟ البروفيسور لوركا؟ هل تريد دراسة نظامه الإدراكي؟"

توغلنا في أعماق سفوح التلال القاحلة. سار دون خوان بخطى ثابتة لساعات. ظننت أن مهمة اليوم ستكون مجرد المشي. توقف أخيراً وجلس على الجانب المظلل من سفوح التلال.

قال دون خوان: "لقد حان الوقت لتبدأ في أحد أكبر مشاريع السحر". "ما هو مشروع السحر هذا الذي تتحدث عنه يا دون خوان؟" سألته.

قال: "يُطلق عليه اسم التلخيص". "اعتاد السحرة القدامى على تسميتها سرد أحداث حياتك، وبالنسبة لهم، بدأت كتقنية بسيطة، وجهاز لمساعدتهم في تذكر ما كانوا يفعلونه ويقولونه لتلاميذهم. بالنسبة لتلاميذهم، كانت للتقنية نفس القيمة: فقد سمحت لهم بتذكر ما قاله معلموهم وفعلوه لهم. لقد تطلب الأمر اضطرابات اجتماعية مروعة، مثل التعرض للغزو والهزيمة عدة مرات، قبل أن يدرك السحرة القدامى أن لتقنيتهم آثاراً بعيدة المدى.

"هل تقصد يا دون خوان الغزو الإسباني؟" سألت.

قال: "لا". "كان ذلك بمثابة تتويج للجهود المبذولة. كانت هناك اضطرابات أخرى قبل ذلك، أكثر تدميراً. عندما وصل الإسبان إلى هنا، لم يعد السحرة القدامى موجودين. كان أتباع أولئك الذين نجوا من اضطرابات أخرى حذرين للغاية في ذلك الوقت. كانوا يعرفون كيف يعتنون بأنفسهم. إنها تلك المجموعة الجديدة من السحرة الذين أعادوا تسمية تقنية السحرة القدامى *"التلخيص"*.

وتابع قائلاً: "هناك قيمة هائلة للوقت". "بالنسبة للسحرة بشكل عام، الوقت جوهري. التحدي الذي أواجهه هو أنه في وحدة زمنية قصيرة جدًا، يجب أن أحشر فيك كل ما يمكن معرفته عن السحر

كمسألة مجردة، ولكن لكي أفعل ذلك، عليّ أن أهيئ لك المساحة اللازمة."

"أي مساحة؟ عن ماذا تتحدث يا دون خوان؟"

وقال: "إن فرضية السحرة هي أنه من أجل إدخال شيء ما، يجب أن يكون هناك مكان لوضعه فيه". "إذا كنت ممتلئًا عن آخرك بأشياء الحياة اليومية، فلن يكون هناك متسع لأي شيء جديد. يجب بناء تلك المساحة. هل فهمت ما أعنيه؟ كان سحرة العصور القديمة يعتقدون أن تلخيص حياتك يصنع هذا الفضاء. إنه كذلك، وأكثر من ذلك بكثير، بالطبع.

وتابع قائلاً: "الطريقة التي يؤدي بها السحرة التلخيص رسمية للغاية". "يتضمن ذلك كتابة قائمة بجميع الأشخاص الذين قابلوهم، من الوقت الحاضر وحتى بداية حياتهم. بمجرد حصولهم على تلك القائمة، يأخذون الشخص الأول فيها ويتذكرون كل ما يمكنهم تذكره عن ذلك الشخص. وأعني كل شيء، كل تفصيل. من الأفضل استعراض الأحداث من الحاضر إلى الماضي، لأن ذكريات الحاضر تكون حاضرة، وبهذه الطريقة يتم صقل القدرة على التذكر. ما يفعله الممارسون هو التذكر والتنفس. يستنشقون ببطء وبتأنٍ، ويحركون رؤوسهم من اليمين إلى اليسار، في حركة بالكاد يمكن ملاحظتها، ثم يزفرون بنفس الطريقة.

وقال إن الشهيق والزفير يجب أن يكونا طبيعيين؛ فإذا كانا سريعين للغاية، فسيدخل المرء في شيء أسماه التنفس المرهق: وهو التنفس الذي يتطلب تنفسًا أبطأ بعد ذلك من أجل تهدئة العضلات.

"وماذا تريدني أن أفعل يا دون خوان بكل هذا؟" سألت.

قال: "ابدأ في إعداد قائمتك اليوم". "قسّمها حسب السنوات، حسب المهن، رتبها بأي ترتيب تريده، ولكن اجعلها متسلسلة، مع وضع أحدث شخص أولاً، وانتهِ بالأم والأب." ثم تذكر كل شيء عنهم. لا داعي للمزيد من الإطالة. مع الممارسة، ستدرك ما تفعله.

في زيارتي التالية لمنزله، أخبرت دون خوان أنني كنت أستعرض أحداث حياتي بدقة، وأنه كان من الصعب للغاية بالنسبة لي الالتزام بنظامه الصارم واتباع قائمتي بالأشخاص واحداً تلو الآخر. عادة ، أخذني تلخيصي في كل اتجاه. أترك الأحداث تحدد مسار ذكرياتي. ما فعلته، وهو أمر طوعي، هو الالتزام بوحدة زمنية عامة. على سبيل المثال، بدأت بالأشخاص في قسم الأنثروبولوجيا، لكنني تركت ذكرياتي تأخذني إلى أي مكان في الزمن، من الحاضر إلى اليوم الذي بدأت فيه الدراسة في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس.

أخبرت دون خوان أن هناك شيئًا غريبًا اكتشفته، كنت قد نسيته تمامًا، وهو أنني لم أكن أعرف بوجود جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس حتى ليلة واحدة عندما جاءت زميلة صديقتي في السكن الجامعي إلى لوس أنجلوس وقمنا باصطحابها من المطار. كانت ستدرس علم الموسيقى في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. وصلت طائرتها في وقت مبكر من المساء، وسألتني عما إذا كان بإمكاني اصطحابها إلى الحرم الجامعي حتى تتمكن من إلقاء نظرة على المكان الذي ستقضي فيه السنوات الأربع القادمة من حياتها. كنت أعرف مكان الحرم الجامعي، فقد مررت بسيارتي أمام مدخله على شارع صن سيت بوليفارد مرات لا تحصى في طريقي إلى الشاطئ. لكنني لم أكن قد دخلت الحرم الجامعي من قبل.

كان ذلك خلال عطلة الفصل الدراسي. أرشدنا الأشخاص القلائل الذين وجدناهم إلى قسم الموسيقى. كان الحرم الجامعي مهجوراً، لكن ما شاهدته شخصياً كان أروع شيء رأيته على الإطلاق. لقد كان منظراً مبهجاً لعيني. بدت المباني وكأنها تنبض بطاقة خاصة بها. ما كان من المفترض أن يكون زيارة سريعة جداً لقسم الموسيقى تحول إلى جولة ضخمة في الحرم الجامعي بأكمله. لقد وقعت في حب جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. ذكرت لدون خوان أن الشيء الوحيد الذي أفسد نشوتي هو انزعاج صديقتي من إصراري على التجول في الحرم الجامعي الضخم.

"ما الذي يمكن أن يكون موجوداً هنا بحق الجحيم؟" صرخت في وجهي احتجاجاً. "كأنك لم ترَ حرمًا جامعيًا في حياتك!" إذا رأيت واحداً، فقد رأيتهم جميعاً. أعتقد أنك تحاول فقط إثارة إعجاب صديقي بحساسيتك!

لم أكن كذلك، وأخبرتهم بشدة أنني كنت معجبًا حقًا بجمال محيطي. لقد شعرت بالكثير من الأمل في تلك المباني، والكثير من الوعود، ومع ذلك لم أستطع التعبير عن حالتي الذاتية.

قالت صديقتي وهي تضغط على أسنانها: "لقد قضيت معظم حياتي في المدرسة، وقد سئمت من ذلك!" لن يجد أحد أي شيء هنا! كل ما تجده هو كلام فارغ، ولا يُعدّونك حتى لتحمل مسؤولياتك في الحياة.

عندما ذكرت أنني أرغب في الالتحاق بالمدرسة هنا، ازداد غضبها.

"ابحث عن وظيفة!" صاحت. "انطلق وواجه الحياة من الثامنة إلى الخامسة، وتوقف عن هذا الهراء! هذه هي الحياة: وظيفة من الثامنة صباحاً إلى الخامسة مساءً، أربعون ساعة في الأسبوع! انظر ماذا يفعل بك! انظر إليّ - أنا الآن حاصل على تعليم عالٍ جداً، ومع ذلك فأنا غير مؤهل لأي وظيفة.

كل ما كنت أعرفه هو أنني لم أرَ مكاناً بهذه الروعة من قبل. لقد قطعت على نفسي وعداً حينها بأنني سأذهب إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، مهما حدث، مهما كانت الظروف. كانت رغبتي مرتبطة بي كلياً، ومع ذلك لم تكن مدفوعة بالحاجة إلى الإشباع الفوري. كان الأمر أقرب إلى الرهبة.

أخبرت دون خوان أن انزعاج صديقتي كان مزعجاً للغاية بالنسبة لي لدرجة أنه أجبرني على النظر إليها بنظرة مختلفة، وأنه على حد علمي، كانت تلك هي المرة الأولى التي يثير فيها تعليق ما رد فعل عميق كهذا في داخلي. رأيت جوانب من شخصية صديقتي لم أرها من قبل، جوانب أرعبتني بشدة.

قلت لدون خوان: "أعتقد أنني حكمت عليها بشكل سيء للغاية". "بعد زيارتنا للحرم الجامعي، افترقنا. كان الأمر كما لو أن جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس قد وقفت بيننا مثل إسفين. أعلم أن التفكير بهذه الطريقة غبي."

قال دون خوان: "هذا ليس غباءً". "لقد كان رد فعل صحيحاً تماماً. بينما كنت تمشي في الحرم الجامعي، أنا متأكد من أنك تعرضت لنوبة نية. كنت تنوي أن تكون هناك، وأي شيء يعارض ذلك كان عليك أن تتركه.

وتابع قائلاً: "لكن لا تبالغ". "لمسة المحاربين المسافرين خفيفةللغاية، على الرغم من أنها مزروعة. تبدأ يد المحارب المسافر كيد ثقيلة، قوية، حديدية، لكنها تصبح مثل يد شبح، يد مصنوعة من خيوط العنكبوت. المحاربون المسافرون لا يتركون آثاراً ولا بصمات.

هذا هو التحدي الذي يواجه المحاربين المسافرين."

لقد جعلتني تعليقات دون خوان أغرق في حالة عميقة من لوم الذات، لأنني كنت أعرف، من خلال القليل الذي رويته، أنني كنت شديد القسوة، ومهووسًا، ومتسلطًا. أخبرت دون خوان عن أفكاري.

قال دون خوان: "تكمن قوة التلخيص في أنه يثير كل قمامة حياتنا ويخرجها إلى السطح".

ثم قام دون خوان بتوضيح تعقيدات الوعي والإدراك، والتي كانت أساس التلخيص. بدأ حديثه بالقول إنه سيقدم مجموعة من المفاهيم التي لا ينبغي لي أن أعتبرها نظريات سحرة تحت أي ظرف من الظروف، لأنها كانت مجموعة صاغها شيوخ المكسيك القديمة نتيجة لرؤية الطاقة مباشرة وهي تتدفق في الكون. لقد حذرني من أنه سيقدم لي وحدات هذا الترتيب دون أي محاولة لتصنيفها أو ترتيبها وفقًا لأي معيار محدد مسبقًا.

وتابع قائلاً: "أنا لست مهتماً بالتصنيفات". "لقد كنت تصنف كل شيء طوال حياتك. الآن ستُجبر

على الابتعاد عن التصنيفات. في ذلك اليوم الآخر، عندما سألتك عما إذا كنت تعرف أي شيء عن السحب، أعطيتني أسماء جميع السحب ونسبة الرطوبة التي يمكن توقعها من كل منها. كنت خبيرًا حقيقيًا في التنبؤات الجوية. لكن عندما سألتك عما إذا كنت تعرف ما يمكنك فعله بالغيوم شخصياً، لم يكن لديك أدنى فكرة عما كنت أتحدث عنه.

وتابع قائلاً: "للتصنيفات عالمها الخاص". "بعد أن تبدأ في تصنيف أي شيء، يصبح التصنيف حيًا، ويتحكم بك. لكن بما أن التصنيفات لم تبدأ أبدًا كأمور تمنح الطاقة، فإنها تبقى دائمًا مثل جذوع الأشجار الميتة. إنها ليست أشجاراً؛ إنها مجرد جذوع أشجار."

وأوضح أن سحرة المكسيك القديمة رأوا أن الكون برمته يتكون من حقول طاقة على شكل خيوط مضيئة. رأوا

الملايين منها أينما اتجه نظرهم. كما رأوا أن حقول الطاقة تلك تنظم نفسها في تيارات من الألياف المضيئة، وهي تيارات تمثل قوى ثابتة ودائمة في الكون، وأن التيار أو سلسلة الخيوط المرتبطة بالتلخيص أطلق عليها هؤلاء السحرة اسم بحر الوعي المظلم، وأيضًا النسر.

وذكر أن هؤلاء السحرة اكتشفوا أيضاً أن كل مخلوق في الكون مرتبط ببحر الوعي المظلم عند نقطة مستديرة من اللمعان كانت واضحة عندما تم إدراك تلك المخلوقات على أنها طاقة. قال دون خوان، في تلك النقطة من الإشراق، والتي أطلق عليها سحرة المكسيك القديمة اسم نقطة التجميع، إن الإدراك يتم تجميعه بواسطة جانب غامض من بحر الوعي المظلم.

أكد دون خوان أنه عند نقطة تجمع البشر، تتقارب مليارات من حقول الطاقة من الكون بأسره، على شكل خيوط مضيئة، وتمر من خلالها. يتم تحويل مجالات الطاقة هذه إلى بيانات حسية، ثم يتم تفسير البيانات الحسية وإدراكها على أنها العالم الذي نعرفه. وأوضح دون خوان كذلك أن ما يحول الألياف المضيئة إلى بيانات حسية هو بحر الوعي المظلم. يرى السحرة هذا التحول ويطلقون عليه اسم توهج الوعي، وهو بريق يمتد مثل هالة حول نقطة التجمع. لقد حذرني حينها من أنه سيدلي بتصريح كان، في فهم السحرة، أساسياً لفهم نطاق التلخيص.

وأكد بشدة على كلماته، قائلاً إن ما نسميه الحواس في الكائنات الحية ليس سوى درجات من الوعي. وأكد أنه إذا قبلنا أن الحواس هي بحر الوعي المظلم، فعلينا أن نعترف بأن التفسير الذي تقدمه الحواس للبيانات الحسية هو أيضاً بحر الوعي المظلم. وأوضح بإسهاب أن مواجهة العالم من حولنا بالشروط التي نواجهه بها هي نتيجة نظام التفسير البشري الذي يمتلكه كل إنسان. وقال أيضاً إن كل كائن حي

يجب أن يمتلك نظام تفسير يسمح له بالعمل في محيطه.

وتابع قائلاً: "لقد رأى السحرة الذين أتوا بعد الاضطرابات المروعة التي أخبرتك عنها أنه في لحظة الموت، ابتلع بحر الوعي المظلم، إذا جاز التعبير، من خلال نقطة التجمع، وعي الكائنات الحية". كما رأو أن بحر الوعي المظلم قد تردد للحظة، لنقل، عندما واجه السحرة الذين قاموا بسرد قصص حياتهم. دون علمهم، قام البعض بذلك بشكل كامل لدرجة أن بحر الوعي المظلم أخذ وعيهم في شكل تجارب حياتهم، لكنه لم يمس قوة حياتهم. لقد اكتشف السحرة حقيقة هائلة عن قوى الكون: إن بحر الوعي المظلم لا يريد سوى تجاربنا الحياتية، وليس قوة حياتنا.

كانت مقدمات شرح دون خوان غير مفهومة بالنسبة لي. أو ربما يكون من الأدق القول إنني كنت مدركًا بشكل غامض ولكن بعمق لمدى فعالية مقدمات تفسيره.

وتابع دون خوان قائلاً: "يعتقد السحرة أنه عندما نعيد تلخيص حياتنا، فإن كل الحطام، كما أخبرتك، يطفو على السطح". ندرك تناقضاتنا وتكراراتنا، لكن شيئًا ما بداخلنا يبدي مقاومة هائلة لإعادة التلخيص يقول السحرة إن الطريق لا يصبح خالياً إلا بعد اضطراب هائل، بعد ظهور ذكرى حدث يهز أركاننا بوضوحه المرعب للتفاصيل على شاشتنا. إنه الحدث الذي يسحبنا إلى اللحظة الفعلية التي عشناها. يُطلق السحرة على ذلك الحدث اسم "المرشد"، لأنه منذ ذلك الحين، يتم استعادة كل حدث نتطرق إليه، وليس مجرد تذكره.

وتابع دون خوان قائلاً: "المشي دائماً ما يثير الذكريات". "كان سحرة المكسيك القديمة يعتقدون أن كل ما نعيشه نخزنه كإحساس في الجزء الخلفي من الساقين. كانوا يعتبرون الجزء الخلفي من الساقين بمثابة مستودع لتاريخ الإنسان الشخصي. فلنذهب الآن في نزهة على التلال." مشينا حتى كاد الظلام أن يحل.

قال دون خوان عندما عدنا إلى منزله: "أعتقد أنني جعلتك تمشي لفترة كافية لتكون مستعدًا لبدء مناورة السحرة هذه للعثور على مرشد: حدث في حياتك ستتذكره بوضوح شديد لدرجة أنه سيكون بمثابة ضوء كاشف لإضاءة كل شيء آخر في تلخيصك بنفس الوضوح أو ما يماثله". افعل ما يسميه السحرة إعادة تلخيص أجزاء اللغز. سيقودك شيء ما إلى تذكر الحدث الذي سيكون بمثابة مرشدك. تركني وحدي، موجهاً لي تحذيراً أخيراً. قال: "ابذل قصارى جهدك". "ابذل قصارى جهدك." صمتت للحظة، ربما بسبب الصمت المحيط بي. شعرت حينها باهتزاز، نوع من الصدمة في صدري. واجهت صعوبة في التنفس، ولكن فجأة انفتح شيء ما في صدري سمح لي بأخذ نفس عميق، وانفجرت في ذاكرتي صورة كاملة لحدث منسي من طفولتي، كما لو كان محتجزًا ثم أُطلق سراحه فجأة.

كنت في استوديو جدي، حيث كان لديه طاولة بلياردو، وكنت ألعب البلياردو معه. كان عمري حينها تسع سنوات تقريباً. كان جدي لاعبًا ماهرًا للغاية، وقد علمني بشكل قهري كل حركة يعرفها حتى أصبحت جيدًا بما يكفي لخوض مباراة جدية معه. قضينا ساعات لا حصر لها نلعب البلياردو. أصبحت بارعاً جداً في ذلك لدرجة أنني هزمته في أحد الأيام. ومنذ ذلك اليوم، أصبح عاجزاً عن الفوز. في كثير من الأحيان

كنت أتعمد الخسارة في المباراة، فقط لأكون لطيفاً معه، لكنه كان يعلم ذلك وكان يغضب مني بشدة. في إحدى المرات، غضب بشدة لدرجة أنه ضربني على رأسي بعصا البلياردو.

مما أثار استياء جدي وفرحه في آن واحد، أنه بحلول الوقت الذي بلغت فيه التاسعة من عمري، كنت أستطيع أن أصنع ضربة تلو الأخرى دون توقف. لقد شعر بالإحباط الشديد ونفد صبره في إحدى المباريات معي لدرجة أنه ألقى بعصاه وقال لي أن ألعب بمفردي. إن طبيعتي القهرية جعلتني قادراً على التنافس مع نفسي والعمل على نفس المسرحية مراراً وتكراراً حتى أتقنتها تماماً.

في أحد الأيام، جاء رجل مشهور في المدينة بعلاقاته في مجال القمار، وهو صاحب نادٍ للبلياردو، لزيارة جدي. كانوا يتحدثون ويلعبون البلياردو عندما دخلت الغرفة بالصدفة. حاولت التراجع على الفور، لكن جدي أمسك بي وسحبني إلى الداخل.

قال للرجل: "هذا حفيدي".

قال الرجل: "سُررتُ بلقائك". نظر إليّ بصرامة، ثم مدّ يده التي كانت بحجم رأس شخص عادي.

لقد شعرت بالرعب. أخبرتني ضحكته الهائلة أنه كان يدرك انزعاجي. أخبرني أن اسمه فاليلو كويروغا، فتمتمت باسمي.

كان طويل القامة جداً، وكان أنيقاً للغاية في ملابسه. كان يرتدي بدلة زرقاء مخططة ذات صفين من الأزرار مع بنطال أنيق بقصة ضيقة. لا بد أنه كان في أوائل الخمسينيات من عمره آنذاك، لكنه كان رشيقاً وذا لياقة بدنية جيدة باستثناء انتفاخ طفيف في منطقة بطنه. لم يكن سميناً؛ بل بدا وكأنه يحرص على الظهور بمظهر رجل شبعان ولا يحتاج إلى أي شيء. كان معظم الناس في مسقط رأسي نحيلين للغاية. كانوا أناساً يعملون بجد لكسب لقمة العيش وليس لديهم وقت للمجاملات. أما فاليلو كويروغا فبدا على النقيض من ذلك. كان سلوكه برمته سلوك رجل لا يملك وقتاً إلا للأمور اللطيفة.

كان وسيماً. كان وجهه عادياً وحليقاً جيداً، وعيناه زرقاوان لطيفتان. كان يتمتع بهيبة وثقة الطبيب. اعتاد الناس في مدينتي أن يقولوا إنه قادر على جعل أي شخص يشعر بالراحة، وأنه كان ينبغي أن يكون كاهناً أو محامياً أو طبيباً بدلاً من مقامر. وكانوا يقولون أيضاً إنه كان يكسب من المقامرة أكثر مما يكسبه جميع الأطباء والمحامين في المدينة مجتمعين من العمل.

كان شعره أسود اللون، وممشطاً بعناية. كان من الواضح أنه يتناقص بشكل ملحوظ. حاول إخفاء انحسار خط شعره عن طريق تمشيط شعره فوق جبهته. كان يتمتع بفك مربع وابتسامة آسرة للغاية. كان لديه أسنان كبيرة وبيضاء، وكان يعتني بها جيداً، وهو أمر نادر للغاية في منطقة كان فيها تسوس الأسنان منتشراً بشكل كبير. ومن السمات الأخرى اللافتة للنظر في فاليلو كويروغا، بالنسبة لي، قدميه الضخمتين وحذائه المصنوع يدويًا من الجلد الأسود اللامع. لقد أذهلني أن حذاءه لم يصدر أي صرير على الإطلاق أثناء سيره ذهاباً وإيابا في الغرفة. كنت معتاداً على سماع اقتراب جدي من خلال صرير نعال حذائه.

قال جدي لفاليلو كويروغا ببرود: "حفيدي يلعب البلياردو بشكل جيد للغاية". "لماذا لا أعطيه عصا البلياردو وأدعه يلعب معك بينما

أشاهد؟""

"هل يلعب هذا الطفل البلياردو؟" سأل الرجل الضخم جدي ضاحكاً.

"أوه، إنه يفعل ذلك"، أكد له جدي. "بالطبع، ليس بنفس براعتك يا فاليلو. لماذا لا تجربه؟ ولجعل الأمر مثيراً للاهتمام بالنسبة لك، حتى لا تتصرف بتعالٍ تجاه حفيدي، فلنراهن بمبلغ صغير من المال. ما رأيك لو راهنّا بهذا المبلغ؟"

وضع رزمة سميكة من الأوراق النقدية المجعدة على الطاولة وابتسم لفاليلو كويروغا، وهو يهز رأسه من جانب إلى آخر كما لو كان يتحدى الرجل الضخم لقبول رهانه.

"يا إلهي، كل هذا، أليس كذلك؟" قال فاليلو كويروغا وهو ينظر إليّ بتساؤل. ثم فتح محفظته وأخرج منها بعض الأوراق النقدية المطوية بعناية. كان هذا، بالنسبة لي، تفصيلاً آخر مثيراً للدهشة. كانت عادة جدي أن يحمل نقوده في كل جيب من جيوبه، وكلها مجعدة. عندما كان يحتاج إلى دفع ثمن شيء ما، كان عليه أن يرتب الأوراق النقدية لكي يتمكن من عدها.

لم يقل فاليلو كويروغا ذلك، لكنني كنت أعرف أنه يبدو وكأنه قاطع طريق. ابتسم لجدي، ومن الواضح أنه وضع نقوده على الطاولة احتراماً له. قام جدي، بصفته الحكم، بتحديد عدد معين من الكرات المرتدة في اللعبة، ثم ألقى عملة معدنية لمعرفة من سيبدأ أولاً. فاز فاليلو كويروغا.

"من الأفضل أن تبذل كل ما لديك، دون تردد"، هكذا حثه جدي. "لا تتردد في سحق هذا الأحمق والفوز بأموالي!"

لعب فاليلو كويروغا، متبعاً نصيحة جدي، بكل ما أوتي من قوة، لكنه في إحدى اللحظات أخطأ في ضربة ارتداد الكرة بفارق ضئيل. أخذت العصا. ظننت أنني سأفقد الوعي، لكن رؤية فرحة جدي - كان يقفز لأعلى ولأسفل - هدأتني، بالإضافة إلى ذلك، أزعجني رؤية فاليلو كويروغا على وشك أن ينفجر من الضحك عندما رأى الطريقة التي أمسكت بها عصا البلياردو. لم أستطع الانحناء فوق الطاولة، كما هو معتاد في لعبة البلياردو، بسبب طولي. لكن جدي، بصبر وتصميم شديدين، علمني طريقة بديلة للعب. بمدّ ذراعي بالكامل إلى الخلف، أمسكت عصا البلياردو فوق

كتفيّ تقريبًا، إلى الجانب.

"ماذا يفعل عندما يضطر للوصول إلى منتصف الطاولة؟" سأل فاليلو كويروغا وهو يضحك.

قال جدي ببرود: "إنه معلق على حافة الطاولة". "هذا مسموح، كما تعلم."

جاء جدي إلي وهمس من بين أسنانه أنه إذا حاولت أن أكون مهذباً وخسرت فسوف يكسر كل العصي الموجودة على رأسي. كنت أعرف أنه لم يكن يقصد ذلك؛ كانت هذه مجرد طريقته للتعبير عن ثقته بي.

لقد فزت بسهولة. كان جدي سعيدًا للغاية، ولكن الغريب في الأمر أن فاليلو كويروغا كان كذلك أيضًا. ضحك وهو يدور حول طاولة البلياردو، يصفع حوافها. أثنى عليّ جدي ثناءً بالغاً. كشف لكويروغا عن أفضل نتيجة لي، ومازح قائلاً إنني تفوقت لأنه وجد طريقة لإغرائي بالتدرب: القهوة مع المعجنات الدنماركية.

"لا تقل ذلك، لا تقل ذلك!" ظل كويروغا يكرر ذلك. قال وداعاً؛ واستلم جدي أموال الرهان، وتم نسيان الحادثة. وعدني جدي بأن يأخذني إلى مطعم ويشتري لي

أفضل وجبة في المدينة، لكنه لم يفعل ذلك أبداً. كان بخيلاً جداً؛ وكان معروفاً بأنه مبذر للغاية مع النساء فقط.

بعد يومين، جاء إليّ رجلان ضخمان ينتميان إلى فاليلو كويروغا في الوقت الذي كنت أخرج فيه من المدرسة وأغادر.

قال أحدهم بنبرة خشنة: "فاليلو كويروغا يريد رؤيتك". "يريد منك أن تذهب إلى منزله وتتناول معه بعض القهوة والمعجنات الدنماركية."

لو لم يقل القهوة والمعجنات الدنماركية، لربما كنت هربت منهم. تذكرت حينها أن جدي أخبر فاليلو كويروغا أنني سأبيع روحي مقابل القهوة والمعجنات الدنماركية. ذهبت معهم بكل سرور.

لكني لم أستطع المشي بنفس سرعتهم، لذلك قام أحدهم، واسمه غييرمو فالكون، بحملي بين ذراعيه الضخمتين. ضحك من بين أسنانه المعوجة.

قال: "من الأفضل أن تستمتع بالرحلة يا فتى". كانت رائحة أنفاسه كريهة للغاية. "هل سبق لأحد أن حملك؟ بالنظر إلى طريقة تمايلك، لا!" ضحك ضحكة بشعة.

لحسن الحظ، لم يكن منزل فاليلو كويروغا بعيدًا جدًا عن المدرسة. أوصلني السيد فالكون إلى أريكة في مكتب. كان فاليلو كويروغا هناك، جالساً خلف مكتب ضخم. نهض وصافحني. أحضر لي على الفور بعض القهوة والمعجنات اللذيذة، وجلسنا هناك نتحدث بودّ عن مزرعة الدجاج الخاصة بجدي. سألني عما إذا كنت أرغب في تناول المزيد من المعجنات، فقلت إنني لا أمانع في ذلك. ضحك، ثم أحضر لي بنفسه صينية كاملة من المعجنات اللذيذة بشكل لا يصدق من الغرفة المجاورة.

بعد أن تناولت الطعام بشراهة، سألني بأدب عما إذا كنت سأفكر في القدوم إلى مكان البلياردو الخاص به في ساعات الليل المتأخرة للعب بضع مباريات ودية مع بعض الأشخاص الذين يختارهم. ذكر عرضاً أن مبلغاً كبيراً من المال سيُستخدم في الأمر. لقد أعرب صراحة عن ثقته في مهاراتي، وأضاف أنه سيدفع لي نسبة مئوية من الأموال التي أفوز بها مقابل وقتي وجهدي. وذكر كذلك أنه يعرف عقلية عائلتي؛ فهم كانوا سيجدون أنه من غير اللائق أن يعطيني المال، حتى وإن كان ذلك أجراً. لذلك وعد بوضع المال في حساب خاص لي في البنك، أو بشكل أكثر عملية، أنه سيغطي أي عملية شراء أقوم بها في أي من المتاجر في المدينة، أو الطعام الذي أتناوله في أي مطعم في المدينة.

لم أصدق كلمة واحدة مما كان يقوله. كنت أعرف أن فاليلو كويروغا كان محتالاً، ومبتزاً. لكنني أعجبت بفكرة لعب البلياردو مع أشخاص لا أعرفهم، وعقدت معه صفقة.

"هل يمكنك أن تعطيني بعض القهوة والمعجنات الدنماركية مثل تلك التي أعطيتني إياها اليوم؟" قلت.

أجاب: "بالتأكيد يا بني". "إذا أتيت لتلعب معي، فسأشتري لك المخبز! سأطلب من الخباز أن يخبزها خصيصاً لك. صدقني."

حذرتُ فاليلو كويروغا من أن العائق الوحيد هو عدم قدرتي على الخروج من منزلي؛ كان لديّ الكثير من الخالات اللواتي يراقبنني عن كثب، بالإضافة إلى

أن غرفة نومي كانت في الطابق الثاني.

وأكد لي فاليلو كويروغا: "هذه ليست مشكلة". "أنت صغير جدًا. سيلتقطك السيد فالكون إذا قفزت من نافذتك إلى أحضانه. إنه ضخم كبيت! أنصحك بالذهاب إلى الفراش مبكراً الليلة. سيوقظك السيد فالكون عن طريق التصفير ورمي الحجارة على نافذتك. لكن عليك أن تحذر! إنه رجل متسرع."

عدت إلى المنزل وسط إثارة مذهلة. لم أستطع النوم. كنت مستيقظاً تماماً عندما سمعت السيد فالكون يصفر ويرمي حصى صغيرة على ألواح زجاج النافذة. فتحت النافذة. كان السيد فالكون أسفل مني مباشرة، في الشارع.

قال لي بصوت مكتوم، حاول أن يحوله إلى همس عالٍ: "اقفز إلى أحضاني يا صغيري". "إذا لم تصوب نحو ذراعي، فسأطرحك أرضاً وستموت. تذكر ذلك. لا تجعلني أركض هنا وهناك. صوب نحو ذراعي فقط.

إقفز! إقفز!"

فعلت ذلك، وأمسك بي بسهولة كما لو كان يمسك بكيس من القطن. أنزلني أرضاً وقال لي أن أركض. قال إنني طفل استيقظ من نوم عميق، وأنه كان عليه أن يجعلني أركض حتى أكون مستيقظًا تمامًا بحلول الوقت الذي أصل فيه إلى بيت البلياردو.

لعبتُ تلك الليلة مع رجلين، وفزتُ في المباراتين. لقد تناولت ألذ أنواع القهوة والمعجنات التي يمكن تخيلها. شخصياً، كنت في غاية السعادة. كانت الساعة حوالي السابعة صباحاً عندما عدت إلى المنزل. لم يلاحظ أحد غيابي. حان وقت الذهاب إلى المدرسة. من الناحية العملية، كان كل شيء طبيعياً باستثناء حقيقة أنني كنت متعباً للغاية لدرجة أنني لم أستطع إبقاء عيني مفتوحتين طوال اليوم.

منذ ذلك اليوم، كان فاليلو كويروغا يرسل السيد فالكون ليصطحبني مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وكنت أفوز في كل لعبة كان يجبرني على لعبها. ووفاءً بوعده، دفع ثمن كل ما اشتريته، بما في ذلك وجبات الطعام في مطعمي الصيني المفضل، حيث كنت أذهب إليه يومياً. في بعض الأحيان، كنت أدعو أصدقائي، الذين كنت أحرجهم بشدة بالخروج من المطعم وهم يصرخون عندما يحضر النادل الفاتورة. لقد اندهشوا من حقيقة أنهم لم يُقتادوا إلى الشرطة مطلقاً بسبب تناولهم الطعام دون دفع ثمنه.

ما كان بمثابة محنة بالنسبة لي هو أنني لم أتصور قط أنني سأضطر إلى التعامل مع آمال وتوقعات جميع الأشخاص الذين راهنوا عليّ. لكن المحنة الكبرى حدثت عندما تحدى لاعب ماهر من مدينة مجاورة فاليلو كويروغا ودعم تحديه برهان ضخم. كانت ليلة المباراة ليلة مشؤومة. مرض جدي ولم يستطع النوم. كانت العائلة بأكملها في حالة من الفوضى. يبدو أن أحداً لم يذهب إلى الفراش. شككت في إمكانية تسللي من غرفة نومي، لكن صفير السيد فالكون وارتطام الحصى بزجاج نافذتي كانا ملحين للغاية لدرجة أنني غامرت وقفزت من نافذتي إلى أحضان السيد فالكون.

بدا وكأن كل رجل في المدينة قد تجمع في مكان البلياردو. وجوهٌ مُعذّبةٌ توسّلت إليّ بصمتٍ ألا أخسر. أكد لي بعض الرجال بجرأة أنهم راهنوا بمنازلهم وكل ممتلكاتهم. قال أحد الرجال بنبرة شبه مازحة إنه راهن بزوجته؛ إذا لم أفز، فسيكون ديوثاً في تلك الليلة، أو قاتلاً. لم يحدد ما إذا كان يقصد أنه سيقتل زوجته حتى لا يكون ديوثاً، أو أنه سيقتلني أنا لخسارتي في اللعبة.

يسير فاليلو كيروجا ذهابًا وإيابًا. لقد استأجر مدلكاً لتدليكي. أرادني أن أكون مسترخيا. وضع المدلك مناشف ساخنة على ذراعي ومعصمي ومناشف باردة على جبهتي. ألبسني أكثر الأحذية راحةً ونعومةً التي ارتديتها على الإطلاق. كانت أحذيتهم ذات كعوب عسكرية صلبة ودعامات لقوس القدم. بل إن فاليلو كويروغا زودني بقبعة بيريه لمنع شعري من السقوط على وجهي، بالإضافة إلى بنطال فضفاض مزود بحزام.

كان نصف الأشخاص المحيطين بطاولة البليارد غرباء من مدينة أخرى. حدقوا بي بغضب. لقد منحوني شعوراً بأنهم يريدون موتي.

قام فاليلو كويروغا برمي قطعة نقدية لتحديد من سيبدأ أولاً. كان خصمي برازيلياً من أصل صيني، شاباً، ذو وجه مستدير، أنيقاً جداً وواثقاً من نفسه. بدأ أولاً، وحقق عددًا هائلاً من الكرات المرتدة. عرفت من لون وجهه أن فاليلو كويروغا كان على وشك الإصابة بنوبة قلبية، وكذلك كان حال الأشخاص الآخرين الذين راهنوا بكل ما يملكون عليّ.

لقد لعبت بشكل جيد للغاية في تلك الليلة، وعندما اقتربت من عدد الكرات التي سجلها الرجل الآخر، بلغ توتر أولئك الذين راهنوا علي ذروته. كان فاليلو كويروغا هو الأكثر هستيريًا بينهم جميعًا. صرخ في وجه الجميع

وطالب بفتح النوافذ لأن دخان السجائر جعل الهواء غير قابل للتنفس بالنسبة لي. كان يريد من المدلك أن يريح ذراعي وكتفي. وأخيراً، اضطررت إلى إيقاف الجميع، وبسرعة كبيرة، حققت النقاط الثماني التي كنت أحتاجها للفوز. كانت نشوة أولئك الذين راهنوا عليّ لا توصف. لم أكن أعي كل ذلك، فقد كان الصباح قد حل بالفعل وكان عليهم أن يأخذوني إلى المنزل على عجل.

لم يكن لإرهاقي في ذلك اليوم حدود. بكل لطف، لم يرسل فاليلو كويروغا في طلبي لمدة أسبوع كامل. لكن في إحدى الظهيرات، جاء السيد فالكون ليصطحبني من المدرسة إلى بيت البلياردو. كان فاليلو كويروغا جادًا للغاية. لم يعرض عليّ حتى القهوة أو المعجنات الدنماركية. أخرج الجميع من

مكتبه ودخل مباشرة في صلب الموضوع. سحب كرسيه ليقترب مني.

قال بجدية بالغة: "لقد وضعت الكثير من المال في البنك من أجلك". "أنا صادق فيما وعدتك به. أعدك بأنني سأعتني بك دائماً.

أنت تعلم ذلك! الآن، إذا فعلت ما سأطلب منك فعله، فسوف تجني الكثير من المال لدرجة أنك لن تضطر إلى العمل يوماً واحداً في حياتك. أريدك أن تخسر مباراتك القادمة بفارق نقطة واحدة. أعلم أنك تستطيع فعل ذلك. لكنني أريدك أن تخطئ بفارق ضئيل للغاية. كلما كان الأمر أكثر إثارة، كان ذلك أفضل."

لقد كنت مذهولاً. كل هذا كان غير مفهوم بالنسبة لي. كرر فاليلو كويروغا طلبه وأوضح كذلك أنه سيراهن بكل ما يملك ضدي بشكل مجهول، وأن هذه هي طبيعة اتفاقنا الجديد.

قال: "لقد كان السيد فالكون يحرسك منذ شهور". "كل ما أحتاج أن أخبرك به هو أن السيد فالكون يستخدم كل قوته لحمايتك، لكنه يستطيع أن يفعل العكس بنفس القوة."

لم يكن من الممكن أن يكون تهديد فاليلو كويروغا أكثر وضوحاً. لا بد أنه رأى على وجهي الرعب الذي شعرت به، لأنه استرخى وضحك.

"أوه، لكن لا تقلق بشأن أشياء كهذه،" قال مطمئناً، "لأننا إخوة."

كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أجد فيها نفسي في موقف لا يُطاق. أردت بكل قوتي أن أهرب من فاليلو كويروغا، من الخوف

الذي أثاره في نفسي. لكن في الوقت نفسه، وبنفس القوة، أردت البقاء؛ أردت سهولة شراء أي شيء أريده من أي متجر، وقبل كل شيء، سهولة تناول الطعام في أي مطعم من اختياري، دون دفع أي شيء. لكنني لم أواجه قط خيار الاختيار بين هذا أو ذاك.

بشكل غير متوقع، على الأقل بالنسبة لي، انتقل جدي إلى منطقة أخرى بعيدة جداً. كان الأمر كما لو أنه كان يعلم ما يجري، فأرسلني قبل الجميع. شككت في أنه كان يعلم بالفعل ما كان يحدث. بدا أن إبعادي كان أحد تصرفاته البديهية المعتادة. أعادتني عودة دون خوان إلى الواقع بعد أن كنت غارقاً في ذكرياتي. لقد فقدت الإحساس بالوقت. كان من المفترض أن أكون جائعاً جداً، لكنني لم أكن جائعاً على الإطلاق. كنتُ أشعر بطاقة عصبية شديدة. أشعل دون خوان فانوسًا يعمل بالكيروسين وعلقه على مسمار في الحائط. كان ضوءه الخافت يلقي بظلال غريبة راقصة في الغرفة. استغرق الأمر لحظة حتى تعتاد عيناي على شبه الظلام. ثم دخلت في حالة من الحزن العميق. كان شعوراً غريباً بالانفصال، وشوقاً عميقاً نابعاً من ذلك الظلام الجزئي، أو ربما من الإحساس بالوقوع في الفخ. كنت متعباً للغاية لدرجة أنني أردت المغادرة، ولكن في الوقت نفسه، وبنفس القوة، أردت البقاء.

لقد منحني صوت دون خوان قدراً من السيطرة. بدا وكأنه يعرف سبب اضطرابي وعمقه، وقام بتعديل نبرة صوته لتناسب الموقف. ساعدتني حدة نبرته على السيطرة على شيء كان من الممكن أن يتحول بسهولة إلى رد فعل هستيري تجاه التعب والتحفيز العقلي.

وقال: "إن سرد الأحداث أمر سحري بالنسبة للسحرة". "الأمر لا يقتصر على سرد القصص فقط. إنه رؤية النسيج الكامن وراء الأحداث. هذا هو السبب في أن إعادة سرد الأحداث أمر بالغ الأهمية.

بناءً على طلبه، أخبرت دون خوان بالحدث الذي تذكرته.

قال: "يا له من أمر مناسب"، ثم ضحك بسعادة. "التعليق الوحيد الذي يمكنني تقديمه هو أن المحاربين المسافرين يتأقلمون مع الظروف. يذهبون حيثما تأخذهم نزواتهم. تكمن قوة المحاربين المسافرين في اليقظة، وفي الحصول على أقصى تأثير بأقل قدر من الاندفاع. وفوق كل ذلك، تكمن قوتهم في عدم التدخل. للأحداث قوة وجاذبية خاصة بها، والمسافرون مجرد مسافرين. كل شيء من حولهم مخصص لأعينهم فقط. وبهذه الطريقة،

يقوم المسافرون بتكوين معنى كل موقف، دون أن يسألوا أبداً كيف حدث ذلك بهذه الطريقة أو تلك.

وتابع قائلاً: "لقد تذكرت اليوم حدثاً يلخص حياتك بأكملها". "دائماً ما تواجه موقفاً هو نفسه الموقف الذي لا تتمكن من حله أبداً. لم يكن عليك حقًا أن تختار ما إذا كنت ستقبل أو ترفض صفقة فاليلو كويروغا الملتوية.

وتابع قائلاً: "إن اللانهائية تضعنا دائمًا في هذا الموقف الرهيب المتمثل في الاضطرار إلى الاختيار. "نريد اللانهائية، ولكن في الوقت نفسه، نريد الهروب منها. تريد أن تطلب مني أن أذهب وأقفز في البحيرة، ولكن في الوقت نفسه أنت مضطر للبقاء. سيكون من الأسهل عليك بشكل لا يُصدق أن تُجبر على البقاء."

التفاعل بين الطاقة في الأفق

جلب وضوح المرشد زخمًا جديدًا لتلخيصي. حلّت حالة مزاجية جديدة محل الحالة القديمة. ومنذ ذلك الحين، بدأت أتذكر أحداث حياتي بوضوح يثير الجنون. كان الأمر كما لو أن حاجزاً قد بُني بداخلي أبقاني متمسكاً بشدة بذكريات ضئيلة وغير واضحة، ثم قام المرشد بتحطيمه. كانت قدرتي على التذكر بالنسبة لي، قبل ذلك الحدث، مجرد وسيلة غامضة للإشارة إلى الأشياء التي حدثت، ولكني كنت أرغب في معظم الأوقات في نسيانها. بصراحة، لم يكن لدي أي اهتمام على الإطلاق بتذكر أي شيء من حياتي. لذلك، لم أر أي فائدة على الإطلاق في هذه الممارسة العقيمة للتلخيص، والتي فرضها دون خوان عليّ عمليًا. بالنسبة لي، كان الأمر بمثابة عمل روتيني أرهقني على الفور ولم يفعل شيئًا سوى إظهار عدم قدرتي على التركيز.

ومع ذلك، فقد قمت بإعداد قوائم بالأشخاص على أكمل وجه، وانخرطت في جهد عشوائي لتذكر تفاعلاتي معهم بشكل شبه كامل. لم يثنني عدم وضوحي في تسليط

الضوء على هؤلاء الأشخاص. لقد أديت ما اعتبرته واجبي، بغض النظر عن شعوري الحقيقي. مع الممارسة، تحسن وضوح ذاكرتي بشكل ملحوظ. لقد تمكنت من الانخراط، إن صح التعبير، في أحداث مختارة معينة بقدر كبير من الحماس الذي كان مخيفاً ومجزياً في آن واحد. بعد أن قدم لي دون خوان فكرة المرشد، أصبحت قوة ذاكرتي شيئًا ليس لدي اسم له.

باتباع قائمة الأشخاص الخاصة بي، جعلت التلخيص رسمي للغاية وملح، بالطريقة التي أرادها دون خوان. لكن من وقت لآخر، كان شيء ما بداخلي ينفلت، شيء ما يجبرني على التركيز على أحداث لا علاقة لها بقائمتي، أحداث كان وضوحها مثيراً للجنون لدرجة أنني كنت عالقاً فيها ومنغمساً فيها، ربما بشكل أكثر حدة مما كنت عليه عندما عشت التجارب نفسها. في كل مرة ألخص فيها بهذه الطريقة، كان لدي درجة من الانفصال سمحت لي برؤية أشياء تجاهلتها عندما كنت حقًا في خضمها.

أول مرة هزتني فيها ذكرى حدث ما من الأعماق كانت بعد أن ألقيت محاضرة في إحدى الكليات في ولاية أوريغون. أخذني الطلاب المسؤولون عن تنظيم المحاضرة أنا وصديق آخر لي من طلاب الأنثروبولوجيا إلى منزل لقضاء الليلة. كنت سأذهب إلى فندق صغير، لكنهم أصروا، من أجل راحتنا، على اصطحابنا إلى هذا المنزل. قالوا إنه يقع في الريف، ولا يوجد به ضوضاء، إنه أهدأ مكان في العالم، بدون هواتف، ولا تدخل من العالم الخارجي. أنا، كالأحمق الذي كنت عليه، وافقت على الذهاب معهم. لم يكتف دون خوان بتحذيري من أن أكون طائرًا منعزلًا دائمًا، بل طالبني أيضًا باتباع توصيته، وهو أمر فعلته في معظم الأوقات، ولكن كانت هناك مناسبات سيطرت فيها طبيعتي الاجتماعية.

أخذتنا اللجنة إلى منزل أستاذ جامعي كان في إجازة تفرغ علمي، على مسافة بعيدة من بورتلاند. وبسرعة كبيرة، قاموا بتشغيل الأنوار داخل المنزل وخارجه، والذي كان يقع على تلة محاطة بأضواء كاشفة من جميع

الجهات. مع تشغيل الأضواء الكاشفة، لا بد أن المنزل كان مرئياً من مسافة خمسة أميال. بعد ذلك، انصرفت اللجنة بأسرع ما يمكن، وهو أمر فاجأني لأنني كنت أعتقد أنهم سيبقون ويتحدثون. كان المنزل عبارة عن هيكل خشبي على شكل حرف A، صغير الحجم، ولكنه مبني بشكل جيد للغاية. كان يحتوي على غرفة معيشة ضخمة وطابق نصفي فوقه حيث كانت غرفة النوم. مباشرة في الأعلى، عند قمة الإطار المثلثي، كان هناك صليب بالحجم الطبيعي معلق من مفصل دوار غريب، تم حفره في رأس التمثال. كانت الأضواء الكاشفة على الحائط مسلطة على الصليب. كان مشهداً مثيراً للإعجاب، خاصة عندما كان يدور، ويصدر صريراً كما لو أن المفصلة تحتاج إلى زيت.

كان حمام المنزل مشهداً آخر. كان يحتوي على بلاط عاكس على السقف والجدران والأرضية، وكان مضاءا بضوء محمر. لم يكن هناك سبيل للذهاب إلى الحمام دون أن ترى نفسك من كل زاوية ممكنة. لقد استمتعت بكل تلك الميزات في المنزل، والتي بدت لي مذهلة.

لكن عندما حان وقت نومي، واجهت مشكلة خطيرة لأنه لم يكن هناك سوى سرير واحد ضيق وصلب وبسيط للغاية، وكان صديقي عالم الأنثروبولوجيا على وشك الإصابة بالتهاب رئوي، حيث كان يعاني من أزيز وتقيؤ البلغم في كل مرة يسعل فيها. توجه مباشرة إلى السرير وفقد وعيه. بحثت عن مكان أنام فيه. لم أجد واحداً. كان ذلك المنزل خالياً من وسائل الراحة. إضافة إلى ذلك، كان الجو بارداً. قامت اللجنة بتشغيل الأضواء، لكنها لم تقم بتشغيل المدفأة. بحثت عن المدفأة. كان بحثي بلا جدوى، وكذلك بحثي عن مفتاح تشغيل الأضواء الكاشفة أو أي من الأضواء في المنزل، أيضا.

كانت المفاتيح موجودة على الجدران، ولكن يبدو أنها تم تجاوزها بتأثير مفتاح رئيسي ما. كانت الأضواء مضاءة، ولم يكن لدي أي وسيلة لإطفائها.

المكان الوحيد الذي وجدته للنوم كان على سجادة رقيقة، والشيء الوحيد الذي وجدته لأغطي به نفسي كان جلد كلب بودل فرنسي عملاق مدبوغ. من الواضح أنه كان حيوانًا أليفًا في المنزل وتم الحفاظ عليه؛ كانت له عيون سوداء لامعة تشبه الرخام وفم مفتوح يتدلى منه اللسان. وضعت رأس جلد كلب البودل باتجاه ركبتي. كان عليّ أن أغطي نفسي بالمؤخرة المدبوغة، والتي كانت على رقبتي. كان

رأسه المحفوظ أشبه بجسم صلب بين ركبتي، أمر مزعج للغاية! لو كان الجو مظلماً، لما كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد. جمعتُ حزمة من المناشف الصغيرة واستخدمتها كوسادة. استخدمت أكبر عدد ممكن لتغطية

جلد كلب البودل الفرنسي بأفضل طريقة ممكنة. لم أستطع النوم طوال الليل.

في تلك اللحظة، بينما كنت مستلقياً هناك ألعن نفسي في صمت لكوني غبياً جداً ولم أتبع نصيحة دون خوان، تذكرت أول ذكرى واضحة ومثيرة للغضب من حياتي بأكملها. لقد تذكرت الحدث الذي استدعى فيه دون خوان المرشد بنفس الوضوح، لكن ميلي كان دائماً هو تجاهل ما حدث لي عندما كنت مع دون خوان، على أساس أنه في حضوره كل شيء ممكن. لكن هذه المرة كنت وحدي.

قبل سنوات من لقائي بدون خوان، كنت أعمل في طلاء اللافتات على المباني. كان اسم رئيسي لويجي بالما. في أحد الأيام، حصل لويجي على عقد لرسم لافتة، تعلن عن بيع وتأجير فساتين الزفاف والبدلات الرسمية، على الجدار الخلفي لمبنى قديم. أراد صاحب المتجر الموجود في المبنى لفت انتباه الزبائن المحتملين من خلال عرض كبير. كان لويجي سيرسم عروساً وعريساً، وكنت سأقوم أنا بكتابة الحروف. ذهبنا إلى السطح المسطح للمبنى وقمنا بتركيب سقالة.

كنت متخوفاً للغاية على الرغم من عدم وجود سبب واضح يدعو إلى ذلك. لقد رسمتُ عشرات اللافتات على المباني الشاهقة. ظن لويجي أنني بدأت أشعر بالخوف من المرتفعات، لكن خوفي سيزول. عندما حان وقت بدء العمل، قام بإنزال السقالة بضعة أقدام من السطح وقفز على ألواحها المسطحة. ذهب إلى جانب واحد، بينما وقفت أنا على الجانب الآخر لأبتعد تماماً عن طريقه. كان هو الفنان.

بدأ لويجي في التباهي. كانت حركاته في الرسم مضطربة وغير منتظمة لدرجة أن السقالة تحركت ذهابًا وإيابًا. شعرت بالدوار. أردت العودة إلى السطح المسطح، متذرعاً بأنني بحاجة إلى المزيد من الطلاء وأدوات الرسامين الأخرى. أمسكت بحافة الجدار المحيط بالسقف المسطح وحاولت رفع نفسي، لكن أطراف قدمي علقت في ألواح السقالة.

حاولت سحب قدمي والسقالة باتجاه الجدار؛ وكلما سحبت

بقوة أكبر، كلما ابتعدت السقالة عن الجدار. بدلاً من مساعدتي في فك تشابك قدمي، جلس لويجي وثبت نفسه بالحبال التي تربط السقالة بالسطح المسطح. ثبت نفسه ونظر إليّ برعب. ثم ركع من وضعية جلوسه، وهو يبكي بصمت بينما كان يردد صلاة الرب.

تشبثت بحافة الجدار بكل قوتي؛ ما منحني القوة اليائسة للتحمل هو اليقين بأنه إذا كنت مسيطراً، فسأتمكن من منع السقالة من الابتعاد أكثر فأكثر. لم أكن لأفقد قبضتي وأسقط من الطابق الثالث عشر وأموت. صرخ لويجي، الذي كان سيداً قاسياً حتى النهاية المريرة، في وجهي وسط دموعه، قائلاً إنه يجب عليّ أن أصلي. أقسم أننا سنسقط كلانا ونموت، وأن أقل ما يمكننا فعله هو الصلاة من أجل خلاص أرواحنا. للحظة، فكرت ملياً فيما إذا كان من المجدي الصلاة. اخترت أن أصرخ طلباً للمساعدة. لا بد أن الناس في المبنى قد سمعوا صراخي واستدعوا رجال الإطفاء. لقد اعتقدت بصدق أن الأمر لم يستغرق سوى ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ بعد أن بدأت بالصراخ على رجال الإطفاء ليصعدوا إلى السطح ويمسكوا بي وبلويجي ويثبتوا السقالة.

في الحقيقة، لقد تشبثت بجانب المبنى لمدة عشرين دقيقة على الأقل. عندما سحبني رجال الإطفاء أخيرًا إلى السطح، كنت قد فقدت أي أثر للسيطرة. تقيأت على أرضية السطح الصلبة، وشعرت بالغثيان من الخوف والرائحة الكريهة للقطران المذاب. كان يومًا حارًا جدًا ؛ كان القطران الموجود على شقوق صفائح السقف الخشن يذوب في الحرارة. لقد كانت المحنة مخيفة ومحرجة للغاية لدرجة أنني لم أرغب في تذكرها، وانتهى بي الأمر إلى الهلوسة بأن رجال الإطفاء سحبوني إلى غرفة دافئة صفراء اللون؛ ثم وضعوني في سرير مريح للغاية، ونمت بسلام، وأنا أرتدي بيجامتي، وقد نجوت من الخطر.

أما ذكرياتي الثانية فكانت عبارة عن انفجار آخر بقوة هائلة لا يمكن قياسها. كنت أتحدث بودّ مع مجموعة من الأصدقاء عندما انقطع نفسي فجأة، دون سبب واضح أستطيع تفسيره، تحت وطأة فكرة أو ذكرى كانت غامضة بالنسبة لي.

لحظة ثم تحولت إلى تجربة آسرة. كانت قوتها شديدة لدرجة أنني اضطررت إلى الاعتذار والانسحاب للحظة إلى زاوية. بدا أن أصدقائي قد فهموا ردة فعلي؛ فقد انفصلوا دون أي تعليقات. ما كنت أتذكره هو حادثة وقعت في سنتي الأخيرة من المدرسة الثانوية.

كنت أنا وصديقي المقرب نذهب إلى المدرسة سيراً على الأقدام، ونمر بقصر كبير محاط بسياج من الحديد المطاوع الأسود يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام على الأقل وينتهي بأشواك مدببة. خلف السياج كانت هناك حديقة خضراء واسعة ومُعتنى بها جيدًا، وكلب ألماني

ضخم وشرس. كنا نعتاد كل يوم على مضايقة الكلب وتركه يهاجمنا. توقف جسدياً عند السياج الحديدي، لكن غضبه بدا وكأنه انتقل إلينا. كان صديقي يستمتع بإشراك الكلب كل يوم في منافسة ذهنية على الجسد. اعتاد أن يقف على بعد بضع بوصات من أنف الكلب، الذي كان يبرز بين القضبان الحديدية ست بوصات على الأقل في الشارع، ويكشف عن أسنانه، تمامًا كما يفعل الكلب.

"انحني، انحني!" كان صديقي يصرخ في كل مرة. "أطع! أطع! أنا أقوى منك!"

لم تؤثر عروضه اليومية للقوة العقلية، والتي استمرت لمدة خمس دقائق على الأقل، على الكلب، باستثناء أنها جعلته أكثر غضباً من أي وقت مضى. كان صديقي يؤكد لي يومياً، كجزء من طقوسه، أن الكلب إما سيطيعه أو سيموت أمامنا بسبب سكتة قلبية ناجمة عن الغضب. كان إيمانه راسخاً لدرجة أنني اعتقدت أن الكلب سيموت في أي لحظة.

في صباح أحد الأيام، عندما عدنا إلى المنزل، لم يكن الكلب موجوداً. انتظرنا لحظة، لكنه لم يظهر؛ ثم رأيناه في نهاية الحديقة الواسعة. بدا أنه مشغول هناك، لذلك بدأنا بالابتعاد ببطء. من زاوية عيني، لاحظت أن الكلب كان يركض بأقصى سرعة نحونا.

عندما كان على بعد ستة أو سبعة أقدام من السياج، قفز قفزة عملاقة فوقه. كنت متأكدًا من أنه سيمزق بطنه على المسامير. بالكاد تمكن من تجاوزهم وسقط على الشارع مثل كيس من البطاطس.

ظننت للحظة أنه مات، لكنه كان مصدوماً فقط. وفجأة، نهض، وبدلاً من أن يطارد الشخص الذي أثار غضبه، ركض خلفي. قفزت على سطح سيارة، لكن السيارة لم تكن شيئاً بالنسبة للكلب. قفز قفزة وكاد أن يكون فوقي. نزلت مسرعاً وتسلقت أول شجرة كانت في متناول يدي، وهي شجرة صغيرة هشة بالكاد تستطيع تحمل وزني. كنت متأكدًا من أنها ستنكسر من المنتصف، مما سيرسلني مباشرة إلى فكي الكلب لأتعرض للهجوم حتى الموت.

كنتُ في الشجرة، على وشك أن أكون بعيداً عن متناوله. لكن الكلب قفز مرة أخرى، وصرّ بأسنانه، وأمسك بي من مؤخرة سروالي ومزقه. لقد خدشت أسنانه مؤخرتي بالفعل. في اللحظة التي شعرت فيها بالأمان أعلى الشجرة، رحل الكلب. ركض في الشارع، ربما كان يبحث عن صديقي.

في عيادة المدرسة، أخبرتني الممرضة أنه يجب عليّ أن أطلب من صاحب الكلب شهادة تطعيم ضد داء الكلب.

قالت بصرامة: "يجب أن تنظر في هذا الأمر". "ربما تكون مصابًا بداء الكلب بالفعل. إذا رفض المالك إظهار شهادة التطعيم، فلك الحق في الاتصال بالشرطة.

تحدثت إلى القائم على رعاية القصر الذي كان يعيش فيه الكلب. لقد اتهمني باستدراج أغلى كلب لدى المالك، وهو حيوان أصيل، إلى الشارع.

"من الأفضل أن تحذر يا فتى!" قال ذلك بنبرة غاضبة. "لقد ضاع الكلب. سيرسلك المالك إلى السجن إذا استمريت في إزعاجنا."

قلت بنبرة خائفة بصدق: "لكنني قد أكون مصابًا بداء الكلب".

"لا يهمني إن كنت مصاباً بالطاعون الدبلي"، قال الرجل بحدة. "انصرف!" قلت: "سأتصل بالشرطة".

رد قائلاً: "اتصل بمن تشاء". "إذا اتصلت بالشرطة، فسوف نقلبهم ضدك. لدينا في هذا المنزل ما يكفي من النفوذ للقيام بذلك!"

صدقته، لذلك كذبت على الممرضة وقلت إنه لا يمكن العثور على الكلب، وأنه ليس له مالك.

"يا إلهي!" صرخت المرأة. "إذن استعد للأسوأ. قد أضطر إلى إحالتك إلى الطبيب." أعطتني قائمة طويلة من الأعراض التي يجب أن أبحث عنها أو أنتظر ظهورها. وقالت إن الحقن الخاصة بداء الكلب مؤلمة للغاية، وأنه يجب إعطاؤها تحت الجلد في منطقة البطن.

قالت: "لا أتمنى هذه المعاملة حتى لألد أعدائي"، مما أدخلني في كابوس مروع.

ما تلا ذلك كان أول اكتئاب حقيقي لي. استلقيت على سريري أشعر بكل الأعراض التي ذكرتها الممرضة. انتهى بي الأمر بالذهاب إلى عيادة المدرسة والتوسل إلى المرأة أن تعطيني علاج داء الكلب، مهما كان مؤلماً. لقد أحدثتُ ضجة كبيرة. أصبت بنوبة هستيرية. لم أكن مصابًا بداء الكلب، لكنني

فقدت السيطرة تمامًا.

لقد رويت لدون خوان ذكرياتي الاثنتين بكل تفاصيلها، ولم أغفل أي شيء. لم يدلِ بأي تعليقات. أومأ برأسه عدة مرات.

قلتُ وأنا أشعر بإلحاح صوتي: "في كلتا الحالتين يا دون خوان، كنتُ في حالة هستيرية كما يمكن لأي شخص أن يكون". كان جسدي يرتجف. شعرت بالغثيان. لا أريد أن أقول أن الأمر كان كما لو كنت أعيش التجارب، لأن هذه ليست الحقيقة. كنت في التجارب نفسها في كلتا المرتين. وعندما لم أعد أحتملهم، انطلقت في حياتي الحالية. بالنسبة لي، كانت تلك قفزة نحو المستقبل. كان بإمكاني تجاوز الوقت المحدد. لم تكن قفزتي إلى الماضي مفاجئة؛ بل تطور الحدث ببطء، كما هو الحال مع الذكريات. في النهاية قفزت فجأة إلى المستقبل: إلى حياتي الآن.

قال أخيراً: "بالتأكيد بدأ شيء ما بداخلك بالانهيار". "لقد كان ينهار طوال الوقت، لكنه كان يصلح نفسه بسرعة كبيرة في كل مرة تفشل فيها دعاماته. أشعر الآن أنها تنهار تماماً."

بعد صمت طويل آخر، أوضح دون خوان أن سحرة المكسيك القديمة كانوا يعتقدون، كما أخبرني بالفعل، أن لدينا عقلين، وأن أحدهما فقط هو عقلنا الحقيقي. لطالما فهمت دون خوان على أنه يقول أن هناك جزأين لعقولنا، وأحدهما صامت دائمًا لأن التعبير محروم منه بقوة الجزء الآخر. مهما كان ما قاله دون خوان، فقد اعتبرته طريقة مجازية لشرح، ربما، الهيمنة الواضحة لنصف الكرة المخية الأيسر على النصف الأيمن، أو شيء من هذا القبيل.

قال دون خوان: " هناك خيار سري للتلخيص".

"كما أخبرتك من قبل، هناك خيار سري للموت، خيار لا يلجأ إليه إلا السحرة. في حالة الموت، يتمثل الخيار السري في أن البشر يمكنهم الاحتفاظ بقوة حياتهم والتخلي فقط عن وعيهم، وهو نتاج حياتهم. في حالة التلخيص، فإن الخيار السري الذي لا يتخذه إلا السحرة هو اختيار تعزيز عقولهم الحقيقية.

وتابع قائلاً: "إن الذكرى المؤلمة لذكرياتك لا يمكن أن تأتي إلا من عقلك الحقيقي". أما العقل الآخر الذي نمتلكه جميعاً ونتشاركه، فأود أن أقول إنه نموذج رخيص: قوة اقتصادية، مقاس واحد يناسب الجميع. لكن هذا موضوع سنناقشه لاحقاً. إن ما هو على المحك الآن هو ظهور قوة متفككة.

لكن ليس قوة تعمل على تفتيتك - لا أقصد ذلك بهذه الطريقة. فهو تفكيك ما يسميه السحرة بالتركيب الغريب، الموجود فيك وفي كل إنسان آخر. إن تأثير القوة التي تنزل عليك، والتي تفكك التركيب الغريب، هو أنها تسحب السحرة من تركيبهم."

لقد استمعت بانتباه إلى دون خوان، لكنني لا أستطيع القول إنني فهمت ما قاله. لسبب غريب، كان مجهولاً بالنسبة لي مثل سبب ذكرياتي الحية، لم أستطع أن أسأله أي أسئلة.

قال دون خوان فجأة: "أعلم كم هو صعب عليك التعامل مع هذا الجانب من حياتك". كل ساحر أعرفه قد مر بهذه التجربة. يتعرض الذكور الذين يمرون بهذه التجربة لأضرار أكبر بكثير من الإناث. أظن أن من طبيعة المرأة أن تكون أكثر قدرة على التحمل. حاول سحرة المكسيك القديمة، الذين يعملون كمجموعة، بذل قصارى جهدهم لدعم تأثير هذه القوة التفككية. في عصرنا هذا، ليس لدينا وسيلة للتصرف كمجموعة، لذلك يجب أن نستعد لمواجهة قوة في عزلة ستجرفنا بعيدًا عن اللغة، لأنه لا توجد طريقة لوصف ما يحدث بشكل كافٍ.

كان دون خوان محقاً في أنني كنت عاجزاً عن إيجاد تفسيرات أو طرق لوصف التأثير الذي أحدثته تلك الذكريات عليّ. أخبرني دون خوان أن السحرة يواجهون المجهول في أكثر الحوادث شيوعاً التي يمكن للمرء أن يتخيلها.

عندما يواجهون ذلك، ولا يستطيعون تفسير ما يدركونه، يتعين عليهم الاعتماد على مصدر خارجي للحصول على التوجيه. أطلق دون خوان على هذا المصدر اسم اللانهائية، أو صوت الروح، وقال إنه إذا لم يحاول السحرة أن يكونوا عقلانيين بشأن ما لا يمكن تبريره، فإن الروح تخبرهم بشكل لا لبس فيه بما هو عليه.

أرشدني دون خوان لقبول فكرة أن اللانهائية كانت قوة لها صوت وكانت واعية لنفسها. وبالتالي، فقد أعدني

لأكون مستعداً للاستماع إلى ذلك الصوت والتصرف بكفاءة دائماً، ولكن دون سوابق، مستخدماً أقل قدر ممكن من قيود ما هو مسبق. انتظرت بفارغ الصبر أن يخبرني صوت الروح معنى ذكرياتي، لكن لم يحدث شيء.

كنت في مكتبة ذات يوم عندما تعرفت علي فتاة وجاءت لتتحدث معي. كانت طويلة ونحيلة، وكان صوتها خجولاً وغير واثق، كصوت فتاة صغيرة. كنت أحاول أن أجعلها تشعر بالراحة عندما فاجأني فجأة تغير فوري في طاقتي. كان الأمر كما لو أن جرس إنذار قد انطلق بداخلي، وكما حدث في الماضي، ودون أي إرادة من جانبي على الإطلاق، تذكرت حدثاً آخر منسياً تماماً في حياتي. انتابتني ذكريات منزل أجدادي. كان انهيارًا جليديًا حقيقيًا شديدًا لدرجة أنه كان مدمرًا، ومرة أخرى، اضطررت إلى التراجع إلى زاوية. اهتز جسدي، كما لو كنت قد شعرت بالبرد.

لا بد أنني كنت في الثامنة من عمري. كان جدي يتحدث معي. بدأ حديثه بإخباري أن من واجبه الأسمى أن يصحح لي مساري. كان لدي ابنا عم في مثل سني: ألفريدو ولويس. طالبني جدي بلا رحمة أن أعترف بأن ابن عمي ألفريدو كان جميلاً حقاً. في رؤيتي، سمعت صوت جدي الأجش والمكتوم.

قال لي في تلك المناسبة: "ألفريدو لا يحتاج إلى أي تعريف". "يكفيه أن يكون حاضراً وستفتح له الأبواب على مصراعيها لأن الجميع يمارسون عبادة الجمال. الجميع يحب الأشخاص الجميلين. إنهم يحسدونهم، لكنهم بالتأكيد يسعون إلى صحبتهم. صدقني. أنا وسيم، ألا توافقني الرأي؟" لقد وافقت جدي بصدق. كان بالتأكيد رجلاً وسيماً للغاية، نحيف البنية، بعيون زرقاء ضاحكة ووجه منحوت بشكل رائع مع عظام وجنتين جميلتين. بدا كل شيء متوازناً تماماً في وجهه - أنفه، فمه، عينيه، فكه المدبب. كان ينمو شعر أشقر على أذنيه، وهي سمة أعطته مظهراً يشبه مظهر الجان. كان يعرف كل شيء عن نفسه، واستغل صفاته إلى أقصى حد. كانت النساء يعشقنه؛ أولاً، بحسب قوله، لجماله، وثانياً، لأنه لم يكن يشكل أي تهديد لهن. وبالطبع، استغل كل هذا استغلالاً كاملاً.

"ابن عمك ألفريدو فائز"، تابع جدي حديثه. "لن يضطر أبداً إلى اقتحام أي حفلة لأنه سيكون أول شخص في قائمة الضيوف. هل لاحظت يوماً

كيف يتوقف الناس في الشارع لينظروا إليه، وكيف يرغبون في لمسه؟ إنه جميل جداً لدرجة أنني أخشى أن يتحول إلى شخص سيء، لكن هذه قصة أخرى. دعنا نقول إنه سيكون أكثر شخص مزعج ومرحب به على الإطلاق.

قارن جدي ابن عمي لويس بألفريدو. قال إن لويس كان عادي المظهر، وغبي بعض الشيء، لكن قلبه كان من ذهب. ثم أدخلني في الصورة.

وتابع قائلاً: "إذا كنا سنمضي قدماً في شرحنا، فعليك أن تعترف بصدق أن ألفريدو جميل ولويس جيد. والآن، دعنا نأخذك؛ فأنت لست وسيماً ولا صالحاً. أنت ابن عاهرة حقيقي. لن يدعوك أحد إلى حفلة. سيتعين عليك أن تعتاد على فكرة أنه إذا كنت تريد أن تكون في حفلة، فسيتعين عليك اقتحامها. لن تُفتح لك الأبواب أبدًا كما ستُفتح لألفريدو لكونه جميلًا، ولويس لكونه طيبًا، لذا سيتعين عليك الدخول من النافذة."

كان تحليله لأحفاده الثلاثة دقيقاً للغاية لدرجة أنه جعلني أبكي من شدة وقع ما قاله. كلما ازداد بكائي، ازداد هو سعادة. واختتم قضيته بتحذير شديد الضرر.

قال: "لا داعي للشعور بالسوء، لأنه لا يوجد شيء أكثر إثارة من الدخول من النافذة. للقيام بذلك،

عليك أن تكون ذكياً ومتيقظاً. عليك أن تراقب كل شيء، وأن تكون مستعداً للإهانات التي لا تنتهي.

وتابع قائلاً: "إذا اضطررت للدخول من النافذة، فذلك لأنك بالتأكيد لست مدرجاً في قائمة الضيوف؛ وبالتالي، فإن وجودك غير مرحب به على الإطلاق، لذا عليك أن تعمل بجد للبقاء. الطريقة الوحيدة التي أعرفها هي عن طريق امتلاك الجميع. اصرخ! طالب! انصح! اجعلهم يشعرون بأنك أنت المسؤول!

كيف يمكنهم طردك وأنت المسؤول؟"

لقد أحدث تذكر هذا المشهد اضطراباً عميقاً في داخلي. لقد دفنت هذه الحادثة عميقاً لدرجة أنني نسيتها تماماً. لكن ما كنت أتذكره طوال الوقت هو نصيحته لي بأن أكون مسؤولاً، والتي لا بد أنه كررها لي مراراً وتكراراً على مر السنين.

لم تتح لي الفرصة لدراسة هذا الحدث أو التفكير فيه، لأن ذكرى أخرى منسية عادت إلى الظهور بنفس القوة. كنتُ فيها مع الفتاة التي كنتُ مخطوباً لها. في ذلك الوقت، كنا ندخر المال لنتزوج ونمتلك منزلاً خاصاً بنا. سمعت نفسي أطالب بفتح حساب مصرفي مشترك؛ لا أريد أن يكون الأمر على غير هذا النحو. شعرتُ بضرورة ملحة لإلقاء محاضرة عليها حول الاقتصاد. وجدت نفسي أخبرها من أين تشتري ملابسها، وما هو أعلى سعر معقول يجب أن يكون.

ثم وجدت نفسي أعطي دروساً في القيادة لأختها الصغرى، وأصاب بالجنون تماماً عندما قالت إنها تخطط للانتقال من منزل والديها. وبقوة، هددتها بإلغاء دروسي. بكت وهي تعترف بأنها كانت على علاقة غرامية مع رئيسها في العمل. قفزت من السيارة وبدأت بركل الباب.

لكن هذا لم يكن كل شيء. سمعت نفسي أقول لوالد خطيبتي ألا ينتقل إلى ولاية أوريغون، حيث كان يخطط للذهاب. صرخت بأعلى صوتي أن هذا كان تصرفاً غبياً. كنت أعتقد حقاً أن حججي ضد ذلك لا يمكن دحضها. قدمت له أرقام الميزانية التي قمت فيها بحساب خسائره بدقة متناهية. عندما لم يكترث لي، أغلقت الباب بقوة وغادرت، وأنا أرتجف من الغضب. وجدت خطيبتي في غرفة المعيشة، تعزف على غيتارها. انتزعته من يديها وصرخت في وجهها قائلة إنها احتضنت الغيتار بدلاً من العزف عليه، كما لو كان أكثر من مجرد شيء.

امتدت رغبتي في فرض إرادتي لتشمل كل شيء. لم أفرق بين أحد؛ فكل من كان قريباً مني كان موجوداً لأمتلكه وأشكله وفقاً لأهوائي.

لم أعد مضطراً للتفكير ملياً في مغزى رؤاي الواضحة. فقد اجتاحني يقين لا جدال فيه، كما لو كان قادماً من خارجي. أخبرني ذلك أن نقطة ضعفي تكمن في فكرة أنه يجب أن أكون أنا الرجل الذي يجلس على كرسي المخرج طوال الوقت. لقد كان مفهومًا راسخًا لديّ، وهو أنه لا يجب على المرء أن يكون مسؤولاً فحسب، بل يجب عليه أيضًا أن يكون مسيطرًا على أي موقف. إن الطريقة التي نشأت بها عززت هذا الدافع، الذي لا بد أنه كان عشوائياً في بدايته، ولكنه تحول في مرحلة البلوغ إلى ضرورة عميقة.

كنت أدرك، بلا أدنى شك، أن ما كان على المحك هو اللانهائية. صوّر دون خوان ذلك على أنه قوة واعية تتدخل عمداً في حياة

السحرة. والآن تتدخل في شؤوني. عرفت أن اللانهائية كانت تشير لي، من خلال التذكر الحي لتلك التجارب المنسية، وشدة وعمق دافعي للسيطرة، وبالتالي تهيئتي لشيء متعالٍ على نفسي. أدركت بيقين مخيف أن شيئًا ما سيمنع أي احتمال لكوني مسيطرًا، وأنني بحاجة، أكثر من أي شيء آخر، إلى الرصانة والسيولة والتخلي من أجل مواجهة الأشياء التي شعرت أنها تأتي إلي.

بطبيعة الحال، أخبرت دون خوان بكل هذا، وأسهبتُ في شرح تكهناتي ورؤيتي الملهمة حول الأهمية المحتملة لذكرياتي.

ضحك دون خوان بروح طيبة. قال: "كل هذا مجرد مبالغة نفسية من جانبك، مجرد أمنيات". "أنت، كالعادة، تبحث عن تفسيرات ذات علاقة السبب والتأثيرة الخطية. تصبح كل ذكرياتك أكثر وضوحاً، وأكثر إثارة للجنون بالنسبة لك، لأنك كما أخبرتك من قبل، قد دخلت في عملية لا رجعة فيها. عقلك الحقيقي يظهر، ويستيقظ من حالة خمول دامت طوال حياتك.

وتابع قائلاً: "إنّ اللانهائية تطالب بك". "أياً كانت الوسيلة التي تستخدمها لتوضيح ذلك لك، فلا يمكن أن يكون لها أي سبب آخر، أو أي دافع آخر، أو أي قيمة أخرى غير ذلك. لكن ما يجب عليك فعله هو أن تكون مستعداً لهجمات اللانهائية. يجب أن تكون في حالة استعداد دائم لتلقي ضربة هائلة. هذه هي الطريقة العاقلة والرصينة التي يواجه بها السحرة اللانهائية."

تركت كلمات دون خوان في نفسي طعماً مراً. لقد شعرت بالفعل بالهجوم القادم عليّ، وخفته. بما أنني قضيت حياتي كلها مختبئاً وراء بعض الأنشطة غير الضرورية، فقد انغمست في العمل. ألقيت محاضرات في فصول دراسية كان يدرسها أصدقائي في مدارس مختلفة في جنوب كاليفورنيا. كتبتُ بإسهاب. يمكنني القول دون مبالغة أنني ألقيت بالعشرات من المخطوطات في سلة المهملات لأنها لم تستوفِ شرطًا لا غنى عنه وصفه لي دون خوان بأنه علامة على شيء مقبول للانهائية.

قال إن كل ما أفعله يجب أن يكون عملاً سحرياً. فعلٌ خالٍ من التوقعات المتزايدة، ومخاوف الفشل، وآمال النجاح. متحرراً من عبادة الذات؛ كل ما فعلته كان يجب أن يكون مرتجلاً، عملاً سحرياً حيث فتحت نفسي بحرية لدوافع اللانهائي.

في إحدى الليالي، كنت أجلس على مكتبي أستعد لنشاطي اليومي المتمثل في الكتابة. شعرتُ بلحظة من الدوار. ظننت أنني أشعر بالدوار لأنني نهضت بسرعة كبيرة من على بساطي حيث كنت أمارس تماريني. أصبحت رؤيتي ضبابية. رأيت بقعًا صفراء أمام عيني. ظننت أنني سأفقد الوعي. ازدادت نوبات الإغماء سوءاً. كانت هناك بقعة حمراء ضخمة أمامي. بدأت أتنفس بعمق، محاولاً تهدئة أي اضطراب كان يسبب هذا التشوه البصري. ساد الصمت بشكل غير عادي، لدرجة أنني لاحظت أنني محاط بظلام دامس لا يمكن اختراقه. خطر ببالي أنني قد أغمي عليّ. ومع ذلك، كنت أشعر بالكرسي، ومكتبي؛ كنت أشعر بكل شيء حولي من داخل الظلام الذي يحيط بي.

قال دون خوان إن سحرة سلالته كانوا يعتبرون أن أحد أكثر النتائج المرغوبة للصمت الداخلي هو تفاعل محدد للطاقة، والذي يبشر به دائمًا شعور قوي. لقد شعر بأن ذكرياتي كانت وسيلة لإثارة غضبي إلى أقصى حد، حيث سأختبر هذا التفاعل. وقد تجلى هذا التفاعل من حيث الألوان التي تم إسقاطها على أي أفق في عالم الحياة اليومية، سواء كان جبلاً أو سماءً أو جداراً أو حتى راحة اليدين. وقد أوضح أن هذا التفاعل بين الألوان يبدأ بظهور لمسة خفيفة من اللون الخزامي على الأفق. بمرور الوقت، تبدأ ضربة الفرشاة الأرجوانية هذه في التوسع حتى تغطي الأفق المرئي، مثل غيوم العاصفة المتقدمة.

أكد لي أن نقطة من لون أحمر رماني غني وغريب تظهر، كما لو كانت تنفجر من غيوم الخزامى. وذكر أنه كلما أصبح السحرة أكثر انضباطاً وخبرة، تتوسع نقطة الرمان وتنفجر في النهاية إلى أفكار أو رؤى، أو في حالة الرجل المتعلم، إلى كلمات مكتوبة؛ إما أن يرى السحرة رؤى تولدها الطاقة، أو يسمعون أفكاراً تُنطق ككلمات، أو يقرؤون كلمات مكتوبة.

في تلك الليلة، وأنا جالس على مكتبي، لم أرَ أي ضربات فرشاة بلون الخزامى، ولم أرَ أي

سحب قادمة. كنت متأكدًا من أنني لا أملك الانضباط الذي يحتاجه السحرة لمثل هذا التفاعل بين الطاقة، ولكن كانت أمامي نقطة ضخمة بلون الرمان الأحمر. انفجرت هذه النقطة الهائلة، دون أي مقدمات، إلى كلمات منفصلة قرأتها كما لو كانت على ورقة تخرج من آلة كاتبة. كانت الكلمات تتحرك بسرعة هائلة أمامي لدرجة أنه كان من المستحيل قراءة أي شيء. ثم سمعت صوتاً يصف لي شيئاً ما. مرة أخرى، كانت سرعة الصوت غير مناسبة لأذني. كانت الكلمات مشوشة، مما جعل من المستحيل سماع أي شيء ذي معنى.

وكأن ذلك لم يكن كافياً، بدأت أرى مشاهد تشبه تلك التي يراها المرء في أحلامه بعد تناول وجبة دسمة. كانت ذات طابع باروكي، داكنة، تنذر بالسوء. بدأت أدور، واستمررت في ذلك حتى شعرت بالغثيان. انتهى الحدث برمته عند هذا الحد. شعرت بتأثير ما حدث لي في كل عضلة من عضلات جسدي. كانت منهكاً.

لقد أثار هذا التدخل العنيف غضبي وإحباطي.

أسرعت إلى منزل خوان لأخبره بما حدث. شعرت أنني بحاجة إلى مساعدته أكثر من أي وقت مضى.

"لا يوجد شيء لطيف في السحرة أو السحر"، هكذا علق دون خوان بعد أن سمع قصتي. "كانت هذه هي المرة الأولى التي تنزل فيها اللانهائية عليك بهذه الطريقة. كان الأمر أشبه بهجوم خاطف. لقد كان ذلك استيلاءً كاملاً على قدراتك العقلية. أما فيما يتعلق بسرعة رؤاك، فسيتعين عليك أنت بنفسك أن تتعلم كيفية ضبطها. بالنسبة لبعض السحرة، هذه هي وظيفة العمر. لكن من الآن فصاعدًا، ستظهر لك الطاقة كما لو كانت تُعرض على شاشة سينمائية.

وتابع قائلاً: "سواء فهمت التوقع أم لا، فهذا أمر آخر". لكي تتمكن من تقديم تفسير دقيق، فأنت بحاجة إلى الخبرة. نصيحتي هي ألا تخجل، وأن تبدأ الآن.

اقرأ الطاقة على الحائط! عقلك الحقيقي يتبلور، وليس له علاقة بالعقل الذي هو مجرد تركيب غريب. دع عقلك الحقيقي يضبط السرعة. كن صامتًا، ولا تقلق، بغض النظر عما يحدث ".

"لكن يا دون خوان، هل كل هذا ممكن؟ هل يمكن للمرء أن يقرأ الطاقة كما لو كانت نصاً؟" سألتُ وأنا أشعر بالذهول من الفكرة.

"بالتأكيد هذا ممكن!" ردّ قائلاً: "في حالتك، الأمر ليس ممكناً فحسب، بل إنه يحدث لك بالفعل."

"لكن لماذا نقرأه كما لو كان نصًا؟" أصريت، لكنه كان إصراراً بلاغياً.

قال: "هذا تظاهر من جانبك". "إذا قرأت النص، يمكنك تكراره حرفياً. ومع ذلك، إذا حاولت أن تكون مشاهدًا للانهاية بدلاً من قارئ اللانهائية، فستجد أنك لا تستطيع وصف ما كنت تشاهده، وسوف ينتهي بك الأمر إلى الثرثرة في الجنون، غير قادر على التعبير عما تشهده. وينطبق الأمر نفسه إذا حاولت سماعه. هذا الأمر، بالطبع، خاص بك أنت. على أي حال، اللانهائية تختار. المحارب المسافر يذعن ببساطة للاختيار.

وأضاف بعد وقفة محسوبة: "ولكن قبل كل شيء، لا تدع الحدث يغمرك لأنك لا تستطيع وصفه. إنه حدث يتجاوز قواعد لغتنا."

رحلات عبر بحر الوعي المظلم

قال دون خوان: "يمكننا الآن التحدث بشكل أكثر وضوحاً عن الصمت الداخلي".

كان تصريحه غير منطقي لدرجة أنه أثار دهشتي. لقد كان يتحدث معي طوال فترة ما بعد الظهر عن التقلبات التي عانى منها هنود الياكي بعد حروب الياكي الكبيرة في عشرينيات القرن الماضي، عندما قامت الحكومة المكسيكية بترحيلهم من موطنهم الأصلي في ولاية سونورا، شمال المكسيك، للعمل في مزارع قصب السكر في وسط وجنوب المكسيك. كانت الحكومة المكسيكية تعاني لسنوات من مشاكل بسبب الحروب المتوطنة مع هنود الياكي. أخبرني دون خوان ببعض القصص المذهلة والمؤثرة من قبيلة الياكي عن المؤامرات السياسية والخيانة والحرمان والبؤس الإنساني.

كان لدي شعور بأن دون خوان كان يدبر لي شيئاً ما، لأنه كان يعلم أن تلك القصص كانت تثير اهتمامي، إن صح التعبير. كان لدي في ذلك الوقت إحساس مبالغ فيه بالعدالة الاجتماعية واللعب النظيف.

وتابع قائلاً: "لقد أتاحت لك الظروف المحيطة بك الحصول على المزيد من الطاقة". "لقد بدأت تلخيص حياتك ؛ لقد نظرت إلى أصدقائك لأول مرة كما لو كانوا في نافذة عرض؛ لقد وصلت إلى نقطة التحول، بنفسك، مدفوعًا باحتياجاتك الخاصة؛ لقد ألغيت عملك؛ وقبل كل شيء، لقد تراكم لديك ما يكفي من الصمت الداخلي. كل هذا مكنك من القيام برحلة عبر بحر الوعي المظلم.

وتابع قائلاً: "كان لقائي في تلك المدينة التي اخترناها بمثابة تلك الرحلة". "أعلم أن سؤالاً حاسماً كاد أن يتبادر إلى ذهنك، وأنك تساءلت للحظة عما إذا كنت قد أتيت إلى منزلك بالفعل. لم يكن مجيئي لرؤيتك حلماً بالنسبة لك. كنتُ حقيقياً، أليس كذلك؟"

قلت: "لقد كنت حقيقياً إلى أقصى حد ممكن".

كنت قد نسيت تلك الأحداث تقريباً، لكنني تذكرت أنه بدا لي غريباً أنه وجد شقتي. لقد تخلصت من دهشتي من خلال عملية بسيطة تتمثل في افتراض أنه سأل شخصًا ما عن عنواني الجديد، على الرغم من أنه لو تم الضغط عليّ، لما كنت قادرًا على تحديد هوية أي شخص يعرف مكان إقامتي.

وتابع قائلاً: "دعنا نوضح هذه النقطة". "بحسب مصطلحاتي، وهي مصطلحات سحرة المكسيك القديمة، كنت حقيقياً قدر الإمكان، وعلى هذا النحو، ذهبت بالفعل إلى مكانك من صمتي الداخلي لأخبرك عن شرط اللانهائية، ولأحذرك من أن وقتك على وشك النفاد." وأنت، بدورك، من صمتك الداخلي، ذهبت حقًا إلى تلك المدينة التي اخترناها لتخبرني أنك نجحت في تحقيق متطلبات اللانهائية.

"بحسب مصطلحاتك، وهي مصطلحات الرجل العادي، كان الأمر مجرد حلم خيالي في كلتا الحالتين. لقد حلمتَ وتخيلتَ أنني أتيت إلى منزلك دون أن أعرف العنوان، ثم حلمتَ وتخيلتَ أنك ذهبتَ لرؤيتي.

أما بالنسبة لي، بصفتي ساحراً، فإن ما تعتبره حلماً خيالياً بمقابلتي في تلك المدينة كان حقيقياً تماماً مثل حديثنا هنا اليوم.

اعترفت لدون خوان بأنه لا توجد إمكانية لصياغة تلك الأحداث في نمط فكري مناسب للرجل الغربي. قلت إن التفكير فيهم من منظور الخيال الحلمي هو خلق فئة زائفة لا يمكن أن تصمد أمام التدقيق، وأن التفسير الوحيد شبه الممكن بشكل غامض هو جانب آخر من معرفته: الحلم.

"لا، إنه ليس حلمًا"، قال بشكل قاطع. "هذا شيء أكثر مباشرة، وأكثر غموضاً. بالمناسبة، لدي تعريف جديد للحلم لك اليوم، وهو أكثر توافقاً مع حالتك. الحلم هو فعل تغيير نقطة التعلق ببحر الوعي المظلم. إذا نظرت إلى الأمر بهذه الطريقة، فهو مفهوم بسيط للغاية، ومناورة بسيطة للغاية. يتطلب الأمر كل ما لديك لإدراك ذلك، ولكنه ليس مستحيلاً، كما أنه ليس شيئاً محاطاً بسحب غامضة.

وتابع قائلاً:"الحلم هو مصطلح لطالما أزعجني لأنه يضعف فعلًا قويًا للغاية. يجعل ذلك الأمر يبدو عشوائياً؛ إنه يعطيه إحساساً بأنه خيال، وهذا هو الشيء الوحيد الذي ليس عليه. حاولت تغيير المصطلح بنفسي، لكنه متأصل للغاية. ربما تستطيع تغييره بنفسك يوماً ما، مع أنني أخشى، كما هو الحال مع كل شيء آخر في السحر، أنه بحلول الوقت الذي تستطيع فيه فعل ذلك فعلاً، لن تهتم بالأمر إطلاقاً لأنه لن يكون هناك فرق في الاسم بعد الآن."

لقد شرح دون خوان بإسهاب طوال الفترة التي عرفته فيها أن الحلم كان فنًا اكتشفه سحرة المكسيك القديمة، والذي من خلاله يتم تحويل الأحلام العادية إلى مداخل حقيقية إلى عوالم أخرى من الإدراك. لقد دافع، بكل طريقة ممكنة، عن ظهور شيء أسماه الانتباه الحالم، وهو القدرة على إيلاء نوع خاص من الانتباه، أو وضع نوع خاص من الوعي على عناصر الحلم

العادي.

لقد اتبعت بدقة جميع توصياته ونجحت في توجيه وعيي ليبقى ثابتاً على عناصر الحلم. لم تكن الفكرة التي طرحها دون خوان هي السعي عمداً لتحقيق حلم مرغوب فيه، بل تركيز الانتباه على العناصر المكونة لأي حلم يظهر أمامنا.

ثم أظهر لي دون خوان بقوة ما اعتبره سحرة المكسيك القديمة أصل الأحلام: إزاحة نقطة التجمع. وقال إن نقطة التجمع تنزاح بشكل طبيعي للغاية أثناء النوم، لكن رؤية هذا الانزياح أمر صعب بعض الشيء لأنه يتطلب حالة مزاجية عدوانية، وأن هذه الحالة المزاجية العدوانية كانت هي المفضلة لدى سحرة المكسيك القديمة. بحسب دون خوان، فقد وجد هؤلاء السحرة جميع مقدمات سحرهم عن طريق هذا المزاج.

وتابع دون خوان قائلاً: "إنه مزاج عدواني للغاية". "ليس من الصعب على الإطلاق الدخول في ذلك، لأن الإنسان مفترس بطبيعته. يمكنك أن ترى، بشكل عدواني، أي شخص في هذه القرية الصغيرة، أو ربما شخصًا بعيدًا، أثناء نومه؛ أي شخص سيفي بالغرض المطروح. المهم هو أن تصل إلى شعور كامل باللامبالاة. أنت تبحث عن شيء ما، وتسعى جاهداً للحصول عليه. ستخرج باحثاً عن شخص، باحثاً كقطة، كحيوان مفترس، عن شخص تنقض عليه.

أخبرني دون خوان، ضاحكاً على استيائي الظاهر، أن الصعوبة في هذه التقنية تكمن في الحالة المزاجية، وأنه لا يمكنني أن أكون سلبياً في فعل الرؤية، لأن المنظر ليس شيئاً للمشاهدة بل للتفاعل معه. ربما كان ذلك بسبب قوة اقتراحه، ولكن في ذلك اليوم، عندما أخبرني بكل هذا، شعرت بعدوانية مذهلة. كانت كل عضلة في جسدي ممتلئة بالطاقة، وفي ممارستي للأحلام، طاردت شخصًا ما. لم أكن مهتماً بمعرفة من قد يكون ذلك الشخص. كنت بحاجة إلى شخص نائم، وقد أرشدتني قوة ما كنت

على دراية بها، دون أن أكون واعياً بها تماماً، إلى العثور على ذلك الشخص.

لم أكن أعرف من كان ذلك الشخص، ولكن أثناء رؤيتي له، شعرت بوجود دون خوان. كان شعوراً غريباً أن أعرف أن شخصاً ما كان معي من خلال إحساس غير محدد بالتقارب، وهو شعور يحدث على مستوى من الوعي

لم يكن جزءاً من أي شيء اختبرته من قبل. لم أستطع تركيز انتباهي إلا على الشخص المستريح. كنت أعرف أنه ذكر، لكنني لا أعرف كيف عرفت ذلك. كنت أعلم أنه نائم لأن كرة الطاقة التي يتكون منها البشر عادةً كانت مسطحة قليلاً؛ لقد تمددت جانبياً.

ثم رأيت نقطة التجميع في موضع مختلف عن الموضع المعتاد، وهو خلف لوحي الكتف مباشرة. في هذه الحالة، تم إزاحته إلى يمين المكان الذي كان ينبغي أن يكون فيه، وإلى أسفل قليلاً. حسبت أنه في هذه الحالة قد انتقل إلى جانب الأضلاع. شيء آخر لاحظته هو أنه لم يكن مستقراً. تذبذبت بشكل غير منتظم ثم عادت فجأة إلى وضعها الطبيعي. كان لدي شعور واضح بأن وجودي، ووجود دون خوان، قد أيقظا ذلك الشخص. لقد مررت بسلسلة من الصور الضبابية بعد ذلك مباشرة، ثم استيقظت في المكان الذي بدأت منه.

أخبرني دون خوان طوال الوقت أن السحرة ينقسمون إلى مجموعتين: إحداهما الحالمون، والأخرى المطاردون. كان الحالمون هم أولئك الذين امتلكوا قدرة كبيرة على إزاحة نقطة التجمع. كان المطاردون هم أولئك الذين يمتلكون قدرة كبيرة على تثبيت نقطة التجمع في ذلك الموقع الجديد. كان الحالمون والمطاردون يكملون بعضهم البعض، ويعملون في أزواج، ويؤثرون على بعضهم البعض من خلال ميولهم المحددة.

لقد أكد لي دون خوان أن نقل وتثبيت نقطة التجمع يمكن تحقيقه حسب الرغبة عن طريق

الانضباط الصارم للسحرة. وقال إن سحرة سلالته كانوا يعتقدون أن هناك ما لا يقل عن ستمائة نقطة داخل الكرة المضيئة التي نحن عليها، والتي عندما تصل إليها نقطة التجميع حسب الرغبة، يمكن لكل منها أن تمنحنا عالماً شاملاً تماماً؛ بمعنى أنه إذا تم نقل نقطة التجميع الخاصة بنا إلى أي من تلك النقاط وبقيت ثابتة عليها، فسوف ندرك عالماً شاملاً وكاملاً مثل عالم الحياة اليومية، ولكنه عالم مختلف مع ذلك.

وقد أوضح دون خوان كذلك أن فن السحر هو التلاعب بنقطة التجميع وجعلها تغير مواقعها

حسب الرغبة على الكرات المضيئة التي يشكلها البشر. نتيجة هذا التلاعب هي تحول في نقطة الاتصال مع بحر الوعي المظلم، والذي يجلب معه حزمة مختلفة من مليارات حقول الطاقة على شكل خيوط مضيئة تتقارب عند نقطة التجميع. إن نتيجة تقارب حقول الطاقة الجديدة عند نقطة التجميع هي أن الوعي من نوع مختلف عن الوعي الضروري لإدراك عالم الحياة اليومية يدخل حيز التنفيذ، محولاً حقول الطاقة الجديدة إلى بيانات حسية، وهي بيانات حسية يتم تفسيرها وإدراكها على أنها عالم مختلف لأن حقول الطاقة التي تولدها تختلف عن الحقول المعتادة.

لقد أكد أن التعريف الدقيق للسحر كممارسة هو القول بأن السحر هو التلاعب بنقطة التجميع لأغراض تغيير نقطة اتصالها المحورية مع بحر الوعي المظلم، مما يجعل من الممكن إدراك عوالم أخرى.

قال دون خوان إن فن المطاردة يدخل حيز التنفيذ بعد إزاحة نقطة التجمع. إن تثبيت نقطة التجميع في موضعها الجديد يضمن للسحرة أنهم سيدركون أي عالم جديد يدخلونه بكامله المطلق، تمامًا كما نفعل في عالم الشؤون العادية. بالنسبة لسحرة سلالة دون خوان، لم يكن عالم الحياة اليومية سوى جانب واحد من عالم كامل يتكون من ستمائة جانب على الأقل.

عاد دون خوان مرة أخرى إلى الموضوع قيد المناقشة: رحلاتي عبر بحر الوعي المظلم، وقال إن ما فعلته من صمتي الداخلي يشبه إلى حد كبير ما يحدث في الأحلام عندما يكون المرء نائماً. ومع ذلك، عند السفر عبر بحر الوعي المظلم، لم يكن هناك أي انقطاع من أي نوع بسبب النوم، ولم تكن هناك أي محاولة على الإطلاق للتحكم في انتباه المرء أثناء الحلم. استلزمت الرحلة عبر بحر الوعي المظلم استجابة فورية. كان هناك شعور طاغٍ باللحظة الراهنة. أعرب دون خوان عن أسفه لأن بعض السحرة الحمقى أطلقوا اسم "اليقظة الحالمة" على هذا الفعل المتمثل في الوصول مباشرة إلى بحر الوعي المظلم، مما جعل مصطلح "الحلم" أكثر سخافة.

وتابع قائلاً: "عندما ظننت أن لديك حلماً خيالياً بالذهاب إلى تلك المدينة التي اخترناها، كنت في الواقع قد وضعت نقطة تجمعك مباشرة على موقع محدد في بحر الوعي المظلم الذي يسمح بالرحلة". ثم زودك بحر الوعي المظلم بكل ما هو ضروري لمواصلة تلك الرحلة. لا توجد أي طريقة على الإطلاق لاختيار ذلك المكان حسب الرغبة. يقول السحرة إن الصمت الداخلي يختارها بلا خطأ. بسيط، أليس كذلك؟"

ثم شرح لي تعقيدات الاختيار. وقال إن الاختيار، بالنسبة للمحاربين المسافرين، لم يكن في الحقيقة فعل الاختيار، بل كان بالأحرى فعل الاستسلام بأناقة لإغراءات اللانهائية.

قال:"اللانهائية تختار". "إن فن المحارب المسافر هو أن يكون لديه القدرة على التحرك بأقل قدر من الإيحاء، فن الرضوخ لكل أمر للانهائية." ولهذا، يحتاج المحارب المسافر إلى البراعة والقوة، وقبل كل شيء، إلى الرصانة. كل هذه العناصر الثلاثة مجتمعة تعطي، نتيجة لذلك، أناقة!

بعد لحظة من التوقف، عدت إلى الموضوع الذي أثار اهتمامي أكثر من غيره. قلت: "لكن من غير المعقول أنني ذهبت بالفعل إلى تلك المدينة، يا دون خوان، بجسدي وروحي".

قال: "إنه أمر لا يصدق، لكنه ليس مستحيلاً". "الكون ليس له حدود، والإمكانيات المتاحة في الكون ككل لا يمكن قياسها بالفعل. لذا لا تقع فريسة للمقولة "أنا لا أصدق إلا ما أراه"، لأنه أغبى موقف يمكن للمرء أن يتخذه."

كان توضيح دون خوان واضحاً وضوح الشمس. كان الأمر منطقياً، لكنني لم أكن أعرف أين يكون منطقياً؛ بالتأكيد ليس في عالمي اليومي من الأمور المعتادة. أكد لي دون خوان حينها، مما أثار في نفسي خوفاً شديداً، أن هناك طريقة واحدة فقط يمكن للسحرة من خلالها التعامل مع كل هذه المعلومات: تذوقها من خلال التجربة، لأن العقل غير قادر على استيعاب كل هذا التحفيز.

"ماذا تريدني أن أفعل يا دون خوان؟" سألت.

"يجب أن تسافر عمدًا عبر بحر الوعي المظلم،" أجاب، "لكنك لن تعرف أبدًا كيف يتم ذلك. لنفترض أن الصمت الداخلي يفعل ذلك، باتباع طرق لا يمكن تفسيرها، وطرق لا يمكن فهمها، ولكن يتم ممارستها فقط ".

جعلني دون خوان أجلس على سريري واتخذ الموقف الذي عزز الصمت الداخلي. عادة ما أغفو على الفور كلما اتخذت هذا الوضع. لكن عندما كنت مع دون خوان، كان وجوده يجعل من المستحيل عليّ النوم؛ بدلاً من ذلك، كنت أدخل في حالة من الهدوء التام. هذه المرة، وبعد لحظة من الصمت، وجدت نفسي أسير. كان دون خوان يرشدني من خلال إمساك ذراعي أثناء سيرنا.

لم نعد في منزله؛ كنا نسير في بلدة ياكي لم أزرها من قبل. كنت أعرف بوجود المدينة؛ لقد كنت قريباً منها مرات عديدة، لكنني اضطررت إلى العودة بسبب العداء الشديد من الناس الذين يعيشون حولها. كانت بلدة يكاد يكون من المستحيل على الغريب دخولها.

كان المشرفون من البنك الفيدرالي هم الوحيدون من غير الياكي الذين كان لديهم حق الوصول الحر إلى تلك المدينة، وذلك لأن البنك كان يشتري المحاصيل من مزارعي الياكي. دارت المفاوضات التي لا تنتهي لمزارعي الياكي حول الحصول على سلف نقدية من البنك على أساس عملية شبه تكهنية بشأن المحاصيل المستقبلية.

تعرفت على المدينة على الفور من خلال أوصاف الأشخاص الذين كانوا هناك. وكأنما أراد دون خوان أن يزيد من دهشتي، همس في أذني بأننا كنا في بلدة الياكي المعنية. أردت أن أسأله كيف وصلنا إلى هناك، لكنني لم أستطع التعبير عن أفكاري بوضوح. كان هناك عدد كبير من الهنود يتحدثون بنبرة جدلية؛ وبدا أن التوتر قد اشتد. لم أفهم كلمة واحدة مما كانوا يقولونه، ولكن في اللحظة التي خطرت لي فيها فكرة أنني لا أستطيع الفهم، اتضح لي شيء ما. بدا الأمر كما لو أن المزيد من الضوء قد دخل إلى المشهد. أصبحت الأمور محددة ومنظمة للغاية، وفهمت ما كان الناس يقولونه على الرغم من أنني لم أكن أعرف كيف؛ لم أكن أتحدث لغتهم. كانت الكلمات مفهومة لي بالتأكيد، ليس بشكل منفرد، ولكن في مجموعات، كما لو أن عقلي يستطيع التقاط أنماط كاملة من الأفكار.

أستطيع أن أقول بكل صدق أنني تلقيت صدمة العمر، ليس لأنني فهمت ما كانوا يقولونه، ولكن بسبب مضمون ما كانوا يقولونه. كان هؤلاء الناس بالفعل محاربين. لم يكونوا رجالاً غربيين على الإطلاق.

كانت مقترحاتهم عبارة عن مقترحات تتعلق بالصراع والحرب والاستراتيجية. كانوا يقيسون قوتهم، ومواردهم الهجومية، ويندبون حقيقة أنهم لا يملكون القدرة على توجيه ضرباتهم. لقد سجلت في جسدي معاناة عجزهم. لم يكن لديهم سوى العصي والحجارة لمواجهة الأسلحة عالية التقنية. لقد حزنوا

على حقيقة أنهم لم يكن لديهم قادة. لقد كانوا يتوقون، أكثر من أي شيء آخر يمكن تخيله، إلى ظهور مقاتل يتمتع بالكاريزما قادر على حشدهم.

سمعت حينها صوت السخرية؛ عبر أحدهم عن فكرة بدت وكأنها تدمر الجميع بالتساوي، بمن فيهم أنا، لأنني بدوت جزءًا لا يتجزأ منهم. وقال إنهم هُزموا هزيمة لا رجعة فيها، لأنه إذا كان لدى أحدهم في لحظة معينة الكاريزما للنهوض وتوحيد صفوفهم، فسوف يتعرض للخيانة بسبب الحسد والغيرة والمشاعر المجروحة.

أردت أن أعلق لدون خوان على ما كان يحدث لي، لكنني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة. كان دون خوان وحده من يستطيع الكلام.

قال في أذني: "إن شعب الياكي ليسوا فريدين في تفاهة طباعهم". "إنها حالة يُحاصر فيها البشر، وهي حالة ليست حتى إنسانية، بل مفروضة من الخارج."

شعرتُ بفمي ينفتح وينغلق لا إرادياً بينما كنت أحاول بشدة طرح سؤال لم أكن أستطيع حتى تصوره. كان ذهني فارغاً، خالياً من الأفكار. كان دون خوان وأنا في وسط دائرة من الناس، لكن يبدو أن أحداً منهم لم يلاحظنا. لم أسجل أي حركة أو رد فعل أو نظرة خاطفة قد تشير إلى أنهم كانوا على علم بوجودنا.

وفي اللحظة التالية، وجدت نفسي في بلدة مكسيكية مبنية حول محطة سكة حديد، وهي بلدة تقع على بعد حوالي ميل ونصف شرق المكان الذي كان يعيش فيه دون خوان. كان دون خوان وأنا في منتصف الشارع بجوار البنك الحكومي. وبعد ذلك مباشرة، رأيت أحد أغرب المشاهد التي شهدتها على الإطلاق في عالم دون خوان. كنت أرى الطاقة أثناء تدفقها في الكون، لكنني لم أكن أرى البشر ككتل كروية أو مستطيلة من الطاقة. كان الناس من حولي، في لحظة، كائنات طبيعية من الحياة اليومية، وفي اللحظة التالية، أصبحوا مخلوقات غريبة. كان الأمر كما لو أن كرة الطاقة التي نحن عليها شفافة؛ كانت أشبه بهالة تحيط بنواة تشبه الحشرة. لم يكن ذلك الجزء الأساسي على شكل الرئيسيات. لم تكن هناك أجزاء هيكلية، لذلك لم أكن أرى الناس كما لو كان لدي رؤية بالأشعة السينية ذهبت إلى نواة العظام. بل إن جوهر البشر كان عبارة عن أشكال هندسية مصنوعة مما يبدو أنه اهتزازات صلبة للمادة. كان ذلك اللب أشبه بأحرف الأبجدية - بدا حرف T الكبير وكأنه الدعامة الهيكلية الرئيسية. تم تعليق حرف L سميك مقلوب أمام حرف T؛ وكان الحرف اليوناني دلتا، الذي وصل تقريبًا إلى الأرض، في أسفل الشريط الرأسي لحرف T، ويبدو أنه دعامة للهيكل بأكمله. رأيت فوق حرف T خيطًا يشبه الحبل، ربما قطره بوصة واحدة؛ كان يمر عبر الجزء العلوي من الكرة المضيئة، كما لو أن ما كنت أراه كان بالفعل حبة خرز عملاقة معلقة من الأعلى مثل جوهرة متدلية.

ذات مرة، قدم لي دون خوان استعارة لوصف الاتحاد النشط لخيوط البشر. وقال إن سحرة المكسيك القديمة وصفوا تلك الخيوط بأنها ستارة مصنوعة من خرز معلق على خيط. لقد أخذت هذا الوصف حرفياً، واعتقدت أن الخيط يمر عبر مجموعة حقول الطاقة التي نتكون منها من الرأس إلى أخمص القدمين. الخيط الذي كنت أراه يربط بين الأشياء، مما جعل الشكل الدائري لحقول الطاقة لدى البشر يبدو أشبه بقلادة. لكنني لم أرَ أي مخلوق آخر مربوطاً بنفس الخيط. كل مخلوق رأيته كان كائناً ذا نمط هندسي، وله نوع من الخيط في الجزء العلوي من هالة كروية. لقد ذكّرني الخيط بشدة بالأشكال الدودية المجزأة التي يراها بعضنا عندما تكون جفوننا نصف مغلقة في ضوء الشمس.

تجولت أنا ودون خوان في المدينة من طرف إلى آخر، ورأيت حرفياً عشرات المخلوقات ذات الأنماط الهندسية. كانت قدرتي على رؤيتهم غير مستقرة للغاية. كنت أراهم للحظة، ثم يغيبون عن نظري فأجد نفسي أمام أناس عاديين.

سرعان ما شعرت بالإرهاق، ولم أعد أرى سوى الناس العاديين. قال دون خوان إن الوقت قد حان للعودة إلى الوطن، ومرة أخرى، فقد شيء ما بداخلي إحساسي المعتاد بالاستمرارية. وجدت نفسي في منزل دون خوان دون أن يكون لدي أدنى فكرة عن كيفية قطعي المسافة من المدينة إلى المنزل. استلقيت على سريري وحاولت بشدة أن أتذكر، أن أستعيد ذاكرتي، أن أستكشف أعماق كياني بحثاً عن دليل على كيفية ذهابي إلى بلدة ياكي، وإلى بلدة محطة السكة الحديد. لم أصدق أنها كانت مجرد أحلام خيالية، لأن المشاهد كانت مفصلة للغاية بحيث لا يمكن أن تكون أي شيء سوى حقيقية، ومع ذلك فمن المستحيل أن تكون حقيقية.

قال دون خوان ضاحكاً: "أنت تضيع وقتك." أضمن لك أنك لن تعرف أبداً كيف انتقلنا من المنزل إلى بلدة ياكي، ومن بلدة ياكي إلى محطة السكة الحديد، ومن محطة السكة الحديد إلى المنزل.

حدث انقطاع في استمرارية الزمن. هذا ما يفعله الصمت الداخلي".

شرح لي بصبر أن انقطاع ذلك التدفق المستمر الذي يجعل العالم مفهوماً بالنسبة لنا هو سحر. وأشار إلى أنني سافرت في ذلك اليوم عبر بحر الوعي المظلم، وأنني رأيت الناس كما هم، يشاركون في أعمال الناس. ثم رأيت خيط الطاقة الذي ينضم إلى خطوط محددة من البشر.

أكد لي دون خوان مراراً وتكراراً أنني شهدت شيئاً محدداً وغير قابل للتفسير. لقد فهمت ما كان الناس يقولونه، دون أن أعرف لغتهم، ورأيت خيط الطاقة الذي يربط البشر بكائنات أخرى معينة، وقد اخترت تلك الجوانب من خلال فعل مقصود. لقد أكد على حقيقة أن هذه النية التي قمت بها لم تكن شيئًا واعيًا أو إراديًا؛ فقد تم القيام بهذه النية على مستوى عميق، وكانت محكومة بالضرورة. كنت بحاجة إلى أن أدرك بعض إمكانيات السفر عبر بحر الوعي المظلم، وقد أرشدني صمتي الداخلي - وهو قوة دائمة في الكون - إلى تلبية تلك الحاجة.

الوعي غير العضوي

في لحظة معينة خلال فترة تدريبي، كشف لي دون خوان عن مدى تعقيد وضعه الحياتي. لقد أصرّ، مما أثار استيائي ويأسي، على أنه يعيش في الكوخ في ولاية سونورا بالمكسيك، لأن ذلك الكوخ يجسد حالتي من الوعي. لم أصدق تماماً أنه كان يعني حقاً أنني فقير جداً، ولم أصدق أيضاً أنه يملك أماكن أخرى للعيش فيها، كما كان يدعي.

اتضح أنه كان محقاً في كلا الأمرين. كانت حالتي الذهنية ضئيلة للغاية، وكان لديه أماكن أخرى يمكنه أن يعيش فيها، وهي أكثر راحة بكثير من الكوخ الذي وجدته فيه لأول مرة. ولم يكن الساحر المنعزل الذي كنت أظنه، بل كان قائد مجموعة من خمسة عشر محاربًا مسافرًا آخر: عشر نساء وخمسة رجال. كانت دهشتي هائلة عندما اصطحبني إلى منزله في وسط المكسيك، حيث كان يعيش هو ورفاقه من السحرة.

"هل عشت في سونورا بسببي فقط يا دون خوان؟" سألته، غير قادر على تحمل المسؤولية، الأمر الذي ملأني بالذنب والندم والشعور بانعدام القيمة. "حسنًا، لم أكن أعيش هناك بالفعل"، قال ضاحكًا. **"لقد** قابلتك هناك فقط."

قلت: "لكنك لم تكن تعلم متى سأزورك يا دون خوان". "لم يكن لدي أي وسيلة لإخبارك!"

قال: "حسنًا، إذا كنت تتذكر بشكل صحيح، فقد كانت هناك أوقات كثيرة جدًا لم تجدني فيها. كان عليك أن تجلس بصبر وتنتظرني، لأيام أحياناً."

"هل سافرت جواً من هنا إلى غوايماس يا دون خوان؟" سألته بجدية. كنت أعتقد أن أقصر طريق هو ركوب الطائرة.

"لا، لم أسافر جواً إلى غوايماس"، قالها بابتسامة عريضة. "لقد حلقت مباشرة إلى الكوخ الذي كنت تنتظر فيه."

كنت أعلم أنه كان يخبرني عمداً بشيء لا يستطيع عقلي الخطي فهمه أو قبوله، شيء كان يربكني بشدة. كنت في تلك الأيام على مستوى من الوعي، عندما سألت نفسي باستمرار سؤالاً مصيرياً: ماذا لو كان كل ما يقوله دون خوان صحيحاً؟

لم أرغب في طرح المزيد من الأسئلة عليه، لأنني كنت تائهاً تماماً، أحاول الربط بين مساري فكرنا

وعملنا.

في محيطه الجديد، بدأ دون خوان بتعليمي بدقة في جانب أكثر تعقيداً من معرفته، وهو جانب تطلب كل انتباهي، جانب لم يكن فيه مجرد تعليق الحكم كافياً. كان هذا هو الوقت الذي اضطر فيه المرء إلى الغوص في أعماق معرفته. كان عليّ أن أتوقف عن الموضوعية، وفي الوقت نفسه كان عليّ أن أتوقف عن الذاتية.

في أحد الأيام، كنت أساعد دون خوان في تنظيف بعض أعمدة الخيزران في الجزء الخلفي من منزله. طلب مني أن أرتدي قفازات العمل، لأنه قال إن شظايا الخيزران حادة للغاية وتسبب الإلتهابات بسهولة. أرشدني إلى كيفية استخدام السكين لتنظيف الخيزران. انغمست في العمل. عندما بدأ دون خوان بالتحدث معي، اضطررت للتوقف عن العمل حتى أتمكن من الإنصات إليه. قال لي إنني عملت لفترة كافية، وأنه يجب علينا الدخول إلى المنزل.

طلب مني أن أجلس على كرسي مريح للغاية في غرفة معيشته الواسعة شبه الفارغة. أعطاني بعض المكسرات والمشمش المجفف وشرائح الجبن، مرتبة بعناية على طبق. احتججتُ بأنني أريد إنهاء تنظيف الخيزران. لم أكن أرغب في تناول الطعام. لكنه لم يكترث بي. أوصى بأن أتناول الطعام ببطء وحذر، لأنني سأحتاج إلى إمداد ثابت من الطعام حتى أكون متيقظًا ومنتبهًا لما سيخبرني به.

"أنت تعلم بالفعل،" بدأ حديثه، "أن هناك قوة دائمة موجودة في الكون، والتي أطلق عليها سحرة المكسيك القديمة اسم البحر المظلم للوعي.وبينما كانوا في ذروة قدرتهم على الإدراك، رأوا شيئاً جعلهم يرتجفون في سراويلهم، إن كانوا يرتدونها أصلاً. لقد رأوا أن بحر الوعي المظلم ليس مسؤولاً فقط عن وعي الكائنات الحية، بل أيضاً عن وعي الكيانات التي لا تمتلك كائناً حياً.

"ما هذا يا دون خوان، كائنات بلا كائن حيّ لكنها تتمتع بالوعي؟" سألته بدهشة، لأنه لم يذكر مثل هذه الفكرة من قبل.

"اكتشف الشامان القدماء أن الكون بأكمله يتكون من قوتين متقابلتين،" بدأ حديثه، "قوتين متعارضتين ومتكاملتين في الوقت نفسه." لا مفر من أن عالمنا عالم توأم. عالمها المقابل والمكمل هو عالم تسكنه كائنات لديها وعي، ولكنها ليست كائنات حية. ولهذا السبب، أطلق عليهم الشامان القدماء اسم "الكائنات غير العضوية".

"وأين هذا العالم يا دون خوان؟" سألتُ وأنا أتناول قطعة من المشمش المجفف دون وعي.

أجاب ببساطة: "هنا، حيث نجلس أنا وأنت"، لكنه كان يضحك بصوت عالٍ على توتري. "لقد أخبرتك أنه عالمنا التوأم، لذا فهو مرتبط بنا ارتباطاً وثيقاً." لم يكن سحرة المكسيك القديمة يفكرون مثلك فيما يتعلق بالمكان والزمان. لقد فكروا حصراً من منظور الوعي. يتعايش نوعان من الوعي دون أن يؤثر أحدهما على الآخر، لأن كل نوع يختلف تمامًا عن الآخر. واجه الشامان القدامى مشكلة التعايش هذه دون أن يهتموا بالزمان والمكان. لقد استنتجوا أن درجة وعي الكائنات العضوية ودرجة وعي الكائنات غير العضوية مختلفتان لدرجة أن كليهما يمكن أن يتعايش بأقل قدر من التدخل".

"هل يمكننا إدراك تلك الكائنات غير العضوية يا دون خوان ؟" سألت. "بالتأكيد نستطيع"، أجاب. "السحرة يفعلون ذلك حسب الرغبة. الناس العاديون يفعلون ذلك، لكنهم لا يدركون أنهم يفعلون ذلك لأنهم لا يدركون وجود عالم توأم. عندما يفكرون في عالم توأم، فإنهم يدخلون في جميع أنواع الاستمناء العقلي، لكن لم يخطر ببالهم قط أن خيالاتهم تنبع من معرفة لا شعورية نمتلكها جميعًا: أننا لسنا وحدنا.

لقد انبهرت بكلمات دون خوان. فجأة، شعرت بجوع شديد. كان هناك فراغ في جوفي. كل ما استطعت فعله هو الاستماع بأقصى قدر من الانتباه، وتناول الطعام.

وتابع قائلاً: "تكمن الصعوبة في مواجهة الأمور من حيث الزمان والمكان في أنك لا تلاحظ إلا إذا هبط شيء ما في المكان والزمان المتاحين لك، وهو أمر محدود للغاية". أما السحرة، من ناحية أخرى، فلديهم مجال واسع يمكنهم من خلاله ملاحظة ما إذا كان هناك شيء غريب قد هبط. الكثير من الكيانات من الكون ككل، كيانات تمتلك الوعي ولكن ليس كائناً حياً، تهبط في مجال وعي عالمنا، أو مجال وعي عالمه التوأم، دون أن يلاحظها الإنسان العادي على الإطلاق. الكيانات التي تهبط على مجال وعينا، أو مجال وعي عالمنا التوأم، تنتمي إلى عوالم أخرى موجودة إلى جانب عالمنا وتوأمه. إن الكون بأسره مليء بعوالم الوعي، العضوية وغير العضوية.

واصل دون خوان حديثه وقال إن هؤلاء السحرة كانوا يعرفون متى هبط الوعي غير العضوي من عوالم أخرى غير عالمنا التوأم في مجال وعيهم. وقال إنه كما يفعل كل إنسان على وجه الأرض، قام هؤلاء الشامان بتصنيفات لا حصر لها لأنواع مختلفة من هذه الطاقة التي تتمتع بالوعي. كانوا يعرفونها بالمصطلح العام "الكائنات غير العضوية".

"هل تمتلك تلك الكائنات غير العضوية حياة مثلنا؟" سألت. وقال: "إذا كنت تعتقد أن الحياة تعني الوعي، فإنهم يملكون الحياة". "أظن أنه من الدقة القول بأنه إذا كان بالإمكان قياس الحياة من خلال شدة ذلك الوعي، ووضوحه، ومدته، فيمكنني القول بصدق إنهم أكثر حيوية مني ومنك." "هل تموت تلك الكائنات غير العضوية يا دون خوان؟" سألت. ضحك دون خوان للحظة قبل أن يجيب. "إذا كنت تسمي الموت نهاية الوعي، نعم، إنهم يموتون. ينتهي وعيهم. إن موتهم يشبه إلى حد كبير موت الإنسان، وفي الوقت نفسه، ليس كذلك، لأن موت البشر له خيار خفي. يشبه الأمر بنداً في وثيقة قانونية، بنداً مكتوباً

بأحرف صغيرة بالكاد يمكنك رؤيتها. يجب عليك استخدام عدسة مكبرة لقراءتها، ومع ذلك فهي أهم بند في الوثيقة." "ما هو الخيار الخفي يا دون خوان؟"

"خيار الموت الخفي مخصص حصرياً للسحرة. هم الوحيدون الذين قرأوا التفاصيل الدقيقة، على حد علمي. بالنسبة لهم، هذا الخيار مناسب وعملي. بالنسبة للبشر العاديين، يعني الموت نهاية وعيهم، ونهاية أجسامهم. بالنسبة للكائنات غير العضوية، يعني الموت الشيء نفسه: نهاية وعيها. في كلتا الحالتين، يتمثل أثر الموت في فعل الانجذاب إلى بحر الوعي المظلم، ووعيهم الفردي، المحمل بتجارب حياتهم، يكسر حدوده، ويتدفق الوعي كطاقة إلى بحر الوعي المظلم.

"لكن ما هو الخيار الخفي للموت الذي لا يكتشفه إلا السحرة يا دون خوان؟" سألت.

"بالنسبة للساحر، الموت عامل موحد. بدلاً من أن يؤدي الموت إلى تفكك الكائن الحي، كما هو الحال عادةً، فإنه يوحده." "كيف يمكن للموت أن يوحد أي شيء؟" لقد احتججت. وقال: "الموت بالنسبة للساحر ينهي حكم الحالات المزاجية الفردية في الجسد. كان السحرة القدماء يعتقدون أن اختلال وظائف أجزاء الجسم المختلفة هو الذي يتحكم في مزاج وتصرفات الجسم ككل؛ فالأجزاء التي تصبح مختلة وظيفيًا تجر بقية الجسم إلى الفوضى، كما هو الحال، على سبيل المثال، عندما تمرض أنت نفسك من تناول الوجبات السريعة. في هذه الحالة، يؤثر مزاج معدتك على كل شيء آخر. الموت يقضي على سيطرة تلك الأجزاء الفردية. إنه يوحد وعيهم في وحدة واحدة."

"هل تقصد أن السحرة يظلون على دراية بعد موتهم؟" سألت.

"بالنسبة للسحرة، الموت هو فعل توحيد يستغل كل جزء من طاقتهم. أنت تفكر في الموت كجثة أمامك، جسد استقر عليه التحلل. بالنسبة للسحرة، عندما يحدث فعل التوحيد، لا توجد جثة. لا يوجد تحلل. لقد تحولت أجسادهم بالكامل إلى طاقة، طاقة تمتلك وعياً غير مجزأ. إن الحدود التي يضعها الكائن الحي، والحدود التي يكسرها الموت، لا تزال تعمل في حالة السحرة، على الرغم من أنها لم تعد مرئية للعين المجردة.

وتابع بابتسامة عريضة: "أعلم أنك تتوق لسؤالي عما إذا كان ما أصفه هو النفس التي تذهب إلى الجحيم أو الجنة". لا، إنها ليست النفس. ما يحدث للسحرة، عندما يختارون خيار الموت الخفي، هو أنهم يتحولون إلى كائنات غير عضوية، كائنات غير عضوية متخصصة للغاية وعالية السرعة، كائنات قادرة على القيام بمناورات إدراكية هائلة. ثم يدخل السحرة فيما كان يسميه الشامان في المكسيك القديمة رحلتهم النهائية. تصبح اللانهائية مجال عملهم.

"هل تقصد بهذا يا دون خوان أنهم يصبحون خالدين؟"

قال: "إن رصانتي كساحر تخبرني أن وعيهم سينتهي، بالطريقة التي ينتهي بها وعي الكائنات غير العضوية، لكنني لم أرَ هذا يحدث". ليس لدي أي معرفة مباشرة بهذا الأمر. كان السحرة القدماء يعتقدون أن الوعي بهذا النوع من الكائنات غير العضوية سيستمر طالما بقيت الأرض على قيد الحياة. الأرض هي مصفوفة وجودهم. طالما أنها سائدة، يستمر وعيهم. بالنسبة لي، هذا بيان معقول للغاية."

كان تسلسل وترتيب شرح دون خوان، بالنسبة لي، رائعاً. لم يكن لدي أي وسيلة على الإطلاق للمساهمة. لقد تركني بشعور من الغموض وتوقعات غير معلنة تنتظر أن تتحقق.

في زيارتي التالية لدون خوان، بدأت حديثي معه بسؤاله بلهفة سؤالاً كان يشغل بالي في المقام الأول.

"هل من الممكن يا دون خوان أن تكون الأشباح والظواهر الخارقة موجودة بالفعل؟"

وقال: "مهما كان ما تسميه شبحًا أو ظهورًا، فعندما يفحصه ساحر، فإنه يختزل إلى مسألة واحدة - من الممكن أن يكون أي من تلك الظهورات الشبيهة بالأشباح عبارة عن تكتل من حقول الطاقة التي تتمتع بالوعي، والتي نحولها إلى أشياء نعرفها". إذا كان الأمر كذلك، فإن الأشباح تمتلك طاقة. يسميها السحرة تكوينات توليد الطاقة. أو، لا تنبعث أي طاقة منها، وفي هذه الحالة تكون إبداعات خيالية، وعادة ما تكون لشخص قوي جدًا - قوي من حيث الوعي.

وتابع دون خوان قائلاً: "إحدى القصص التي أثارت اهتمامي بشكل كبير هي القصة التي أخبرتني بها ذات مرة عن عمتك. هل تتذكر ذلك؟"

أخبرت دون خوان أنني عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري ذهبت للعيش في منزل عمة والدي. كانت تعيش في منزل ضخم يحتوي على ثلاث ساحات مع أماكن معيشة بين كل منها - غرف نوم، غرف معيشة، إلخ. كان الفناء الأول بسيطاً للغاية، مرصوفاً بالحصى. أخبروني أنه منزل يعود إلى الحقبة الاستعمارية وأن هذا الفناء الأول كان المكان الذي كانت تدخل إليه العربات التي تجرها الخيول. كان الفناء الثاني عبارة عن بستان جميل تتخلله ممرات من الطوب بتصميم مغربي، ومليء بأشجار الفاكهة. كانت الشرفة الثالثة مغطاة بأواني الزهور المعلقة من حواف السقف، والطيور في أقفاص، ونافورة على الطراز الاستعماري في وسطها بها مياه جارية، بالإضافة إلى مساحة كبيرة مسيجة بشبك الدجاج، مخصصة لديكة القتال الثمينة لعمتي، وهو ما كانت تفضله في الحياة.

وفرت لي عمتي شقة كاملة تقع مباشرة أمام بستان الفاكهة. ظننت أنني سأقضي هناك أوقاتاً لا تُنسى. كان بإمكاني أن آكل كل الفاكهة التي أريدها. لم يلمس أحد آخر في المنزل ثمار أي من تلك الأشجار، لأسباب لم يتم الكشف عنها لي قط. كان المنزل يتألف من عمتي، وهي سيدة طويلة القامة، ذات وجه مستدير، ممتلئة الجسم، في الخمسينيات من عمرها، مرحة للغاية، وروائية بارعة، ومليئة بالغرائب

التي كانت تخفيها وراء واجهة رسمية ومظهر التدين الكاثوليكي. كان هناك كبير الخدم، رجل طويل القامة ومهيب في أوائل الأربعينيات من عمره، كان رقيبًا أول في الجيش، وقد تم استدراجه من الخدمة ليشغل منصب كبير الخدم والحارس الشخصي والرجل الشامل في منزل عمتي، وهو منصب ذو أجر أفضل. كانت زوجته، وهي شابة جميلة، رفيقة عمتي وطباختها وموضع ثقتها. كان للزوجين أيضاً ابنة، فتاة صغيرة ممتلئة الجسم تشبه عمتي تماماً. كان الشبه بينهما قوياً لدرجة أن عمتي تبنتها قانونياً.

كان هؤلاء الأربعة أكثر الناس هدوءاً الذين قابلتهم في حياتي. لقد عاشوا حياة هادئة للغاية، لم يقطعها سوى غرائب أطوار عمتي، التي كانت تقرر فجأة القيام برحلات، أو شراء ديوك قتالية جديدة واعدة، وتدريبها، وإقامة مسابقات جدية تتضمن مبالغ طائلة من المال. كانت تعتني بديكة المصارعة الخاصة بها بعناية فائقة، وأحيانًا طوال اليوم. ارتدت قفازات جلدية سميكة وجوارب جلدية صلبة لمنع الديوك المقاتلة من نخسها.

قضيت شهرين رائعين أعيش في منزل عمتي. كانت تعلمني الموسيقى في فترة ما بعد الظهر، وتروي لي قصصاً لا تنتهي عن أسلاف عائلتي. كان وضعي المعيشي مثالياً بالنسبة لي لأنني كنت أخرج مع أصدقائي ولم أكن مضطراً لإبلاغ أي شخص بوقت عودتي. كنت أحياناً أقضي ساعات دون أن أغفو، مستلقياً على سريري. كنت أترك نافذتي مفتوحة لأسمح لرائحة زهر البرتقال أن تملأ غرفتي. كلما كنت مستلقياً هناك مستيقظاً، كنت أسمع شخصاً يسير في ممر طويل يمتد على طول العقار بأكمله من الجهة الشمالية، ويربط جميع أفنية المنزل. كان لهذا الممر أقواس جميلة وأرضية من البلاط. كانت هناك أربع مصابيح كهربائية ذات جهد منخفض تضيء الممر بشكل خافت، وهي مصابيح يتم تشغيلها في الساعة السادسة مساءً كل يوم وإطفاؤها في الساعة السادسة صباحًا.

سألت عمتي عما إذا كان أي شخص يمشي ليلاً ويتوقف عند نافذتي، لأن كل من كان يمشي كان يتوقف دائماً عند نافذتي، ثم يستدير ويعود مرة أخرى باتجاه المدخل الرئيسي للمنزل.

قالت عمتي مبتسمة: "لا تشغلي نفسكِ بالهراء يا عزيزتي". "ربما يكون كبير خدمنا، يقوم بجولاته المعتادة. وإن يكن! هل كنت خائفاً؟"

قلت: "لا، لم أكن خائفاً، لقد شعرت بالفضول فقط، لأن كبير خدمنا يمشي إلى غرفتي كل ليلة. أحياناً توقظني خطواته."

رفضت استفساري بأسلوب جاف، قائلة إن كبير الخدم كان رجلاً عسكرياً وكان معتاداً على القيام بجولاته، كما يفعل الحارس. لقد قبلت تفسيرها.

في أحد الأيام، ذكرت للخادم أن خطواته كانت صاخبة للغاية، وسألته عما إذا كان سيقوم بجولاته حول نافذتي بعناية أكبر حتى أتمكن من النوم.

"لا أعرف عما تتحدث!" قال ذلك بصوت أجش. قلت: "أخبرتني عمتي أنك تقوم بجولاتك ليلاً".

"أنا لا أفعل مثل هذا الشيء أبداً!" قال ذلك وعيناه تشتعلان بالاشمئزاز. "لكن من يمر بجوار نافذتي إذن؟"

"لا أحد يمر بجوار نافذتك. أنت تتخيل أشياءً. عد إلى النوم. لا تثير المشاكل. أقول لك هذا لمصلحتك."

لم يكن هناك ما هو أسوأ بالنسبة لي في تلك السنوات من أن يخبرني أحدهم أنه يفعل شيئاً لمصلحتي. في تلك الليلة، بمجرد أن بدأت أسمع وقع الأقدام، نهضت من سريري ووقفت خلف الجدار المؤدي إلى مدخل شقتي. عندما حسبت أن الشخص الذي كان يسير كان بجوار المصباح الثاني، أخرجت رأسي لألقي نظرة على الممر. توقفت الخطوات فجأة، ولكن لم يكن هناك أحد في الأفق. كان الممر ذو الإضاءة الخافتة مهجوراً. لو كان هناك شخص يسير هناك، لما كان لديه الوقت للاختباء لأنه لم يكن هناك مكان للاختباء. لم يكن هناك سوى جدران عارية.

كان خوفي شديداً لدرجة أنني أيقظت جميع أفراد المنزل بالصراخ بأعلى صوتي. حاولت عمتي وخادمها تهدئتي بإخباري أنني كنت أتخيل كل ذلك، لكن انفعالي كان شديداً لدرجة أنهما اعترفا في النهاية بخجل أن شيئاً مجهولاً لهما كان يدخل ذلك المنزل كل ليلة.

قال دون خوان إنه من شبه المؤكد أن عمتي هي التي كانت تمشي في الليل؛ أي أن هناك جانبًا من وعيها لم يكن لديها سيطرة إرادية عليه.

كان يعتقد أن هذه الظاهرة تخضع لحس المرح أو الغموض الذي كانت تنميه. كان دون خوان متأكدًا من أنها ليست فكرة بعيدة المنال أن عمتي، على مستوى اللاوعي، لم تكن فقط هي من تصدر كل تلك الأصوات، بل كانت قادرة أيضًا على القيام بتلاعبات أكثر تعقيدًا بالوعي. وقال دون خوان أيضاً إنه لكي يكون منصفاً تماماً، كان عليه أن يعترف باحتمالية أن تكون هذه الخطوات نتاجاً لوعي غير عضوي.

قال دون خوان إن الكائنات غير العضوية التي تسكن عالمنا التوأم كانت تعتبر، من قبل سحرة سلالته، أقاربنا. كان هؤلاء الشامان يعتقدون أنه من العبث تكوين صداقات مع أفراد عائلاتنا لأن المطالب المفروضة علينا لمثل هذه الصداقات كانت دائماً باهظة. وقال إن هذا النوع من الكائنات غير العضوية، الذين هم أبناء عمومتنا، يتواصلون معنا باستمرار، لكن تواصلهم معنا ليس على مستوى الوعي. بمعنى آخر، نحن نعرف كل شيء عنهم بطريقة لا شعورية، بينما هم يعرفون كل شيء عنا بطريقة متعمدة وواعية.

"طاقة أبناء عمومتنا من الدرجة الأولى مزعجة للغاية!" وتابع دون خوان حديثه. "إنهم في حالة فوضى مثلنا تماماً. لنفترض أن الكائنات العضوية وغير العضوية في عوالمنا التوأم هي أبناء أختين تعيشان بجوار بعضهما البعض. هما متطابقان تماماً رغم اختلاف مظهرهما. لا يستطيعون مساعدتنا، ولا نستطيع مساعدتهم. ربما نستطيع أن نتحد معًا، ونؤسس شركة عائلية رائعة، لكن ذلك لم يحدث. كلا فرعي العائلة حساسان للغاية ويغضبان من لا شيء، وهي علاقة نموذجية بين أبناء العمومة الحساسين. كان جوهر المسألة، كما اعتقد سحرة المكسيك القديمة، هو أن كلاً من البشر والكائنات غير العضوية من العالمين التوأمين يعانون من جنون الأنانية."

بحسب دون خوان، فإن تصنيفًا آخر وضعه سحرة المكسيك القديمة للكائنات غير العضوية هو تصنيف الكشافة أو المستكشفين، وكانوا يقصدون بذلك الكائنات غير العضوية التي أتت من أعماق الكون، والتي كانت تمتلك وعيًا أكثر حدة وسرعة بشكل لا نهائي من وعي البشر. أكد دون خوان أن السحرة القدامى أمضوا أجيالاً في صقل مخططات تصنيفهم، وكانت استنتاجاتهم أن أنواعاً معينة من الكائنات غير العضوية من فئة الكشافة أو المستكشفين، بسبب حيويتهم، كانت شبيهة بالإنسان. بإمكانهم إقامة علاقات وتأسيس علاقة تكافلية مع البشر. أطلق السحرة القدماء على هذه الأنواع من الكائنات غير العضوية اسم الحلفاء.

أوضح دون خوان أن الخطأ الجوهري الذي ارتكبه هؤلاء الشامان فيما يتعلق بهذا النوع من الكائنات غير العضوية هو إضفاء خصائص بشرية على تلك الطاقة غير الشخصية والاعتقاد بأنهم قادرون على تسخيرها. لقد اعتبروا تلك الكتل من الطاقة بمثابة مساعدين لهم، واعتمدوا عليها دون أن يدركوا أنها، كونها طاقة خالصة، لا تملك القدرة على دعم أي جهد.

قال دون خوان فجأة: "لقد أخبرتك بكل ما يمكن معرفته عن الكائنات غير العضوية". "الطريقة الوحيدة لاختبار هذا الأمر هي من خلال التجربة المباشرة."

لم أسأله عما يريدني أن أفعله. تسبب خوف عميق في ارتعاش جسدي بتشنجات عصبية انفجرت مثل ثوران بركاني من ضفيرة الشمس وامتدت إلى أطراف أصابع قدمي وإلى أعلى جذعي.

"اليوم، سنذهب للبحث عن بعض الكائنات غير العضوية"، هكذا أعلن.

أمرني دون خوان بالجلوس على سريري واتخاذ الوضعية التي تعزز الصمت الداخلي، فامتثلت لأمره بسهولة غير عادية. في العادة، كنت سأتردد، ربما ليس بشكل علني، لكنني كنت سأشعر بشيء من التردد على أي حال. كان لدي فكرة غامضة أنه بحلول الوقت الذي جلست فيه، كنت بالفعل في حالة من الصمت الداخلي. لم تعد أفكاري واضحة. شعرت بظلام دامس

يحيط بي، مما جعلني أشعر وكأنني أغفو. كان جسدي بلا حراك تماماً، إما لأنني لم أكن أنوي إصدار أي أوامر للتحرك أو لأنني ببساطة لم أستطع صياغتها.

وبعد لحظات، وجدت نفسي برفقة دون خوان، نسير في صحراء سونوران. لقد تعرفت على المكان؛ فقد كنت هناك معه مرات عديدة لدرجة أنني حفظت كل تفاصيله. كان ذلك في نهاية اليوم، وخلق ضوء الشمس الغاربة في داخلي شعوراً باليأس. مشيت بشكل تلقائي، مدركاً أنني أشعر في جسدي بأحاسيس لا تصاحبها أفكار. لم أكن أصف لنفسي حالتي. أردت أن أخبر دون خوان بهذا، لكن الرغبة في إيصال أحاسيسي الجسدية إليه تلاشت في لحظة.

قال دون خوان ببطء شديد، وبصوت منخفض ووقور، إن مجرى النهر الجاف الذي كنا نسير عليه هو المكان الأنسب لأمرنا المطروح، وأنه يجب عليّ أن أجلس على صخرة صغيرة بمفردي، بينما يذهب ويجلس على صخرة أخرى على بعد حوالي خمسين قدماً. لم أسأل دون خوان، كما كنت أفعل عادةً، عما كان من المفترض أن أفعله. كنت أعرف ما يجب علي فعله. سمعت حينها حفيف خطوات الناس وهم يسيرون بين الشجيرات المتناثرة في الأنحاء. لم تكن هناك رطوبة كافية في المنطقة تسمح بنمو كثيف للأعشاب والشجيرات. كانت تنمو هناك بعض الشجيرات القوية، مع وجود مسافة ربما تبلغ عشرة أو خمسة عشر قدمًا بينها.

ثم رأيت رجلين يقتربان. يبدو أنهما رجال محليان، ربما من هنود الياكي من إحدى بلدات الياكي في المنطقة المجاورة. جاءا ووقفا بجانبي. سألني أحدهم ببرود عن حالي. أردت أن أبتسم له، أن أضحك، لكنني لم أستطع. كان وجهي متصلباً للغاية. ومع ذلك كنت مبتهجاً. أردتُ أن أقفز فرحاً، لكنني لم أستطع. أخبرته أنني كنت بخير. ثم سألتهما من هما. قلت لهما إني لا أعرفهما، ومع ذلك شعرت بألفة غير عادية معهما - قال أحد الرجال، بكل بساطة، إنهم حلفائي.

حدقت بهم محاولاً حفظ ملامحهما، لكن ملامحهما تغيرت. بدت وكأنها تتشكل وفقًا لحالة نظرتي. لم تكن هناك أي أفكار متضمنة. كان كل شيء خاضعاً للأحاسيس الغريزية. حدقت فيهما لفترة كافية لمحو ملامحهما تمامًا، وأخيرًا، وجدت نفسي أمام كتلتين لامعتين من الضوء تهتزان. لم تكن لبقع الإضاءة حدود. بدا أنهما يحافظان على تماسكهما من الداخل. وفي بعض الأحيان، أصبحت مسطحة وعريضة. ثم ستتخذ وضعية عمودية مرة أخرى، بطول رجل.

فجأة، شعرت بذراع دون خوان تمسك بذراعي اليمنى وتسحبني من الصخرة. قال إن الوقت قد حان للرحيل. وفي اللحظة التالية، وجدت نفسي في منزله مرة أخرى، في وسط المكسيك، أكثر حيرة من أي وقت مضى.

قال: "اليوم ، وجدت وعيًا غير عضوي ، ثم رأيت الأمر كما هو في الواقع". "الطاقة هي البقايا غير القابلة للاختزال لكل شيء. بالنسبة لنا، فإن رؤية الطاقة بشكل مباشر هي الأساس بالنسبة للإنسان. ربما توجد أشياء أخرى أبعد من ذلك، لكنها غير متاحة لنا.

أكد دون خوان كل هذا مراراً وتكراراً، وفي كل مرة كان يقولها، بدت كلماته وكأنها ترسخني أكثر فأكثر، لتساعدني على العودة إلى حالتي الطبيعية.

أخبرت دون خوان بكل ما شاهدته، وكل ما سمعته. أوضح لي دون خوان أنني نجحت في ذلك اليوم في تحويل الشكل البشري للكائنات غير العضوية إلى جوهرها: طاقة غير شخصية واعية بذاتها.

قال: "يجب أن تدرك أن إدراكنا، الذي هو في جوهره نظام تفسيري، هو الذي يحد من مواردنا". إن نظام التفسير الخاص بنا هو ما يخبرنا بمعايير إمكانياتنا، وبما أننا نستخدم نظام التفسير هذا طوال حياتنا، فلا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نجرؤ على مخالفة قواعده.

وتابع دون خوان قائلاً: "إن طاقة تلك الكائنات غير العضوية تدفعنا"، ونحن نفسر هذا الدفع قدر الإمكان، اعتمادًا على مزاجنا. إن أكثر الأمور رصانة التي يمكن أن يفعلها الساحر هي إحالة تلك الكيانات إلى مستوى مجرد. كلما قلّت التفسيرات التي يقدمها السحرة، كان ذلك أفضل لهم. وتابع قائلاً: "من الآن فصاعداً، كلما واجهت مشهداً غريباً لظهور شبح، تمسك بموقفك وانظر إليه بثبات لا يتزعزع. إذا كان كائنًا غير عضوي، فسوف يسقط تفسيرك له مثل الأوراق الميتة. إذا لم يحدث شيء، فهو مجرد هراء تافه من عقلك، والذي ليس عقلك على أي حال".

الرؤية الواضحة

لأول مرة في حياتي، وجدت نفسي في حيرة تامة بشأن كيفية التصرف في العالم. لم يتغير العالم من حولي. من المؤكدأن ذلك نابع من عيب فيّ. كان تأثير دون خوان وجميع الأنشطة الناجمة عن ممارساته، والتي زج بي فيها بعمق شديد، يؤثر عليّ سلباً ويسبب لي عجزاً خطيراً عن التعامل مع إخواني من البشر. لقد فحصت مشكلتي وخلصت إلى أن عيبي يكمن في هوسي بتقييم الجميع باستخدام دون خوان كمعيار.

كان دون خوان، في تقديري، كائناً عاش حياته بشكل احترافي، بكل معنى الكلمة، مما يعني أن كل فعل من أفعاله، مهما كان تافهاً، كان له قيمة. كنت محاطًا بأشخاص يعتقدون أنهم كائنات خالدة، يناقضون أنفسهم في كل خطوة على الطريق؛ كانوا كائنات لا يمكن تفسير أفعالهم أبدًا. كانت لعبة غير عادلة؛ كانت الظروف غير مواتية للأشخاص الذين قابلتهم. لقد اعتدت على سلوك خوان الثابت، وعلى افتقاره التام إلى الشعور بأهمية الذات، وعلى النطاق الواسع لعقله؛ وقلة قليلة من الأشخاص الذين عرفتهم كانوا يدركون حتى وجود نمط سلوكي آخر يعزز تلك الصفات. معظمهم لم يعرفوا سوى نمط السلوك القائم على التأمل الذاتي، والذي يجعل البشر ضعفاء ومنحرفين.

وبالتالي، كنت أواجه صعوبة بالغة في دراستي الأكاديمية. كنت أفقدهم من نظري. حاولتُ جاهدًا إيجاد مبرر يبرر مساعي الأكاديمية. الشيء الوحيد الذي ساعدني ومنحني صلة، مهما كانت واهية، بالأوساط الأكاديمية هو التوصية التي قدمها لي دون خوان ذات مرة بأن المحاربين المسافرين يجب أن يكون لديهم علاقة حب مع المعرفة، بأي شكل من الأشكال التي تُقدم بها المعرفة.

لقد عرّف مفهوم المحاربين المسافرين، قائلاً إنه يشير إلى السحرة الذين، من خلال كونهم محاربين، يسافرون في بحر الوعي المظلم. وأضاف أن البشر كانوا مسافرين في بحر الوعي المظلم، وأن هذه الأرض لم تكن سوى محطة في رحلتهم؛ ولأسباب خارجية، لم يرغب في الكشف عنها في ذلك الوقت، فقد قطع المسافرون رحلتهم. وقال إن البشر عالقون في نوع من الدوامة، تيار يدور في دوائر، مما يعطيهم انطباعًا بالحركة بينما هم في جوهرهم ثابتون. وأكد أن السحرة هم الخصوم الوحيدون لأي قوة تُبقي البشر أسرى، وأنهم من خلال انضباطهم يتحررون من قبضتها ويواصلون رحلتهم في الوعي.

إن ما أدى إلى الاضطراب الفوضوي الأخير في حياتي الأكاديمية هو عدم قدرتي على تركيز اهتمامي على مواضيع ذات أهمية أنثروبولوجية لم تكن تعني لي شيئاً، ليس بسبب افتقارها للجاذبية ولكن لأنها كانت في الغالب مسائل كان لا بد من التلاعب فيها بالكلمات والمفاهيم، كما هو الحال في وثيقة قانونية، للحصول على نتيجة معينة من شأنها أن ترسي سوابق. وقد قيل إن المعرفة البشرية تبنى بهذه الطريقة، وأن جهد كل فرد كان بمثابة لبنة أساسية في بناء نظام المعرفة. المثال الذي طُرح عليّ هو مثال النظام القانوني الذي نعيش في ظله، والذي يمثل أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة لنا. ومع ذلك، فإن أفكاري الرومانسية في ذلك الوقت منعتني من تصور نفسي كمحامٍ متخصص في علم الإنسان. لقد

اقتنعت تماماً، بكل ما للكلمة من معنى، بأن علم الإنسان يجب أن يكون أساس كل مسعى بشري، أو مقياساً للإنسان.

قال دون خوان، وهو رجل براغماتي بارع، ومحارب مسافر حقيقي في المجهول، إنني غير منطقي. وقال إنه لا يهم أن المواضيع الأنثروبولوجية المقترحة لي كانت مجرد مناورات بالكلمات والمفاهيم، فالمهم هو ممارسة الانضباط.

قال لي ذات مرة: "لا يهم مدى جودة قراءتك، وعدد الكتب الرائعة التي يمكنك قراءتها. الأهم هو أن تتحلى بالانضباط الكافي لقراءة ما لا ترغب في قراءته. إن جوهر ممارسة السحرة للذهاب إلى المدرسة يكمن فيما ترفضه، وليس فيما تقبله.

قررت أن آخذ إجازة من دراستي وذهبت للعمل في قسم الفنون في شركة تصنع الملصقات. لقد استهلكت وظيفتي جهودي وأفكاري إلى أقصى حد. كان التحدي الذي واجهته هو تنفيذ المهام الموكلة إليّ بأفضل شكل ممكن وبأسرع وقت ممكن. كان إعداد صفائح الفينيل بالصور المراد معالجتها عن طريق الطباعة الحريرية إلى ملصقات إجراءً قياسيًا لا يسمح بأي ابتكار، وكانت كفاءة العامل تُقاس بالدقة والسرعة. أصبحت مدمنًا على العمل واستمتعت بذلك بشكل كبير.

أصبحت أنا ومدير قسم الفنون صديقين حميمين بسرعة. لقد أخذني تحت جناحه عملياً. كان اسمه إرنست ليبتون. كنتُ معجباً به وأحترمه بشدة. كان فناناً بارعاً وحرفياً ماهراً. كان عيبه هو رقته، واهتمامه المذهل بالآخرين، والذي كان يقترب من السلبية.

على سبيل المثال، في أحد الأيام كنا نغادر موقف سيارات مطعم تناولنا فيه الغداء. بكل أدب، انتظر حتى خرجت سيارة أخرى من موقف السيارات أمامه. من الواضح أن السائق لم يرنا وبدأ بالرجوع للخلف بسرعة كبيرة. كان بإمكان إرنست ليبتون بسهولة أن ينفخ في بوق سيارته لجذب انتباه الرجل لينظر إلى أين كان ذاهباً. بدلاً من ذلك، جلس مبتسماً كالأحمق بينما اصطدم الرجل بسيارته. ثم استدار واعتذر لي. قال: "يا إلهي، كان بإمكاني أن أنفخ في بوق سيارتي، لكنه صاخب للغاية، إنه أمر محرج بالنسبة لي".

كان الرجل الذي صدم سيارة إرنست بسيارته غاضباً جداً وكان لا بد من تهدئته.

قال إرنست: "لا تقلق". "لا يوجد أي ضرر في سيارتك. إضافة إلى ذلك، أنت لم تُحطم سوى مصابيح سيارتي الأمامية؛ كنت سأستبدلها على أي حال."

وفي يوم آخر، في نفس المطعم، كان بعض اليابانيين، عملاء شركة الملصقات وضيوفه على الغداء، يتحدثون إلينا بحماس ويطرحون علينا أسئلة. جاء النادل بالطعام وأزال بعض أطباق السلطة من على الطاولة، ليُفسح المجال، بأفضل طريقة ممكنة على الطاولة الضيقة، لأطباق الطعام الرئيسية الساخنة الضخمة. كان أحد العملاء اليابانيين بحاجة إلى مساحة أكبر. دفع طبقه للأمام؛ فدفعه ذلك إلى تحريك طبق إرنست وبدأ ينزلق عن الطاولة. مرة أخرى، كان بإمكان إرنست أن يحذر الرجل، لكنه لم يفعل. جلس هناك مبتسماً حتى سقط الطبق في حجره.

وفي مناسبة أخرى، ذهبت إلى منزله لمساعدته في وضع بعض العوارض الخشبية فوق فناء منزله، حيث كان ينوي ترك كرمة عنب تنمو لتوفير الظل الجزئي وإنتاج الثمار. قمنا بترتيب العوارض الخشبية مسبقاً في إطار ضخم، ثم رفعنا أحد الجوانب وثبتناه بمسامير في بعض العوارض. كان إرنست رجلاً طويلاً وقوياً جداً، وباستخدام قطعة من الخشب مقاس 2×4 كأداة رفع، رفع الطرف الآخر لأتمكن من وضع البراغي في الثقوب التي تم حفرها بالفعل في العوارض الداعمة. لكن قبل أن تتاح لي الفرصة لوضع المسامير، كان هناك طرق متواصل على الباب، وطلب مني إرنست أن أرى من الطارق بينما كان يمسك بإطار العوارض الخشبية.

كانت زوجته عند الباب تحمل مشترياتها من البقالة. انخرطت معي في حديث مطول ونسيت أمر إرنست. بل إنني ساعدتها في ترتيب مشترياتها من البقالة. في منتصف ترتيب حزم الكرفس، تذكرت أن صديقي كان لا يزال ممسكًا بإطار العوارض الخشبية، وبمعرفتي به، كنت أعلم أنه سيظل في العمل، متوقعًا من الجميع أن يحظوا بنفس القدر من الاهتمام الذي حظي به هو نفسه. هرعت بيأس إلى الفناء الخلفي، وهناك وجدته ملقى على الأرض. لقد انهار من شدة الإرهاق الذي أصابه جراء حمل الإطار الخشبي الثقيل. كان يبدو كدمية قماش. اضطررنا إلى الاتصال بأصدقائه للمساعدة في رفع هيكل العوارض الخشبية - لم يعد قادراً على فعل ذلك. كان عليه أن يذهب إلى الفراش. كان متأكداً من أنه مصاب بفتق.

القصة الكلاسيكية عن إرنست ليبتون هي أنه في أحد الأيام ذهب في رحلة مشي لمسافات طويلة في جبال سان برناردينو مع بعض الأصدقاء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. خيّموا في الجبال لقضاء الليل. بينما كان الجميع نائمين، ذهب إرنست ليبتون إلى الأدغال، ولأنه كان رجلاً مراعياً، فقد سار مسافة ما بعيداً عن المخيم حتى لا يزعج أحداً. انزلق في الظلام وتدحرج أسفل جانب الجبل. أخبر أصدقاءه بعد ذلك أنه كان يعلم يقيناً أنه يسقط نحو حتفه في قاع الوادي. كان محظوظاً لأنه تشبث بحافة بأطراف أصابعه؛ وظل متمسكاً بها لساعات، يبحث في الظلام بقدميه عن أي دعم، لأن ذراعيه كانتا على وشك الانهيار - كان سيظل متمسكاً بها حتى مماته. وبمد ساقيه على أوسع نطاق ممكن، وجد نتوءات صغيرة في الصخرة ساعدته على التشبث. ظل ملتصقاً بالصخرة، مثل الملصقات التي صنعها، حتى أصبح هناك ما يكفي من الضوء ليدرك أنه على بعد قدم واحدة فقط من الأرض.

"إرنست، كان بإمكانك أن تصرخ طلباً للمساعدة!" عاتبه أصدقاؤه.

أجاب قائلاً: "يا إلهي، لم أعتقد أن هناك أي فائدة من ذلك". "من كان ليسمعني؟" ظننت أنني تدحرجت لمسافة ميل على الأقل إلى الوادي. إلى جانب ذلك، كان الجميع نائمين.

وجاءت الضربة القاضية بالنسبة لي عندما قرر إرنست ليبتون، الذي كان يقضي ساعتين يومياً في التنقل ذهاباً وإياباً من منزله إلى المتجر، شراء سيارة اقتصادية، وهي فولكس فاجن بيتل، وبدأ في قياس عدد الأميال التي يقطعها لكل جالون من البنزين. لقد فوجئت للغاية عندما أعلن ذات صباح أنه وصل إلى 125 ميلاً للغالون. وبصفته رجلاً دقيقاً للغاية، فقد قيّد تصريحه قائلاً إن معظم قيادته لم تكن في المدينة، بل على الطريق السريع، على الرغم من أنه في ساعة الذروة المرورية، كان عليه أن يبطئ ويسرع كثيراً. وبعد أسبوع، قال إنه وصل إلى علامة 250 ميلاً لكل جالون.

تصاعد هذا الحدث الرائع حتى وصل إلى رقم لا يُصدق: 645 ميلاً لكل جالون. أخبره أصدقاؤه أنه يجب عليه إدخال هذا الرقم في سجلات شركة فولكس فاجن. كان إرنست ليبتون في غاية السعادة، وتفاخر قائلاً إنه لن يعرف ماذا سيفعل إذا وصل إلى علامة الألف ميل. أخبره أصدقاؤه أنه يجب أن يدّعي حدوث معجزة.

استمر هذا الوضع الاستثنائي حتى صباح أحد الأيام عندما ضبط أحد أصدقائه، الذي كان يمارس عليه منذ شهور أقدم خدعة في الكتاب، وهو يضيف البنزين إلى خزان سيارته. كان يضيف كل صباح ثلاثة أو أربعة أكواب حتى لا يكون مؤشر الوقود في سيارة إرنست فارغاً أبداً.

كان إرنست ليبتون على وشك الغضب. وكانت أقسى تعليقاته: "يا إلهي! هل من المفترض أن يكون هذا مضحكاً؟"

كنت أعلم منذ أسابيع أن أصدقاءه كانوا يمارسون عليه تلك المزحة، لكنني لم أستطع التدخل. شعرت أن الأمر لا يعنيني. كان الأشخاص الذين كانوا يمارسون المزحة على إرنست ليبتون أصدقاءه مدى الحياة. كنتُ وافداً جديداً.

عندما رأيت نظرة خيبة الأمل والألم على وجهه، وعجزه عن الغضب، شعرت بموجة من الذنب والقلق. كنت أواجه مجدداً عدواً قديماً لي. كنت أكره إرنست ليبتون، وفي الوقت نفسه، كنت أحبه بشدة. كان عاجزاً.

الحقيقة هي أن إرنست ليبتون كان يشبه والدي. نظارته السميكة وخط شعره المتراجع، بالإضافة إلى لحيته الرمادية الخفيفة التي لم يستطع حلاقتها بالكامل، جعلتني أتذكر ملامح والدي. كان لديه نفس الأنف المستقيم المدبب والذقن المدبب. لكن رؤية عجز إرنست ليبتون عن الغضب وتوجيه لكمة إلى أنف المهرجين هو ما رسخ في ذهني تشابهه مع والدي ودفعه إلى ما وراء عتبة الأمان.

تذكرت كيف كان والدي مغرماً بشدة بأخت صديقه المقرب. رأيتها ذات يوم في مدينة سياحية، وهي تمسك بيد شاب.

كانت والدتها برفقتها كمرافقة. بدت الفتاة سعيدة للغاية. نظر الشابان إلى بعضهما البعض في حالة من الانبهار. على حد علمي، كان ذلك حبًا شبابيًا في أبهى صوره. عندما رأيت والدي، أخبرته، وأنا أستمتع بكل لحظة من سرد قصتي بكل الحقد الذي رافقني طوال سنواتي العشر، أن صديقته لديها حبيب حقيقي. لقد فوجئ. لم يصدقني.

"لكن هل قلت أي شيء للفتاة على الإطلاق؟" سألته بجرأة: "هل تعلم أنها تحبك؟"

"لا تكن غبياً أيها الوغد الصغير!" انفجر في وجهي. "لست مضطراً لإخبار أي امرأة بأي هراء من هذا القبيل!" نظر إليّ بغضب كطفل مدلل، وشفتيه ترتجفان من شدة الغضب.

"إنها ملكي! يجب أن تعرف أنها امرأتي دون أن أضطر إلى إخبارها بأي شيء!"

أعلن كل هذا بيقين طفل حصل على كل شيء في الحياة دون أن يضطر إلى الكفاح من أجله.

في ذروة أدائي، ألقيت كلمتي الختامية. قلت: "حسنًا، أعتقد أنها كانت تتوقع أن يخبرها أحدهم بذلك، وقد سبقك أحدهم إلى ذلك."

كنت مستعداً للقفز بعيداً عن متناوله والركض لأنني ظننت أنه سيهاجمني بكل غضب العالم، لكن بدلاً من ذلك، انهار وبدأ يبكي. سألني وهو يبكي بشدة، بما أنني قادرة على فعل أي شيء، هل يمكنني التجسس على الفتاة من أجله وإخباره بما يجري؟

كنت أكره والدي أكثر مما يمكنني قوله، وفي الوقت نفسه كنت أحبه، بحزن لا مثيل له. لعنت نفسي لأني تسببت في ذلك العار له.

لقد ذكّرني إرنست ليبتون بوالدي لدرجة أنني تركت وظيفتي، مدعياً أنني يجب أن أعود إلى المدرسة. لم أكن أرغب في زيادة العبء الذي كنت أحمله بالفعل على عاتقي. لم أغفر لنفسي أبداً التسبب في ذلك العذاب لأبي، ولم أغفر له أبداً كونه جباناً إلى هذا الحد.

عدتُ إلى المدرسة وبدأتُ المهمة الضخمة المتمثلة في إعادة دمج نفسي في دراساتي في علم الإنسان. ما جعل إعادة دمج هذا الأمر صعبة للغاية هو أنه لو كان هناك شخص يمكنني العمل معه بسهولة ومتعة بفضل لمسته الرائعة، وفضوله الجريء، واستعداده لتوسيع معرفته دون أن يرتبك أو يدافع عن

نقاط لا يمكن الدفاع عنها، لكان هذا الشخص من خارج قسمي، عالم آثار. كان تأثيره هو السبب في اهتمامي بالعمل الميداني في المقام الأول.

ربما بسبب حقيقة أنه ذهب بالفعل إلى الميدان، حرفياً لاستخراج المعلومات، كانت واقعيته بمثابة واحة من الرصانة بالنسبة لي. كان هو الشخص الوحيد الذي شجعني على المضي قدماً والقيام بالعمل الميداني لأنه لم يكن لدي ما أخسره.

قال لي ذات مرة: "اخسر كل شيء، وستربح كل شيء"، وهي أفضل نصيحة تلقيتها في الأوساط الأكاديمية. إذا اتبعت نصيحة دون خوان، وعملت على تصحيح هوسي بالتأمل الذاتي، فلن يكون لدي ما أخسره وكل شيء لأربحه. لكن هذا الاحتمال لم يكن وارداً بالنسبة لي في ذلك الوقت.

عندما أخبرت دون خوان عن الصعوبة التي واجهتها في العثور على أستاذ للعمل معه، اعتقدت أن رد فعله على ما قلته كان شرساً. لقد وصفني بالشخص التافه، وأسوأ من ذلك. أخبرني بما كنت أعرفه بالفعل: أنه لو لم أكن متوتراً للغاية، لكنت قد نجحت في العمل مع أي شخص في الأوساط الأكاديمية أو في مجال الأعمال.

وتابع دون خوان قائلاً: "المحاربون المسافرون لا يشكون". "إنهم يأخذون كل ما تمنحهم إياه اللانهائية كتحدي. التحدي يبقى تحدياً. الأمر ليس شخصياً. لا يمكن اعتبارها لعنة أو نعمة. إما أن يفوز المحارب المسافر بالتحدي أو أن التحدي يدمره. الفوز أكثر إثارة، لذا اربح!"

أخبرته أنه من السهل عليه أو على أي شخص آخر أن يقول ذلك، لكن القيام بذلك أمر آخر، وأن محنتي غير قابلة للحل لأنها نشأت في عدم قدرة زملائي الرجال على أن يكونوا متسقين.

وقال: "ليس الأشخاص المحيطون بك هم المخطئون". "لا يستطيعون مساعدة أنفسهم. الخطأ يكمن فيك، لأنك تستطيع مساعدة نفسك، لكنك مصمم على الحكم عليهم، في مستوى عميق من الصمت. أي أحمق يستطيع أن يحكم. إذا حكمت عليهم، فلن تحصل إلا على أسوأ ما فيهم. كلنا كبشر سجناء، وهذا السجن هو الذي يجعلنا نتصرف بهذه الطريقة البائسة. التحدي الذي يواجهك هو أن تتقبل الناس كما هم! اترك الناس وشأنهم."

قلت: "أنت مخطئ تماماً هذه المرة يا دون خوان". صدقني، ليس لدي أي اهتمام على الإطلاق بالحكم عليهم، أو التورط معهم بأي شكل من الأشكال."

"أنت تفهم ما أتحدث عنه"، أصرّ بإصرار. وتابع قائلاً: "إذا لم تكن واعياً برغبتك في الحكم عليهم،

فأنت في وضع أسوأ مما كنت أعتقد. هذا هو عيب المحاربين المسافرين عندما يبدأون في استئناف رحلاتهم. يصبحون مغرورين، ويفقدون السيطرة على أنفسهم."

اعترفت لدون خوان بأن شكواي كانت تافهة للغاية. كنت أعرف ذلك. قلت له إنني أواجه أحداثاً يومية، أحداثاً تتسم بالصفة الخبيثة المتمثلة في إضعاف كل عزيمتي، وإنني أشعر بالحرج من إخبار دون خوان بالأحداث التي تثقل كاهلي.

"هيا قل"، حثني. "هيا!" لا تخفي عني أي أسرار. أنا أنبوب فارغ. كل ما تقوله لي سينعكس للانهائية.

قلت: "كل ما لدي هو شكاوى بائسة". أنا تماماً مثل جميع الأشخاص الذين أعرفهم. لا توجد طريقة للتحدث مع أي واحد منهم دون سماع شكوى صريحة أو ضمنية.

أخبرت دون خوان كيف تمكن أصدقائي، حتى في أبسط الحوارات، من دسّ عدد لا يحصى من الشكاوى، كما في حوار كهذا:

"كيف حالك يا جيم؟"

"لا بأس، حسنًا، كال." سيعقب ذلك صمت مطبق.

سأكون مضطراً لقول: "هل هناك خطب ما يا جيم؟"

"لا! كل شيء رائع. لدي مشكلة بسيطة مع ميل، لكنك تعرف ميل جيداً - أناني وحقير. لكن عليك أن تتقبل أصدقاءك كما هم، أليس كذلك؟ كان بإمكانه بالطبع أن يبدي مزيداً من التقدير. لكن ما هذا بحق الجحيم. إنه على طبيعته. هو دائماً يلقي بالعبء عليك - إما أن تقبلني أو تتركني. لقد كان يفعل ذلك منذ أن كنا في الثانية عشرة من عمرنا، لذا فالخطأ خطئي حقاً. لماذا بحق الجحيم يجب عليّ أن آخذه معي؟"

"حسنًا، أنت محق يا جيم، أنت تعلم أن ميل صعب للغاية، نعم. نعم!"

"حسنًا، بالحديث عن الأشخاص السيئين، فأنت لست أفضل من ميل يا كال. "لا يمكنني الاعتماد عليك أبداً"، إلخ. ومن الحوارات الكلاسيكية الأخرى:

"كيف حالك يا أليكس؟ كيف حال حياتك الزوجية؟"

"أوه، رائعة حقاً." لأول مرة، أتناول الطعام في الوقت المحدد، وأتناول وجبات منزلية الصنع، لكنني أكتسب وزناً زائداً. ليس لدي ما أفعله سوى مشاهدة التلفاز. كنت أخرج معكم يا رفاق، لكن الآن لا أستطيع. تيريزا لا تسمح لي بذلك. بالطبع، كان بإمكاني أن أقول لها اذهبي إلى الجحيم، لكنني لا أريد أن أؤذيها. أشعر بالرضا، لكنني بائس."

وكان أليكس أكثر الرجال تعاسة قبل أن يتزوج. كان هو الشخص الذي كانت نكتته الكلاسيكية هي أن يقول لأصدقائه، في كل مرة نلتقي به، "مهلاً، تعالوا إلى سيارتي، أريد أن أقدم لكم حبيبتي".

لقد استمتع كثيراً بخيبات أملنا عندما رأينا أن ما كان في سيارته هو كلبة. عرّف "كلبته" على جميع أصدقائه. لقد صُدمنا عندما تزوج بالفعل من تيريزا، وهي عداءة مسافات طويلة. التقيا في سباق ماراثون عندما أغمي على أليكس. كانوا في الجبال، وكان على تيريزا أن تنعشه بأي وسيلة، لذلك تبولت على وجهه. بعد ذلك، أصبح أليكس أسيرها. لقد حددت منطقتها. اعتاد أصدقاؤه أن يقولوا: "سجينها المتذمر". اعتقد أصدقاؤه أنها كانت العاهرة الحقيقية التي حولت أليكس الغريب إلى كلب سمين.

ضحكنا أنا ودون خوان لبعض الوقت. ثم نظر إليّ بتعبير جاد.

قال دون خوان: "هذه هي تقلبات الحياة اليومية". "أنت تربح، وأنت تخسر، ولا تعرف متى تربح أو متى تخسر. هذا هو الثمن الذي يدفعه المرء مقابل العيش في ظل قاعدة التأمل الذاتي. ليس هناك ما يمكنني قوله لك، وليس هناك ما يمكنك قوله لنفسك. لا يسعني إلا أن أنصحك ألا تشعر بالذنب لأنك شخص سيء، بل أن تسعى جاهداً لإنهاء سيطرة التأمل الذاتي. عد إلى المدرسة. لا تستسلم بعد."

كان اهتمامي بالبقاء في الأوساط الأكاديمية يتضاءل بشكل كبير. بدأت أعيش على نظام آلي. شعرت بثقلٍ ويأس. لكنني لاحظت أن عقلي لم يكن منخرطاً في الأمر. لم أقم بحساب أي شيء، أو تحديد أي أهداف أو توقعات من أي نوع. لم تكن أفكاري قهرية، لكن مشاعري كانت كذلك. حاولت أن أتصور هذا التناقض بين العقل الهادئ والمشاعر المضطربة. وفي ظل هذا الشعور بالضياع والمشاعر الجياشة، مشيت ذات يوم من قاعة هاينز، حيث كان قسم الأنثروبولوجيا، إلى الكافتيريا لتناول غدائي.

فجأةً، شعرتُ برجفة غريبة. ظننت أنني سأفقد الوعي، فجلست على بعض الدرجات المبنية من الطوب. رأيت بقعًا صفراء أمام عيني. شعرت وكأنني أدور. كنت متأكدًا من أنني سأصاب بالغثيان. أصبحت رؤيتي ضبابية، وفي النهاية لم أعد أرى شيئاً. كان انزعاجي الجسدي شديداً وكاملاً لدرجة أنه لم يترك

مجالاً لأي فكرة. لم يكن لدي سوى أحاسيس جسدية من الخوف والقلق ممزوجة بالابتهاج، وتوقع غريب بأنني كنت على عتبة حدث هائل. كانت أحاسيس بلا مقابل فكري. في لحظة معينة، لم أعد أعرف ما إذا كنت جالساً أم واقفاً. كنت محاطًا بأكثر الظلمات التي لا يمكن اختراقها والتي يمكن للمرء أن يتخيلها، ثم رأيت الطاقة وهي تتدفق في الكون.

رأيت سلسلة من الكرات المضيئة تسير نحوي أو بعيدًا عني. رأيتها واحدًا تلو الآخر، كما أخبرني دون خوان دائمًا أن المرء يراها . كنت أعرف أنهم أفراد مختلفون بسبب اختلاف أحجامهم. لقد فحصت تفاصيل هياكلها. كان بريقها واستدارتها مصنوعين من ألياف بدت وكأنها ملتصقة ببعضها البعض. كانت أليافاً رقيقة أو سميكة. كان لكل واحدة من تلك الأشكال المضيئة غطاء سميك أشعث. بدت وكأنها حيوانات غريبة، مضيئة، مغطاة بالفراء، أو حشرات مستديرة عملاقة مغطاة بشعر مضيء.

كان الشيء الأكثر إثارة للصدمة بالنسبة لي هو إدراك أنني رأيت تلك الحشرات ذات الفراء طوال حياتي. بدت لي كل مناسبة جعلني فيها دون خوان أراها عمدًا في تلك اللحظة وكأنها منعطف أخذته معه. تذكرت كل حالة من حالات مساعدته لي في جعلي أرى الناس ككرات مضيئة، وكانت كل تلك الحالات منفصلة عن الجزء الأكبر من الرؤية التي أصبحت متاحة لي الآن. عرفت حينها،

بلا أدنى شك، أنني كنت أدرك الطاقة وهي تتدفق في الكون طوال حياتي، بمفردي، دون مساعدة أحد. كان هذا الإدراك أمراً مذهلاً بالنسبة لي. شعرتُ بضعفٍ وهشاشةٍ لا حدود لهما. كنت بحاجة إلى البحث عن مأوى، للاختباء في مكان ما. كان الأمر أشبه تمامًا بالحلم الذي يبدو أن معظمنا يراه في وقت أو آخر، حيث نجد أنفسنا عراة ولا نعرف ماذا نفعل. شعرت بأكثر من مجرد العري؛ شعرت بعدم الحماية والضعف، وكنت أخشى العودة إلى حالتي الطبيعية. شعرت بشكل غامض أنني كنت مستلقياً. هيأت نفسي للعودة إلى حياتي الطبيعية. لقد راودتني فكرة أنني سأجد نفسي مستلقياً على الممشى المرصوف بالطوب، أتشنج بشكل لا إرادي، محاطاً بدائرة كاملة من المتفرجين.

ازداد شعوري بأنني مستلقٍ أكثر فأكثر. شعرت أنني أستطيع تحريك عيني. كنت أستطيع رؤية الضوء من خلال جفوني المغلقة، لكنني كنت أخشى فتحها. الأمر الغريب هو أنني لم أسمع أيًا من هؤلاء الأشخاص الذين تخيلت أنهم حولي. لم أسمع أي ضوضاء على الإطلاق. وأخيراً، تجرأت على فتح عيني. كنت على سريري، في شقتي المكتبية عند زاوية شارعي ويلشاير وويستوود.

انتابتني حالة من الهستيريا عندما وجدت نفسي في سريري. لكن لسبب ما كان خارج نطاق فهمي، هدأت على الفور تقريباً. لقد استُبدلت هستيريتي بشعور من اللامبالاة الجسدية، أو بحالة من الرضا الجسدي، شيء يشبه ما يشعر به المرء بعد تناول وجبة جيدة. لكنني لم أستطع تهدئة ذهني. لقد كان الأمر الأكثر صدمة بالنسبة لي أن أدرك أنني كنت أشعر بالطاقة بشكل مباشر طوال حياتي. كيف يُعقل ألا أكون على علم بذلك؟ ما الذي كان يمنعني من الوصول إلى ذلك الجانب من كياني؟ قال دون خوان

إن كل إنسان لديه القدرة على رؤية الطاقة مباشرة. ما لم يقله هو أن كل إنسان يرى بالفعل الطاقة مباشرة لكنه لا يعرفها.

طرحت هذا السؤال على صديق لي يعمل طبيباً نفسياً. لم يستطع أن يلقي أي ضوء على حيرتي. كان يعتقد أن ردة فعلي كانت نتيجة للإرهاق والإفراط في التحفيز. وصف لي دواء الفاليوم ونصحني بالراحة.

لم أجرؤ على ذكر لأي شخص أنني استيقظت في سريري دون أن أكون قادراً على تفسير كيف وصلت إلى هناك. لذلك، كان تسرعي لرؤية دون خوان أكثر من مبرر. سافرت إلى مكسيكو سيتي بأسرع ما يمكن، واستأجرت سيارة، وقدت إلى حيث يعيش.

"لقد فعلت كل هذا من قبل!" قال دون خوان ضاحكاً عندما سردت له تجربتي المذهلة. "هناك شيئان فقط جديدان. أحدها هو أنك الآن تمتلك طاقة مدركة بمفردك. ما فعلته هو إيقاف العالم، ثم أدركت أنك كنت ترى الطاقة دائمًا وهي تتدفق في الكون، كما يفعل كل إنسان، ولكن دون أن تعرف ذلك عن قصد. الشيء الجديد الآخر هو أنك سافرت من صمتك الداخلي بنفسك.

"أنت تعلم، دون أن أضطر إلى إخبارك، أن كل شيء ممكن إذا غادر المرء الصمت الداخلي." هذه المرة، جعل خوفك وضعفك من الممكن أن ينتهي بك الأمر في سريرك، وهو ليس بعيدًا حقًا عن حرم جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. لو لم تستسلم لدهشتك، لأدركت أن ما فعلته ليس شيئاً، ليس شيئاً استثنائياً بالنسبة لمحارب مسافر.

"لكن المسألة ذات الأهمية القصوى ليست معرفة أنك كنت تدرك الطاقة بشكل مباشر دائمًا، أو رحلتك من الصمت الداخلي، بل هي مسألة ذات شقين. أولاً، لقد اختبرت شيئاً أطلق عليه سحرة المكسيك القديمة اسم الرؤية الواضحة، أو فقدان الشكل البشري: الوقت الذي تختفي فيه تفاهة الإنسان، كما لو كانت بقعة من الضباب تلوح فوقنا، ضباب يتلاشى ببطء. لكن لا يجب عليك بأي حال من الأحوال أن تعتقد أن هذا أمر واقع لا مفر منه. عالم السحرة ليس عالماً ثابتاً مثل عالم الحياة اليومية، حيث يخبرونك أنه بمجرد تحقيق هدف ما، ستظل فائزاً إلى الأبد. في عالم السحرة، الوصول إلى هدف معين يعني ببساطة أنك قد حصلت على الأدوات الأكثر فعالية لمواصلة قتالك، والذي، بالمناسبة، لن ينتهي أبداً. "الجزء الثاني من هذه المسألة المزدوجة هو أنك واجهت

السؤال الأكثر إثارة للجنون بالنسبة لقلوب البشر. لقد عبرت عن نفسك عندما سألت نفسك الأسئلة التالية: "كيف كان من الممكن ألا أعرف أنني كنت أدرك الطاقة بشكل مباشر طوال حياتي؟ ما الذي كان يمنعني من الوصول إلى ذلك الجانب من كياني؟"

ظلال داكنة

كان الجلوس في صمت مع دون خوان من أكثر التجارب الممتعة التي مررت بها. كنا نجلس براحة على بعض الكراسي المبطنة في الجزء الخلفي من منزله في جبال وسط المكسيك. كان الوقت متأخراً من بعد الظهر. كانت هناك نسمة لطيفة. كانت الشمس خلف المنزل، خلف ظهورنا. أضفى ضوءها الخافت ظلالاً رائعة من اللون الأخضر على الأشجار الكبيرة في الفناء الخلفي. كانت هناك أشجار كبيرة تنمو حول منزله، وخلفه أيضاً، مما حجب رؤية المدينة التي كان يعيش فيها. لطالما أعطاني هذا انطباعًا بأنني كنت في البرية، برية مختلفة عن صحراء سونوران القاحلة، ولكنها برية على أي حال.

قال دون خوان فجأة: "اليوم، سنناقش موضوعاً بالغ الخطورة في السحر، وسنبدأ بالحديث عن الجسم الطاقي".

لقد وصف لي الجسم الطاقي مرات لا تحصى، قائلاً إنه عبارة عن مجموعة من حقول الطاقة، وهي الصورة المعكوسة لمجموعة حقول الطاقة التي تشكل الجسم المادي عندما يُنظر إليها على أنها طاقة تتدفق في الكون. وقال إنه أصغر حجماً وأكثر كثافة وأثقل وزناً من الكرة المضيئة للجسم المادي.

أوضح دون خوان أن الجسد وجسد الطاقة عبارة عن مجموعتين من حقول الطاقة المضغوطة معًا بواسطة قوة تجميع غريبة. لقد أكد مرارًا وتكرارًا أن القوة التي تربط تلك المجموعة من حقول الطاقة معًا هي، وفقًا لسحرة المكسيك القديمة، القوة الأكثر غموضًا في الكون. كان تقديره الشخصي أنه الجوهر الخالص للكون بأكمله، المجموع الكلي لكل شيء موجود.

لقد أكد أن الجسم المادي وجسم الطاقة هما تكوينات الطاقة المتوازنة الوحيدة في مملكتنا كبشر. لذلك لم يقبل أي ثنائية أخرى غير الثنائية بين هذين الاثنين. إن الازدواجية بين الجسد والعقل، والروح والجسد، اعتبرها مجرد تسلسل للعقل، ينبثق منه دون أي أساس طاقي. قال دون خوان إنه من خلال الانضباط، يمكن لأي شخص تقريب جسم الطاقة من الجسم المادي. عادة، تكون المسافة بين الاثنين هائلة. بمجرد أن يصبح الجسم الطاقي ضمن نطاق معين، والذي يختلف من شخص لآخر، يمكن لأي شخص، من خلال الانضباط، أن يشكله في نسخة طبق الأصل من جسده المادي - أي كائن ثلاثي الأبعاد وصلب. ومن هنا نشأت فكرة السحرة عن الآخر أو القرين. وبالمثل، ومن خلال نفس عمليات الانضباط، يمكن لأي شخص أن يصنع جسده المادي الصلب ثلاثي الأبعاد ليكون نسخة طبق الأصل من جسده الطاقي - أي شحنة طاقة أثيرية غير مرئية للعين

البشرية، كما هو الحال مع كل الطاقة.

عندما أخبرني دون خوان بكل هذا، كان رد فعلي هو أن أسأله عما إذا كان يصف اقتراحاً أسطورياً. أجاب بأنه لا يوجد شيء أسطوري في السحرة. كان السحرة كائنات عملية، وما وصفوه كان دائماً شيئاً رصيناً وواقعياً للغاية. بحسب دون خوان، تكمن صعوبة فهم ما كان يفعله السحرة في أنهم كانوا ينطلقون من نظام إدراكي مختلف.

قال دون خوان، وهو جالس في الجزء الخلفي من منزله في وسط المكسيك ذلك اليوم، إن الجسم الطاقي كان ذا أهمية رئيسية في كل ما كان يحدث في حياتي. رأى أنه حقيقة حيوية أن جسدي الطاقي، بدلاً من الابتعاد عني، كما يحدث عادة، كان يقترب مني بسرعة كبيرة.

"ماذا يعني ذلك، أنه يقترب مني يا دون خوان؟" سألت.

قال مبتسماً: "هذا يعني أن شيئاً ما سيصدمك بشدة". "سيدخل قدر هائل من التحكم إلى حياتك، ولكن ليس تحكمك أنت، بل تحكم الجسم الطاقي."

"هل تقصد يا دون خوان أن قوة خارجية ستسيطر علي؟" سألت.

أجاب دون خوان: "هناك عشرات القوى الخارجية التي تسيطر عليك في هذه اللحظة". "إن التحكم الذي أشير إليه هو شيء خارج نطاق اللغة. الأمر تحت سيطرتك وفي نفس الوقت ليس كذلك. لا يمكن تصنيفه، لكن من المؤكد أنه يمكن تجربته. وفوق كل ذلك، يمكن بالتأكيد التلاعب به. تذكر هذا: يمكن التلاعب به، لصالحك تمامًا بالطبع، وهو ما ليس في مصلحتك أنت، بل في مصلحة الجسم الطاقي.

ومع ذلك، فإن الجسم الطاقي هو أنت، لذلك يمكننا الاستمرار إلى الأبد مثل الكلاب

التي تعض ذيولها، في محاولة لوصف هذا. اللغة غير كافية. كل هذه التجارب تتجاوز قواعد اللغة.

حلّ الظلام بسرعة كبيرة، وأصبحت أوراق الأشجار التي كانت تتوهج باللون الأخضر قبل قليل داكنة وثقيلة للغاية. قال دون خوان إنه إذا انتبهت جيدًا إلى ظلمة أوراق الشجر دون تركيز عيني، ولكن نظرت إليها من زاوية عيني، فسأرى ظلًا عابرًا يعبر مجال رؤيتي.

قال: "هذا هو الوقت المناسب من اليوم للقيام بما أطلبه منك". "يستغرق الأمر لحظة لجذب الانتباه اللازم لديك للقيام بذلك. لا تتوقف حتى تلتقط ذلك الظل الأسود العابر."

لقد رأيت بالفعل ظلاً أسود غريباً عابراً مُسقطاً على أوراق الأشجار. إما كان ظلاً واحداً يتحرك ذهاباً وإياباً، أو ظلالاً عابرة متعددة تتحرك من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار أو مباشرة إلى أعلى في الهواء. بدت لي كأنها أسماك سوداء سمينة، أسماك ضخمة. كان الأمر كما لو أن أسماك أبو سيف عملاقة كانت تحلق في الهواء. كنت منغمسًا في المشهد. ثم في النهاية، أخافني الأمر. أصبح

الظلام حالكاً لدرجة أنني لم أستطع رؤية أوراق الشجر، ومع ذلك كنت لا أزال أستطيع رؤية الظلال السوداء العابرة.

"ما الأمر يا دون خوان؟" سألت. "أرى ظلالاً سوداء عابرة في كل مكان." "آه، هذا هو الكون برمته،" قال، "غير قابل للقياس، وغير خطي، وخارج نطاق قواعد اللغة." كان سحرة المكسيك القديمة أول من رأى تلك الظلال العابرة، لذلك كانوا يتبعونها أينما ذهبوا. لقد رأوها كما تراها أنت، ورأوها كطاقة تتدفق في الكون. وقد اكتشفوا بالفعل شيئاً متعالياً."

توقف عن الكلام ونظر إليّ. كانت فترات توقفه في مكانها تماماً. كان يتوقف عن الكلام دائماً عندما كنت على وشك الانهيار.

"ماذا اكتشفوا يا دون خوان؟" سألت.

قال بأوضح ما يمكن: "لقد اكتشفوا أن لدينا رفيقاً مدى الحياة". "لدينا مفترس جاء من أعماق الكون وتولى حكم حياتنا. البشر هم سجناؤه. المفترس هو سيدنا و معلمنا. لقد جعلنا منصاعين ، عاجزين. إذا أردنا أن نحتج، فإنه يقمع احتجاجنا. إذا أردنا التصرف باستقلالية، فإنه يطلب منا ألا نفعل ذلك.

كان الظلام دامساً من حولنا، ويبدو أن ذلك قد حدّ من أي تعبير من جانبي. لو كان الوقت نهاراً، لكنت ضحكت بشدة. في الظلام، شعرتُ بنوع من التثبيط.

قال دون خوان: "الظلام دامس من حولنا، ولكن إذا نظرت من زاوية عينك، فستظل ترى ظلالاً عابرة تقفز من حولك".

و تبين أنه على حق. ما زلت أستطيع رؤيتهم. حركتهم أصابتني بالدوار. أضاء دون خوان النور، وبدا أن ذلك قد بدد كل شيء.

قال دون خوان: "لقد وصلت، بجهودك وحدك، إلى ما أطلق عليه شيوخ المكسيك القديمة موضوع المواضيع". "لقد كنت أتجنب الخوض في الموضوع طوال هذا الوقت، وألمح لك إلى أن شيئاً ما يحتجزنا كرهائن. بالطبع نحن مسجونين! كانت هذه حقيقة حيوية بالنسبة لسحرة المكسيك القديمة.

"لماذا سيطر هذا المفترس على الوضع بالطريقة التي تصفها يا دون خوان؟" سألت. "لا بد من وجود تفسير منطقي."

أجاب دون خوان: "هناك تفسير، وهو أبسط تفسير في العالم. لقد استولوا علينا لأننا طعامهم، وهم يستغلوننا بلا رحمة لأننا مصدر قوتهم. كما نقوم بتربية الدجاج في أقفاص الدجاج، فإن الحيوانات المفترسة تقوم بتربيتنا في أقفاص بشرية، مواشي بشرية.

لذلك ، فإن طعامهم متاح لهم دائمًا ".

شعرتُ بأن رأسي يهتز بعنف من جانب إلى آخر. لم أستطع التعبير عن شعوري العميق بعدم الارتياح والسخط، لكن جسدي تحرك ليُظهره على السطح. ارتجفت من رأسي إلى أخمص قدمي دون أي إرادة من جانبي.

"لا، لا، لا، لا"، سمعت نفسي أقول. "هذا أمر سخيف يا دون خوان." ما تقوله هو شيء وحشي. ببساطة لا يمكن أن يكون صحيحا ، للمشعوذين أو للرجال العاديين ، أو لأي شخص ".

"لم لا؟" سأل دون خوان بهدوء. "لمَ لا؟ لأنه يثير غضبك؟" "نعم، هذا يثير غضبي"، رددت عليه. "هذه الادعاءات شنيعة!"

قال: "حسنًا، لم تسمع كل الادعاءات بعد". انتظر قليلاً وانظر كيف ستشعر. سأعرضك لهجوم خاطف. أي أنني سأعرض عقلك لهجمات هائلة، ولن تستطيع النهوض والمغادرة لأنك ستكون محاصراً. ليس لأنني أحتجزك أسيراً، ولكن لأن شيئاً ما بداخلك سيمنعك من المغادرة، بينما جزء آخر منك سيصاب بالجنون حقاً. لذا استعد!"

كان هناك شيء ما بداخلي، شعرت أنه متعطش للعقاب. وكان محقاً. لم أكن لأغادر المنزل مهما كان الثمن. ومع ذلك، لم يعجبني بتاتاً ما كان يتفوه به من هراء.

قال دون خوان: "أريد أن أناشد عقلك التحليلي". فكر للحظة، وأخبرني كيف يمكنك تفسير التناقض بين ذكاء الإنسان المهندس وغباء أنظمة معتقداته، أو غباء سلوكه المتناقض. يعتقد السحرة أن الحيوانات المفترسة هي التي منحتنا أنظمة معتقداتنا، وأفكارنا عن الخير والشر، وأعرافنا الاجتماعية. إنهم الذين وضعوا آمالنا وتوقعاتنا وأحلامنا بالنجاح أو الفشل.

لقد منحونا الطمع والجشع والجبن. المفترسون هم من يجعلوننا راضين ، روتينيين ، ومصابين بجنون الأنانية ".

"لكن كيف يمكنهم فعل ذلك يا دون خوان؟" سألته، وقد ازداد غضبي مما كان يقوله. "هل يهمسون بكل هذا في آذاننا بينما نحن نائمون؟"

"لا، إنهم لا يفعلون ذلك بهذه الطريقة. ذلك غباء." قال دون خوان مبتسماً. "إنهم أكفأ وأكثر تنظيما من ذلك. ومن أجل إبقائنا مطيعين ووديعين وضعفاء ، انخرط المفترسون في مناورة هائلة - هائلة ، بطبيعة

الحال ، من وجهة نظر استراتيجية مقاتلة. مناورة مروعة من وجهة نظر أولئك الذين يعانون منها. لقد أعطونا عقولهم! هل تسمعني؟ المفترسون أعطونا عقولهم ، التي أصبحت عقولنا. عقل المفترس معقد، متناقض، كئيب، مليء بالخوف من اكتشافه في أي لحظة.

وتابع قائلاً: "أعلم أنه على الرغم من أنك لم تعاني من الجوع قط، إلا أنك تعاني من قلق الطعام، وهو ليس سوى قلق المفترس الذي يخشى أن يتم كشف مناورته في أي لحظة وأن يتم حرمانه من الطعام. من خلال العقل ، الذي ، بعد كل شيء ، هو عقلهم ، تحقن الحيوانات المفترسة في حياة البشر كل ما هو مناسب لهم. ويضمنون ، بهذه الطريقة ، درجة من الأمن للعمل كحاجز ضد خوفهم ".

قلت: "ليس الأمر أنني لا أستطيع قبول كل هذا كما هو، يا دون خوان". "أستطيع ذلك، لكن هناك شيء بغيض للغاية في الأمر لدرجة أنه يثير اشمئزازي بالفعل. هذا يجبرني على اتخاذ موقف متناقض. إذا كان صحيحاً أنهم يأكلوننا، فكيف يفعلون ذلك؟"

كانت ابتسامة عريضة تعلو وجه دون خوان. كان سعيداً للغاية. وأوضح أن السحرة يرون الأطفال الرضع على أنهم كرات طاقة غريبة ومضيئة، مغطاة من الأعلى إلى الأسفل بغطاء متوهج، يشبه غطاءً بلاستيكيًا يتم ضبطه بإحكام فوق شرنقة الطاقة الخاصة بهم. وقال إن ذلك الغطاء المتوهج من الوعي هو ما تلتهمه الحيوانات المفترسة، وأنه عندما يصل الإنسان إلى سن البلوغ، فإن كل ما يتبقى من ذلك الغطاء المتوهج من الوعي هو طرف ضيق يمتد من الأرض إلى أعلى أصابع القدم. سمح ذلك الطرف للبشرية بمواصلة العيش، ولكن بصعوبة بالغة.

وكأنني كنت في حلم، سمعت دون خوان ماتوس يشرح أنه حسب علمه، فإن الإنسان هو النوع الوحيد الذي يمتلك غلافًا متوهجًا من الوعي خارج تلك الشرنقة المضيئة. لذلك، أصبح فريسة سهلة لوعي من نوع مختلف، مثل الوعي الشديد للمفترس.

ثم أدلى بأكثر التصريحات ضرراً التي أدلى بها حتى الآن. وقال إن هذا الطرف الضيق من الوعي كانت مركز التأمل الذاتي، حيث وقع الإنسان في فخ لا مفر منه. من خلال استغلال تأملنا الذاتي، وهو النقطة الوحيدة المتبقية لنا في الوعي، يخلق المفترسون ومضات من الوعي يشرعون في استهلاكها بطريقة وحشية ومفترسة. إنهم يمنحوننا مشاكل تافهة تجبر تلك الشرارات من الوعي على الظهور، وبهذه الطريقة يبقوننا على قيد الحياة حتى يتم تغذيتهم بالشرارة النشطة لمخاوفنا الزائفة.

لا بد أن هناك شيئًا ما في كلام دون خوان، الأمر الذي كان مدمرًا للغاية بالنسبة لي لدرجة أنني شعرت بالغثيان في تلك اللحظة.

بعد لحظة صمت، كانت كافية لأستعيد رباطة جأشي، سألت دون خوان: "لكن لماذا لا يفعل سحرة المكسيك القديمة وجميع السحرة اليوم أي شيء حيال ذلك، على الرغم من أنهم يرون المفترسين؟"

قال دون خوان بصوت حزين وجاد: "لا يوجد شيء يمكننا أنا وأنت فعله حيال ذلك". "كل ما يمكننا فعله هو أن نضبط أنفسنا إلى درجة أنهم لن يمسّونا. كيف يمكنك أن تطلب من إخوانك البشر أن يخضعوا لتلك المشاق من الانضباط؟ سيضحكون عليك ويسخرون منك، أما الأكثر عدوانية منهم فسيضربونك ضرباً مبرحاً. وليس ذلك لأنهم لا يصدقون ذلك. في أعماق كل إنسان، توجد معرفة فطرية عميقة حول وجود الحيوانات المفترسة."

كان عقلي التحليلي يتأرجح ذهابًا وإيابًا مثل لعبة اليويو. لقد تركني ثم عاد، ثم تركني ثم عاد مرة أخرى. كان ما يقترحه دون خوان سخيفاً، لا يُصدق. وفي الوقت نفسه، كان ذلك أمراً معقولاً للغاية، وبسيطاً جداً. لقد شرحت كل أنواع التناقضات البشرية التي يمكنني التفكير فيها. لكن كيف يمكن للمرء أن يأخذ كل هذا على محمل الجد؟ كان دون خوان يدفعني إلى مسار انهيار جليدي سيجرفني إلى الأبد.

شعرت بموجة أخرى من الإحساس بالتهديد. لم تنبع الموجة مني، ومع ذلك كانت مرتبطة بي. كان دون خوان يفعل بي شيئًا ما، إيجابيًا بشكل غامض وسلبيًا بشكل رهيب في نفس الوقت. شعرتُ بذلك كمحاولة لقطع غشاء رقيق بدا وكأنه ملتصق بي. كانت عيناه مثبتة عليّ بنظرة ثابتة لا ترمش. أبعد عينيه وبدأ يتحدث دون أن ينظر إليّ بعد الآن.

وقال: "كلما هاجمتك الشكوك إلى حد خطير، افعل شيئًا عمليًا حيال ذلك. أطفئ النور. اخترق الظلام؛ واكتشف ما يمكنك رؤيته."

نهض ليطفئ الأنوار. أوقفته.

قلت: "لا، لا يا دون خوان، لا تطفئ الأنوار". أنا بخير."

ما شعرت به حينها كان خوفاً غير عادي بالنسبة لي من الظلام. مجرد التفكير في الأمر جعلني ألهث. كنت أعرف شيئاً ما بشكل غريزي، لكنني لم أكن لأجرؤ على لمسه أو إظهاره، ليس في مليون سنة!

قال دون خوان وهو يتراجع إلى كرسيه: "لقد رأيت الظلال العابرة على الأشجار". "هذا جيد جداً. أود أن أراك إياها داخل هذه الغرفة. أنت لا ترى أي شيء. أنت ببساطة تلتقط صوراً عابرة. لديك ما يكفي من الطاقة لذلك.

كنت أخشى أن ينهض دون خوان على أي حال ويطفئ الأنوار، وهو ما فعله بالفعل. وبعد ثانيتين، كنت أصرخ بأعلى صوتي. لم أكتفِ برؤية تلك الصور العابرة، بل سمعتها تطنّ بجوار أذني. انفجر دون خوان ضاحكاً وهو يشعل الأنوار.

"يا لك من شخص متقلب المزاج!" قال. "شخص غير مؤمن تماماً من جهة، وشخص عملي تماماً من جهة أخرى. يجب عليك ترتيب هذا الصراع الداخلي.

وإلا، فسوف تنتفخ مثل ضفدع كبير وتنفجر."

استمر دون خوان في دفع شوكته أعمق فأعمق في داخلي. قال: "لقد رأى سحرة المكسيك القديمة المفترس". أطلقوا عليه اسم *"الطائر"* لأنه يقفز في الهواء. إنه منظر غير جميل. إنه ظل كبير، مظلم بشكل لا يمكن اختراقه، ظل أسود يقفز في الهواء. ثم يهبط بشكل مسطح على الأرض. لم يكن سحرة المكسيك القديمة مرتاحين لفكرة متى ظهر على الأرض. لقد فكروا في أن الإنسان يجب أن يكون كائنًا كاملًا في مرحلة ما ، مع رؤى هائلة ، ومآثر الوعي التي هي أساطير أسطورية في الوقت الحاضر. ثم يبدو أن كل شيء يختفي، ويصبح لدينا رجل مخدر."

أردت أن أغضب، وأن أصفه بالمصاب بجنون الهوس، لكن بطريقة ما لم يكن هناك ذلك الشعور بالاستقامة الذي كان عادة ما يكمن تحت سطح كياني. كان هناك شيء ما بداخلي يتجاوز مجرد طرح سؤالي المفضل على نفسي: ماذا لو كان كل ما قاله صحيحاً؟ في اللحظة التي كان يتحدث فيها معي تلك الليلة، شعرت في أعماق قلبي أن كل ما كان يقوله صحيح، ولكن في الوقت نفسه، وبنفس القوة، كان كل ما كان يقوله محض هراء.

"ماذا تقول يا دون خوان؟" سألتُ بصوتٍ خافت. كان حلقي ضيقاً. لم أستطع التنفس بصعوبة.

"ما أقوله هو أن ما يواجهنا ليس مجرد مفترس بسيط. إنه ذكي جدا، ومنظم. إنه يتبع نظاماً منهجياً يجعلنا عديمي الفائدة. الإنسان، الكائن السحري الذي قدر له أن يكون، لم يعد سحريًا. إنه شخص عادي. لم يعد هناك أحلام للإنسان سوى أحلام حيوان يُربى ليصبح قطعة لحم: مبتذلة، تقليدية، غبية."

أثارت كلمات دون خوان في نفسي رد فعل جسدي غريب يشبه الشعور بالغثيان. شعرت وكأنني سأصاب بالغثيان مرة أخرى. لكن الغثيان كان ينبع من أعماق كياني، من نخاع عظامي. أصابتني تشنجات لا إرادية. هزني دون خوان من كتفيّ بقوة. شعرت برقبتي تتأرجح ذهابًا وإيابًا تحت وطأة قبضته. لقد هدّأتني هذه المناورة على الفور. شعرت بمزيد من السيطرة.

قال دون خوان: "هذا المفترس، وهو بالطبع كائن غير عضوي، ليس غير مرئي لنا تمامًا، كما هو الحال مع الكائنات غير العضوية الأخرى". أعتقد أننا كأطفال نراه ونقرر أنه مروع للغاية لدرجة أننا لا نريد التفكير فيه. بالطبع، قد يصر الأطفال على التركيز على المنظر، لكن كل من حولهم يثنيهم عن ذلك.

وتابع قائلاً: "الخيار الوحيد المتبقي للبشرية هو الانضباط. الانضباط هو الرادع الوحيد. لكنني لا أقصد بالانضباط الروتينات القاسية. لا أقصد الاستيقاظ كل صباح في الساعة الخامسة والنصف وسكب الماء البارد على نفسك حتى يصبح لونك أزرق. يفهم السحرة الانضباط على أنه القدرة على مواجهة الصعاب التي لا تندرج ضمن توقعاتنا بهدوء. بالنسبة لهم، الانضباط فن: فن مواجهة اللانهائية دون تردد، ليس لأنهم أقوياء وصلبون، بل لأنهم مليئون بالرهبة."

"بأي طريقة يمكن أن يكون انضباط السحرة رادعاً؟" سألت. قال دون خوان وهو يفحص وجهي كما لو كان يبحث

عن أي علامات على عدم التصديق: "يقول السحرة إن الانضباط يجعل معطف الوعي المتوهج غير مستساغ للطائر". والنتيجة هي أن الحيوانات المفترسة تصبح في حيرة من أمرها. أظن أن معطفًا متوهجًا غير صالح للأكل من الوعي ليس جزءًا من إدراكهم. بعد أن

أصابهم الذهول، لم يعد أمامهم أي خيار سوى الامتناع عن مواصلة مهمتهم الشنيعة.

وتابع قائلاً: "إذا لم تأكل الحيوانات المفترسة معطفنا المتوهج من الوعي لفترة من الوقت، فسوف يستمر في النمو". وبتبسيط هذا الأمر إلى أقصى حد، يمكنني القول إن السحرة، من خلال انضباطهم، يدفعون المفترسين بعيدًا لفترة كافية تسمح لطبقة وعيهم المتوهجة بالنمو إلى ما هو أبعد من مستوى أصابع القدم. بمجرد أن يتجاوز مستوى أصابع القدم، يعود إلى حجمه الطبيعي.

كان سحرة المكسيك القديمة يقولون إن معطف الوعي المتوهج يشبه الشجرة. إذا لم يتم تقليمها، فإنها تنمو إلى حجمها الطبيعي. عندما يصل الوعي إلى مستويات أعلى من أصابع القدم، تصبح المناورات الهائلة للإدراك أمراً طبيعياً.

وتابع دون خوان قائلاً: "كانت الحيلة الكبرى لهؤلاء السحرة في العصور القديمة هي إثقال عقول الطيور بالانضباط". لقد اكتشفوا أنه إذا قاموا بإرهاق عقل الطيور بالصمت الداخلي، فإن التركيب الأجنبي سيهرب، مما يمنح أيًا من الممارسين المشاركين في هذه المناورة اليقين التام بأصل العقل الأجنبي. يعود النظام الأجنبي، أؤكد لك ذلك، لكن ليس بنفس القوة، وتبدأ عملية يصبح فيها هروب عقل "الطيور" روتينًا، حتى يأتي يوم تهرب فيه بشكل دائم. يوم حزين حقاً! هذا هو اليوم الذي يتعين عليك فيه الاعتماد على أجهزتك الخاصة، والتي تكاد تكون معدومة. لا يوجد من يخبرك بما يجب عليك فعله. لا يوجد عقل أجنبي الأصل ليملي عليك الحماقات التي اعتدت عليها.

وتابع دون خوان قائلاً: "كان معلمي، الناغوال جوليان، يحذر جميع تلاميذه، من أن هذا هو أصعب يوم في حياة الساحر، لأن العقل الحقيقي الذي ينتمي إلينا، وهو مجموع خبراتنا، بعد حياة من الهيمنة، أصبح خجولاً وغير آمن ومراوغاً. شخصياً، أود أن أقول إن المعركة الحقيقية للسحرة تبدأ في تلك اللحظة. والباقي مجرد تحضير."

انتابني شعور حقيقي بالانفعال. كنت أرغب في معرفة المزيد، ومع ذلك كان هناك شعور غريب بداخلي يطالبني بالتوقف. لقد ألمح ذلك إلى نتائج وخيمة وعقاب، شيء مثل غضب الله الذي ينزل عليّ بسبب عبثي بشيء أخفاه الله نفسه. بذلت جهداً كبيراً لأسمح لفضولي بالتغلب عليّ.

سمعت نفسي أقول: "ماذا تقصد بإجهاد عقول الطيور؟"

أجاب قائلاً: "إن الانضباط يرهق العقل الأجنبي إلى أقصى حد". "لذا، من خلال انضباطهم، يقضي السحرة على التركيب الأجنبي."

لقد غمرتني تصريحاته. كنت أعتقد أن دون خوان إما مجنون بشكل مؤكد أو أنه كان يخبرني بشيء رائع لدرجة أنه جمد كل شيء بداخلي. لكنني لاحظتُ كيف استجمعتُ طاقتي بسرعة لأنكر كل ما قاله. بعد لحظة من الذعر، بدأت أضحك، كما لو أن دون خوان قد أخبرني بنكتة. حتى أنني سمعت نفسي أقول، "دون خوان، دون خوان، أنت غير قابل للإصلاح!"

بدا أن دون خوان يفهم كل ما كنت أمر به. هز رأسه من جانب إلى آخر ورفع عينيه إلى السماء في إيماءة يأس ساخر.

قال: "أنا لا أصلح نفسي، لدرجة أنني سأعطي عقول الطيور ،التي تحملها بداخلك، صدمة أخرى. سأكشف لك أحد أكثر أسرار السحر غرابة. سأصف لك اكتشافاً استغرق السحرة آلاف السنين للتحقق منه وتوثيقه."

نظر إليّ وابتسم بخبث. وقال: "إن عقل الطيور تهرب إلى الأبد عندما ينجح الساحر في الإمساك بالقوة الاهتزازية التي تربطنا معًا كمجموعة من حقول الطاقة. إذا استمر الساحر في ممارسة هذا الضغط لفترة كافية، فإن عقل الطيور يهرب مهزوماً.

وهذا بالضبط ما ستفعله: التمسك بالطاقة التي تربطك ببعضك البعض."

كان رد فعلي غريباً للغاية لدرجة أنني لم أكن أتخيله. اهتز شيء ما بداخلي بالفعل، كما لو أنه تلقى صدمة. دخلت في حالة من الخوف غير المبرر، والذي ربطته على الفور بخلفيتي الدينية.

نظر إليّ دون خوان من رأسي إلى أخمص قدمي.

"أنت تخشى غضب الله، أليس كذلك؟" قال. "اطمئن، هذا ليس خوفك. إنه خوف الطيور ، لأنها تعلم أنك ستفعل ما أقوله لك بالضبط".

لم تُهدئني كلماته على الإطلاق. شعرتُ بسوءٍ أكبر. كنت أعاني من تشنجات لا إرادية، ولم يكن لدي أي وسيلة لإيقافها.

قال دون خوان بهدوء: "لا تقلق". "أعلم يقيناً أن تلك الهجمات تتلاشى بسرعة كبيرة." عقل الطير ليس له تركيز على الإطلاق ".

وبعد لحظة، توقف كل شيء، كما توقع دون خوان. إن القول بأنني كنت في حيرة من أمري هو تعبير ملطف. كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي، سواء مع دون خوان أو بمفردي، التي لم أكن أعرف فيها ما إذا كنت قادماً أم ذاهباً. أردت النهوض من الكرسي والتجول، لكنني كنت خائفاً جداً. كنتُ ممتلئاً بالحجج المنطقية، وفي الوقت نفسه كنتُ ممتلئاً بخوف طفولي. بدأت أتنفس بعمق بينما غطى العرق البارد جسدي بالكامل. لقد أطلقت على نفسي بطريقة ما مشهداً مروعاً للغاية: ظلال سوداء عابرة تقفز من حولي أينما اتجهت.

أغمضت عيني وأسندت رأسي على ذراع الكرسي المحشو. قلت: "لا أعرف أي طريق أسلك يا دون خوان". "لقد نجحتَ حقاً الليلة في تضليلي."

قال دون خوان: "أنت تعاني من صراع داخلي". "في أعماقك، أنت تعلم أنك غير قادر على رفض الاتفاق على أن جزءًا لا غنى عنه منك، معطفك المتوهج من الوعي، سيعمل كمصدر تغذية لا يمكن فهمه، بطبيعة الحال، لكيانات لا يمكن فهمها." وجزء آخر منك سيقف في وجه هذا الوضع بكل قوته.

وتابع قائلاً: "إن ثورة السحرة هي أنهم يرفضون الالتزام بالاتفاقيات التي لم يشاركوا فيها. لم يسألني أحد قط إذا كنت أوافق على أن أؤكل من قبل كائنات ذات نوع مختلف من الوعي. لقد جلبني والداي إلى هذا العالم لأكون طعامًا مثلهما، وهذه هي نهاية القصة.

نهض دون خوان من كرسيه ومد ذراعيه وساقيه. "لقد جلسنا هنا لساعات. حان وقت الدخول إلى المنزل. سآكل. هل ترغب في تناول الطعام معي؟"

رفضت. كانت معدتي في حالة اضطراب شديد.

قال: "أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب إلى النوم". "لقد دمرتك الهجمات."

لم أكن بحاجة إلى أي إقناع إضافي. انهرت على سريري وغفوت كالميت.

في المنزل، ومع مرور الوقت، أصبحت فكرة الطيور واحدة من أهم اهتماماتي في الحياة. وصلت إلى مرحلة شعرت فيها أن دون خوان كان محقاً تماماً بشأنهم. مهما حاولت، لم أستطع تجاهل منطقه. كلما فكرت في الأمر أكثر، وكلما تحدثت وراقبت نفسي ورفاقي، ازداد يقيني بأن شيئًا ما يجعلنا عاجزين عن أي نشاط أو تفاعل أو فكرة لا يكون فيها الذات محورها. كان همّي، وكذلك همّ كل من أعرفهم أو تحدثت إليهم، هو الذات. بما

أنني لم أجد أي تفسير لمثل هذا التجانس العالمي، فقد اعتقدت أن طريقة تفكير دون خوان هي الطريقة الأنسب لتوضيح هذه الظاهرة.

لقد تعمقت قدر استطاعتي في قراءة الكتب المتعلقة بالأساطير والخرافات. أثناء القراءة، اختبرت شيئاً لم أشعر به من قبل: كل كتاب قرأته كان بمثابة تفسير للأساطير والخرافات. في كل كتاب من تلك الكتب، كان من الواضح وجود عقل متجانس. اختلفت الأساليب، لكن الدافع وراء الكلمات كان متجانساً: فعلى الرغم من أن الموضوع كان شيئاً مجرداً مثل الأساطير والخرافات، إلا أن المؤلفين تمكنوا دائماً من إدراج عبارات عن أنفسهم. لم يكن الدافع المتجانس وراء كل كتاب من تلك الكتب هو الموضوع المعلن للكتاب؛ بل كان خدمة الذات. لم أشعر بهذا من قبل.

عزوت ردة فعلي إلى تأثير دون خوان. كان السؤال الذي لا مفر منه والذي طرحته على نفسي هو: هل هو يؤثر عليّ لأرى هذا، أم أن هناك حقًا عقلًا أجنبيًا يملي كل ما نفعله؟ لقد انزلقت، اضطراراً، إلى الإنكار مرة أخرى، وانتقلت بشكل جنوني من الإنكار إلى القبول ثم إلى الإنكار. شيء ما بداخلي كان يعلم أن ما كان دون خوان يرمي إليه هو حقيقة قوية، لكن شيئًا آخر بنفس القدر من الأهمية بداخلي كان يعلم أن كل ذلك كان هراءً. كانت النتيجة النهائية لصراعي الداخلي شعوراً بالخوف، وشعوراً بأن شيئاً خطيراً وشيكاً يقترب مني.

أجريتُ تحقيقات أنثروبولوجية مستفيضة حول موضوع الطيور في ثقافات أخرى، لكنني لم أجد أي إشارة إليها في أي مكان. يبدو أن دون خوان كان المصدر الوحيد للمعلومات حول هذا الموضوع. في المرة التالية التي رأيته فيها، سارعتُ فوراً للحديث عن الطيور.

قلت: "لقد بذلت قصارى جهدي لأكون عقلانياً بشأن هذا الموضوع، لكنني لا أستطيع. هناك لحظات أتفق فيها معك تماماً بشأن المفترسون."

قال دون خوان مبتسماً: "ركز انتباهك على الظلال العابرة التي تراها بالفعل".

أخبرت دون خوان أن تلك الظلال العابرة ستكون نهاية حياتي العقلانية. رأيتها في كل مكان. منذ أن غادرت منزله، لم أعد قادرة على النوم في الظلام. لم يزعجني النوم مع إضاءة الأنوار على الإطلاق. لكن في اللحظة التي أطفأت فيها الأنوار، بدأ كل شيء حولي بالاهتزاز. لم أرَ قط أشكالاً أو هيئات كاملة. كل ما رأيته كان ظلالاً سوداء عابرة.

قال دون خوان: "عقول الطيور لم تفارقك". "لقد أصيبوا بجروح خطيرة. إنها تبذل قصارى جهدها لإعادة ترتيب علاقتها بك. لكن شيئًا ما في داخلك قد انقطع إلى الأبد. الطير يعرف ذلك. الخطر الحقيقي هو أن عقل الطيور قد ينتصر من خلال إرهاقك وإجبارك على الاستسلام عن طريق استغلال التناقض بين ما يقوله وما أقوله.

وتابع دون خوان قائلاً: "كما ترى، عقل الطيور لا منافس له". "عندما يقترح شيئًا ما، فإنه يتفق مع اقتراحه الخاص، ويجعلك تعتقد أنك قد فعلت شيئًا ذا قيمة. سيقول لك عقل الطيور إن كل ما يقوله خوان ماتوس هو هراء محض، ثم سيوافق العقل نفسه على اقتراحه الخاص، "نعم، بالطبع، إنه هراء"، ستقول أنت. هكذا يتغلبون علينا.

وتابع قائلاً: "إن الطيور جزء أساسي من الكون، ويجب التعامل معها على حقيقتها - إنها رائعة، ووحشية". إنها الوسائل التي يختبرنا بها الكون.

وتابع قائلاً: "نحن مجسات طاقة خلقها الكون"، وكأنه غافل عن وجودي، "ولأننا نمتلك طاقة لديها وعي، فإننا الوسيلة التي يصبح بها الكون واعياً بذاته. الطيور هي المنافس الذين لا يلين. لا يمكن اعتبارها أي شيء آخر. إذا نجحنا في فعل ذلك، فإن الكون سيسمح لنا بالاستمرار."

كنت أتمنى أن يقول دون خوان المزيد. لكنه قال فقط: "انتهت الحملة الخاطفة في المرة الأخيرة التي كنتم فيها هنا؛ ليس هناك الكثير مما يمكن قوله عن الطيور". حان الوقت لنوع آخر من المناورة ".

لم أستطع النوم تلك الليلة. غفوت في نوم خفيف في الساعات الأولى من الصباح، حتى سحبني دون خوان من سريري وأخذني في نزهة في الجبال. في المكان الذي كان يعيش فيه، كان شكل الأرض مختلفًا تمامًا عن شكل صحراء سونوران، لكنه أخبرني ألا أبالغ في المقارنة، فبعد المشي لمسافة ربع ميل، يصبح كل مكان في العالم متشابهًا تمامًا.

قال: "مشاهدة المعالم السياحية للأشخاص في السيارات". "إنهم يسيرون بسرعة كبيرة دون أي جهد من جانبهم." لا يُناسب التجول سيراً على الأقدام مشاهدة المعالم السياحية. فعلى سبيل المثال، عندما تكون في سيارة، قد ترى جبلاً ضخماً يأسرك منظره بجماله. إن رؤية الجبل نفسه لن تغمرك بنفس الطريقة إذا نظرت إليه وأنت تمشي على قدميك؛ بل ستغمرك بطريقة مختلفة، خاصة إذا كان عليك تسلقه أو الالتفاف حوله.

كان الجو حاراً جداً ذلك الصباح. مشينا على مجرى نهر جاف. كان الشيء الوحيد المشترك بين هذا الوادي وصحراء سونوران هو وجود ملايين الحشرات فيهما. كانت البعوض والذباب من حولي أشبه بقاذفات غوص تستهدف أنفي وعيني وأذني. قال لي دون خوان ألا أهتم بطنينهم.

قال بنبرة حازمة: "لا تحاول تفريقهم بيدك". "انوي إبعادهم. قم بإنشاء حاجز طاقة حولك. التزم الصمت، ومن صمتك سيُبنى الحاجز. لا أحد يعرف كيف يتم ذلك. إنها واحدة من تلك الأشياء التي أطلق عليها السحرة القدامى حقائق حيوية. أوقف حوارك الداخلي. هذا كل ما يتطلبه الأمر.

"أريد أن أطرح عليك فكرة غريبة"، تابع دون خوان حديثه وهو يواصل سيره أمامي.

كان عليّ أن أسرع خطواتي لأكون أقرب إليه حتى لا يفوتني أي شيء يقوله.

وقال: "يجب أن أؤكد أنها فكرة غريبة ستواجه مقاومة لا نهاية لها من جانبك". سأخبرك مسبقاً أنك لن تقبل ذلك بسهولة. لكن حقيقة أن الأمر غريب لا ينبغي أن تكون رادعاً. أنت عالم اجتماع. لذلك، فإن عقلك منفتح دائمًا على الاستفسار، أليس كذلك؟

كان دون خوان يسخر مني بلا خجل. كنت أعرف ذلك، لكنه لم يزعجني. ربما بسبب حقيقة أنه كان يمشي بسرعة كبيرة، واضطررت لبذل جهد هائل لمواكبته، فإن سخرية كلامه لم تؤثر بي، وبدلاً من أن تجعلني أشعر بالغضب، جعلتني أضحك. كان تركيزي الكامل منصباً على ما كان يقوله، وتوقفت الحشرات عن إزعاجي إما لأنني كنت قد نويتُ إنشاء حاجز من الطاقة حولي أو لأنني كنت مشغولاً جداً بالاستماع إلى دون خوان لدرجة أنني لم أعد أهتم بطنينها من حولي.

قال ببطء، وهو يقيس تأثير كلماته: "الفكرة الغريبة هي أن كل إنسان على وجه الأرض يبدو أن لديه نفس ردود الفعل، ونفس الأفكار، ونفس المشاعر. يبدو أنهم يستجيبون بنفس الطريقة تقريبًا لنفس المحفزات. يبدو أن تلك ردود الفعل مشوشة نوعاً ما بسبب اللغة التي يتحدثون بها، ولكن إذا أزلنا ذلك، فإنها بالضبط نفس ردود الفعل التي تحاصر كل إنسان على وجه الأرض. أود أن تشعر بالفضول حيال هذا الأمر، بصفتك عالماً اجتماعياً بالطبع، وأن ترى ما إذا كان بإمكانك تفسير هذا التجانس بشكل رسمي."

جمع دون خوان مجموعة من النباتات. كان من الصعب رؤية بعضها. ويبدو أنها أقرب إلى عالم الطحالب والأشنات. فتحت حقيبته، ولم نتحدث بعد ذلك. عندما جمع ما يكفي من النباتات، عاد إلى منزله، ماشياً بأسرع ما يمكن. وقال إنه يريد تنظيف تلك النباتات وفصلها ووضعها في ترتيب مناسب قبل أن تجف كثيراً.

كنت منغمسًا تمامًا في التفكير في المهمة التي حددها لي. بدأت بمحاولة مراجعة ما إذا كنت أعرف أي مقالات أو أوراق بحثية مكتوبة حول هذا الموضوع. ظننت أنني سأضطر إلى البحث في الأمر، وقررت أن أبدأ بحثي بقراءة جميع الأعمال المتاحة حول "الشخصية الوطنية". تحمستُ للموضوع، بطريقة عشوائية، وأردتُ حقًا أن أبدأ بالعودة إلى المنزل على الفور، لأنني أردتُ أن آخذ مهمته على محمل الجد، ولكن قبل أن نصل إلى منزله، جلس دون خوان على حافة عالية تطل على الوادي. لم ينطق بكلمة لفترة من الوقت. لم يكن يلهث. لم أستطع أن أفهم لماذا توقف ليجلس.

قال فجأة بنبرة تنذر بالسوء: "إن مهمة اليوم بالنسبة لك هي واحدة من أكثر الأشياء غموضاً في السحر،

شيء يتجاوز اللغة، ويتجاوز التفسيرات. ذهبنا في نزهة اليوم، وتحدثنا، لأن غموض السحر يجب أن يكون محصوراً في الأمور الدنيوية. لا بد أن ينبع من العدم، ويعود مرة أخرى إلى العدم. هذا هو فن المحاربين المسافرين: أن يمروا عبر ثقب إبرة دون أن يلاحظهم أحد. لذا، استعد جيداً عن طريق إسناد ظهرك إلى هذا الجدار الصخري، بعيداً قدر الإمكان عن الحافة. سأكون بجانبك، في حال أغمي عليك أو سقطت."

"ماذا تنوي أن تفعل يا دون خوان؟" سألت، وكان إنذاري واضحاً جداً لدرجة أنني لاحظته وخفضت صوتي.

قال: "أريدك أن تشبك ساقيك وتدخل في صمت داخلي ". "لنفترض أنك تريد معرفة المقالات التي يمكنك البحث عنها لتفنيد أو إثبات ما طلبت منك القيام به في بيئتك الأكاديمية. ادخل في صمت داخلي، ولكن لا تنام. هذه ليست رحلة عبر بحر الوعي المظلم. هذه هي الرؤية من الصمت الداخلي ".

كان من الصعب بالنسبة لي أن أدخل في صمت داخلي دون أن أنام. قاومت رغبةً شبه مستعصية في النوم. لقد نجحت، ووجدت نفسي أنظر إلى قاع الوادي من ظلام دامس يحيط بي. ثم رأيت شيئاً جعلني أشعر بالبرد حتى النخاع العظمي. رأيت ظلًا ضخمًا، ربما على ارتفاع خمسة عشر قدمًا، يقفز في الهواء ثم يهبط بصوت مكتوم. شعرتُ بالصدمة في عظامي، لكنني لم أسمعها.

قال دون خوان في أذني: "إنها ثقيلة حقاً". كان يمسكني من ذراعي اليسرى بكل قوته.

رأيت شيئًا يشبه ظلًا طينيًا يتمايل على الأرض، ثم يقفز قفزة عملاقة أخرى، ربما بطول خمسين قدمًا، ويهبط مرة أخرى، بنفس صوت الارتطام الصامت المشؤوم. كافحتُ لأحافظ على تركيزي. لقد شعرت برعب يفوق أي وصف يمكنني استخدامه بشكل منطقي. أبقيت عيني مثبتة على الظل القافز في قاع الوادي. ثم سمعت طنيناً غريباً للغاية، مزيجاً من صوت رفرفة الأجنحة وطنين جهاز راديو لم يلتقط مؤشره تردد محطة إذاعية، وكان صوت الارتطام الذي تلاه شيئاً لا يُنسى. لقد هزّ ذلك دون خوان وأنا من الأعماق - لقد هبط ظل طيني أسود عملاق بجوار أقدامنا.

قال دون خوان بنبرة آمرة: "لا تخف". "حافظ على صمتك الداخلي وسيبتعد".

كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي. كنت أدرك تماماً أنه إذا لم أحافظ على صمتي الداخلي، فإن ظل الطين سيغطيني كغطاء ويخنقني. دون أن أفقد الظلام المحيط بي، صرخت بأعلى صوتي. لم أشعر قط بمثل هذا الغضب والإحباط الشديد. قفز ظل الطين قفزة أخرى، وصولاً إلى قاع الوادي بوضوح. ظللت أصرخ وأهز ساقي. أردتُ أن أتخلص من أي شيء قد يأتي ليأكلني. كانت حالة التوتر لدي شديدة لدرجة أنني فقدت الإحساس بالوقت.

ربما أغمي علي.

عندما استعدت وعيي، كنت مستلقياً على سريري في منزل دون خوان. كانت هناك منشفة مبللة بماء مثلج ملفوفة حول جبهتي. كنت أعاني من حمى شديدة. قامت إحدى رفيقات دون خوان بفرك ظهري وصدري وجبهتي بالكحول الطبي، لكن هذا لم يخفف من معاناتي. الحرارة التي كنت أشعر بها كانت تنبع من داخلي. كان الغضب والعجز هما ما ولّد ذلك.

ضحك دون خوان كما لو أن ما كان يحدث لي هو أطرف شيء في العالم. انطلقت منه ضحكات مدوية لا تنتهي.

قال: "لم أكن أعتقد أبدًا أنك ستأخذ رؤية الطائر إلى هذا الحد".

أخذ بيدي وقادني إلى الجزء الخلفي من منزله، حيث غمرني في حوض ضخم من الماء، وأنا بكامل ملابسي - حذائي وساعتي وكل شيء.

"ساعتي، ساعتي!" صرخت.

انفجر دون خوان ضاحكاً. قال: "لا ينبغي أن ترتدي ساعة عندما تأتي لرؤيتي". "لقد أفسدت ساعتك الآن!"

خلعت ساعتي ووضعتها بجانب حوض الاستحمام. تذكرت أنها مقاومة للماء وأنه لن يحدث لها شيء.

لقد ساعدني الاستحمام في حوض الاستحمام بشكل كبير. عندما سحبني دون خوان من الماء المتجمد، كنت قد اكتسبت درجة من السيطرة.

"هذا المنظر سخيف!" ظللت أكرر الكلام، عاجزاً عن قول أي شيء آخر.

لم يكن المفترس الذي وصفه دون خوان شيئًا خيّرًا. كان ثقيلاً للغاية، وقذراً، وغير مبالٍ. شعرتُ بتجاهله لنا. لا شك أنه سحقنا منذ زمن بعيد، وجعلنا، كما قال دون خوان، ضعفاء وعرضة للتأثر وخاضعين. خلعت ملابسي المبللة، وغطيت نفسي بمعطف واقٍ من المطر، وجلست على سريري، وبكيت بكاءً شديداً، ولكن ليس على نفسي. كان لدي غضبي، ونيتي التي لا تتزعزع، ألا أدعهم

يأكلونني. بكيتُ على إخواني في الإنسانية، وخاصة على والدي. لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أنني أحببته كثيرًا.

"لم تكن لديه فرصة قط"، سمعت نفسي أرددها مراراً وتكراراً، كما لو أن الكلمات لم تكن كلماتي حقاً. أبي المسكين، أكثر شخص مراعٍ عرفته، رقيق للغاية، لطيف للغاية، عاجز للغاية.

بداية الرحلة الحاسمة

القفزة إلى الهاوية

لم يكن هناك سوى مسار واحد يؤدي إلى الهضبة المسطحة. بمجرد أن وصلنا إلى الهضبة نفسها، أدركت أنها لم تكن واسعة كما بدت عندما نظرت إليها من بعيد. لم تكن النباتات الموجودة على الهضبة مختلفة عن النباتات الموجودة أسفلها: شجيرات خشبية خضراء باهتة ذات مظهر غامض يشبه الأشجار.

في البداية، لم أرَ الهوة. لم أدرك أن الهضبة تنتهي بجرف إلا عندما قادني دون خوان إليها؛ لم تكن هضبة حقيقية بل مجرد قمة مسطحة لجبل كبير الحجم. كان الجبل مستديرًا ومتآكلًا على واجهتيه الشرقية والجنوبية؛ ومع ذلك، بدا وكأنه قد تم قطعه بسكين على جزء من جانبيه الغربي والشمالي. من حافة الهاوية، تمكنت من رؤية قاع الوادي، ربما على بعد ستمائة قدم إلى الأسفل. كان مغطاة بنفس الشجيرات الخشبية التي تنمو في كل مكان.

أعطى صف كامل من الجبال الصغيرة جنوب وشمال قمة ذلك الجبل انطباعًا واضحًا بأنها كانت جزءًا من وادٍ عملاق، عمره ملايين السنين، حفره نهر لم يعد موجودًا. لقد محت عوامل التعرية حواف ذلك الوادي. في بعض النقاط، تم تسويتها مع الأرض. الجزء الوحيد الذي بقي سليماً هو المنطقة التي كنت أقف فيها.

قال دون خوان وكأنه يقرأ أفكاري: "إنها صخرة صلبة". أشار بذقنه نحو قاع الوادي. "إذا سقط أي شيء من هذه الحافة إلى الأسفل، فسوف يتحطم إلى رقائق على الصخر هناك."

كان هذا هو الحوار الأولي بين دون خوان وبيني، في ذلك اليوم، على قمة ذلك الجبل. قبل ذهابه إلى هناك، أخبرني أن وقته على الأرض قد انتهى. كان يغادر في رحلته النهائية. كانت تصريحاته مدمرة بالنسبة لي. لقد فقدت السيطرة تماماً، ودخلت في حالة من التجزاء السعيد، ربما تشبه ما يمر به الناس عندما يصابون بانهيار عصبي. لكن كان هناك جزء أساسي مني ظل متماسكاً: أنا في طفولتي. أما الباقي فكان غموضاً وعدم يقين. لقد كنت مجزاءا لفترة طويلة لدرجة أن التجزاء مرة أخرى كان السبيل الوحيد للخروج من محنتي.

بعد ذلك، حدث تفاعل غريب للغاية بين مستويات مختلفة من وعيي. صعدنا أنا ودون خوان ورفيقه

دون جينارو واثنين من تلاميذه، بابليتو ونيستور، إلى قمة ذلك الجبل. كنت أنا وبابليتو ونيستور هناك لنقوم بمهمتنا الأخيرة كمتدربين: القفز في هاوية، وهو أمر غامض للغاية، والذي شرحه لي دون خوان على مستويات مختلفة من الوعي ولكنه ظل لغزًا بالنسبة لي حتى يومنا هذا.

قال دون خوان مازحاً إنه يجب عليّ إحضار دفتر ملاحظاتي والبدء في تدوين ملاحظات حول لحظاتنا الأخيرة معاً. قام بوخزي برفق في أضلاعي وأكد لي، وهو يكتم ضحكته، أنه كان من المناسب فعل ذلك، بما أنني بدأت في طريق المحاربين المسافرين من خلال تدوين الملاحظات.

قاطع دون جينارو قائلاً إن محاربين مسافرين آخرين قبلنا وقفوا على قمة الجبل المسطحة نفسها قبل الشروع في رحلتهم إلى المجهول. التفت دون خوان إلي وقال بصوت هادئ إنني سأدخل قريباً إلى اللانهائية بقوة قوتي الشخصية، وأنه هو ودون جينارو موجودان هناك فقط ليودعاني. قاطع دون جينارو مرة أخرى وقال إنني كنت هناك أيضاً لأفعل الشيء نفسه من أجلهم.

قال دون خوان: "بمجرد دخولك إلى اللانهائية، لا يمكنك الاعتماد علينا لإعادتك". إذن، نحتاج إلى قرارك. أنت وحدك من يقرر ما إذا كنت ستعود أم لا. يجب عليّ أيضاً أن أحذرك من أن قلة

من المحاربين المسافرين ينجون من هذا النوع من المواجهات مع اللانهائية. اللانهائية مغرية بشكل لا يصدق. يجد المحارب المسافر أن العودة إلى عالم الفوضى والإكراه والضوضاء والألم أمرٌ غير مرغوب فيه على الإطلاق. يجب أن تعلم أن قرارك بالبقاء أو العودة ليس مسألة اختيار معقول، بل مسألة نية.

وتابع قائلاً: "إذا اخترت عدم العودة، فسوف تختفي كما لو أن الأرض قد ابتلعتك. لكن إذا اخترت العودة، فعليك أن تشد حزامك وتنتظر كالمحارب المسافر الحقيقي حتى تنتهي مهمتك، أياً كانت، سواء بالنجاح أو بالهزيمة."

ثم بدأ تغيير طفيف للغاية يحدث في وعيي. بدأت أتذكر وجوه الناس، لكنني لم أكن متأكدًا من أنني قابلتهم؛ بدأت مشاعر غريبة من الألم والمودة تتزايد. لم يعد صوت دون خوان مسموعاً. كنت أتوق إلى أشخاص كنت أشك بشدة في أنني قابلتهم من قبل. انتابني فجأة شعورٌ لا يُطاق بالحب تجاه هؤلاء الأشخاص، أياً كانوا. كانت مشاعري تجاههم تفوق الوصف، ومع ذلك لم أستطع معرفة من هم. لم أشعر بوجودهم إلا كما لو أنني عشت حياة أخرى من قبل، أو كما لو كنت أشعر بالناس في حلم. شعرتُ بأن أشكالهم الخارجية قد تغيرت؛ فقد بدأوا بكونهم طوال القامة وانتهى بهم الأمر إلى أن اصبحوا قصار القامة. ما بقي سليماً هو جوهرهم، الشيء نفسه الذي أنتج شوقي الذي لا يطاق إليهم.

جاء دون خوان إلى جانبي وقال لي: "كان الاتفاق أن تبقى على دراية بالعالم اليومي". كان صوته قاسياً وحازماً. وتابع قائلاً: "اليوم ستنجزون مهمة محددة، وهي الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة؛ ويجب عليكم القيام بذلك وأنتم في أقصى درجات العقلانية".

لم أسمع دون خوان يتحدث معي بتلك النبرة من قبل. لقد كان رجلاً مختلفاً في تلك اللحظة، ومع ذلك كان مألوفاً لي تماماً. أطعته بخنوع وعدت إلى وعيي بعالم الحياة اليومية. لكنني لم أكن أعلم أنني كنت أفعل ذلك. بدا لي في ذلك اليوم كما لو أنني وافقت على الخضوع لخوان بدافع الخوف والاحترام.

ثم تحدث إليّ دون خوان بالأسلوب الذي اعتدت عليه. ما قاله كان مألوفاً جداً أيضاً. وقال إن العمود الفقري للمحارب المسافر هو التواضع والكفاءة، والعمل دون توقع أي شيء وتحمل أي شيء يواجهه.

عند تلك النقطة مررت بتحول آخر في مستوى وعيي. انصبّ تركيزي على فكرة، أو شعور بالمعاناة. أدركت حينها أنني أبرمت اتفاقاً مع بعض الأشخاص لأموت معهم، ولم أستطع تذكر من كانوا. شعرت، دون أدنى شك، أنه من الخطأ أن أموت وحيداً. أصبح ألمي لا يُطاق.

تحدث إليّ دون خوان. قال: "نحن وحدنا". "هذا هو حالنا، لكن الموت وحيداً لا يعني الموت في عزلة."

أخذتُ أنفاساً عميقة من الهواء لأتخلص من توتري. وبينما كنت أتنفس بعمق، أصبح ذهني صافياً.

وتابع قائلاً: "إن المشكلة الكبرى التي نواجهها نحن الرجال هي ضعفنا". "عندما يبدأ وعينا في النمو، فإنه ينمو مثل عمود، مباشرة في منتصف كياننا المضيء، من الأسفل إلى الأعلى. يجب أن يصل هذا العمود إلى ارتفاع كبير قبل أن نتمكن من الاعتماد عليه. في هذه المرحلة من حياتك، كساحر، تفقد بسهولة سيطرتك على وعيك الجديد. عندما تفعل ذلك، تنسى كل ما فعلته ورأيته على طريق المحاربين المسافرين لأن وعيك يعود إلى إدراك حياتك اليومية. لقد شرحت لك أن مهمة كل ساحر ذكر هي استعادة كل ما فعله ورأاه على طريق المحاربين المسافرين بينما كان على مستويات جديدة من الوعي. تكمن مشكلة كل ساحر ذكر في أنه ينسى بسهولة لأن وعيه يفقد مستواه الجديد ويسقط أرضاً في لحظة."

قلت: "أفهم تماماً ما تقوله يا دون خوان".

"ربما هذه هي المرة الأولى التي أدركت فيها تماماً سبب نسياني لكل شيء، وسبب تذكري لكل شيء لاحقاً. لطالما اعتقدت أن تحولاتي ناتجة عن حالة مرضية شخصية؛ أعرف الآن سبب حدوث هذه التغييرات، ومع ذلك لا أستطيع التعبير عما أعرفه."

قال دون خوان: "لا تقلق بشأن الكلام". "ستعبر عن كل ما تريد في الوقت المناسب. اليوم، يجب عليك أن تتصرف بناءً على صمتك الداخلي، بناءً على ما تعرفه دون أن تعرفه. أنت تعرف تماماً ما عليك فعله، لكن هذه المعرفة لم تتبلور تماماً في أفكارك بعد.

على مستوى الأفكار أو الأحاسيس الملموسة، كل ما كان لدي هو مشاعر غامضة بمعرفة شيء لم يكن جزءًا من عقلي. حينها، شعرت بوضوح تام بأنني قد تراجعت خطوة كبيرة إلى الوراء؛ بدا وكأن شيئاً ما قد سقط بداخلي. كانت أشبه بصدمة كهربائية. أدركت في تلك اللحظة أنني قد دخلت مستوى آخر من الوعي.

أخبرني دون خوان حينها أنه من الواجب على المحارب المسافر أن يودع جميع الأشخاص الذين يتركهم وراءه. عليه أن يودع بصوت عالٍ وواضح حتى تبقى صرخته ومشاعره مسجلة إلى الأبد في تلك الجبال.

ترددت لفترة طويلة، ليس بدافع الخجل، ولكن لأنني لم أكن أعرف من أضمّنه في شكري. لقد استوعبت تماماً مفهوم السحرة القائل بأن المحاربين المسافرين لا يمكنهم أن يدينوا بأي شيء لأحد.

لقد غرس دون خوان في نفسي مبدأً من مبادئ السحرة: "يدفع المحاربون المسافرون بأناقة وسخاء وسهولة لا مثيل لها كل معروف وكل خدمة تُقدم لهم. وبهذه الطريقة، يتخلصون من عبء الديون."

لقد دفعت، أو كنت بصدد الدفع، لكل من كرمني برعايته أو اهتمامه. لقد لخصت حياتي بدقة متناهية لدرجة أنني لم أترك حجراً واحداً دون أن أقلبه. كنت أعتقد بصدق في تلك الأيام أنني لا أدين بأي شيء لأحد. لقد عبرت عن معتقداتي وترددي تجاه دون خوان.

قال دون خوان إنني قد لخصت حياتي بشكل كامل، لكنه أضاف أنني ما زلت بعيداً عن التخلص من الديون.

"ماذا عن أشباحك؟" تابع قائلاً. "أولئك الذين لم يعد بإمكانك لمسهم؟"

كان يعرف ما يقول. خلال تلخيصي ، سردت له كل حادثة في حياتي. من بين مئات الحوادث التي رويتها له، اختار ثلاث حوادث كأمثلة على الديون التي تكبدتها في وقت مبكر جدًا من حياتي، وأضاف إلى ذلك ديني للشخص الذي كان له دور فعال في لقائي به. شكرت صديقي بإسهاب، وشعرت أن شيئاً ما في الخارج قد أقر بامتناني. أما الثلاثة الآخرون فقد ظلوا مجرد قصص من حياتي، قصص عن أشخاص قدموا لي هدية لا يمكن تصورها، ولم أشكرهم قط.

إحدى هذه القصص كانت تتعلق برجل عرفته عندما كنت طفلاً. كان اسمه السيد لياندرو أكوستا. كان عدو جدي اللدود، خصمه الحقيقي. اتهم جدي هذا الرجل مراراً وتكراراً بسرقة الدجاج من مزرعة الدجاج الخاصة به. لم يكن الرجل متشرداً، بل كان شخصاً لا يملك وظيفة ثابتة ومحددة. كان شخصًا غير تقليدي نوعًا ما، مقامرًا، بارعًا في العديد من المهن: عامل يدوي، معالج ذاتي، صياد، وموفر لعينات النباتات والحشرات للمعالجين بالأعشاب والمعالجين المحليين، وأي نوع من الطيور أو الثدييات لمحلات تحنيط الحيوانات أو متاجر الحيوانات الأليفة.

كان الناس يعتقدون أنه جنى أموالاً طائلة، لكنه لم يستطع الاحتفاظ بها أو استثمارها. كان منتقدوه وأصدقاؤه على حد سواء يعتقدون أنه كان بإمكانه تأسيس أكثر الأعمال التجارية ازدهاراً في المنطقة، من خلال القيام بما يجيده - البحث عن النباتات وصيد الحيوانات - لكنه كان ملعوناً بمرض غريب في الروح جعله مضطرباً وغير قادر على الاهتمام بأي شيء لفترة طويلة من الزمن.

في أحد الأيام، بينما كنت أتمشى على حافة مزرعة جدي، لاحظت أن شخصًا ما كان يراقبني من بين الشجيرات الكثيفة على حافة الغابة. كان السيد أكوستا. كان يجلس القرفصاء داخل شجيرات الغابة نفسها، وكان سيختفي تماماً عن الأنظار لولا عيوني الحادة التي كانت تبلغ من العمر ثماني سنوات.

"لا عجب أن جدي يعتقد أنه جاء ليسرق الدجاج"، هكذا فكرت. كنت أعتقد أنه لا أحد غيري كان بإمكانه ملاحظته؛ لقد كان مخفياً تماماً بسبب سكونه التام. لقد استطعت التمييز بين الشجيرات وظله عن طريق اللمس وليس عن طريق البصر. اقتربت منه. إن حقيقة أن الناس رفضوه بشدة، أو أحبوه بشغف شديد، أثارت فضولي بشكل كبير.

"ماذا تفعل هناك يا سيد أكوستا؟" سألت بجرأة.

قال: "أنا أقضي حاجتي بينما أنظر إلى مزرعة جدك، لذا من الأفضل أن تغادر قبل أن أنهض إلا إذا كنت تحب رائحة البراز."

ابتعدت مسافة قصيرة. أردت أن أعرف ما إذا كان يفعل حقاً ما يدعيه. كان يفعل ذلك فعلا. نهض. ظننت أنه سيغادر الأدغال ويتجه إلى أرض جدي وربما يعبر إلى الطريق، لكنه لم يفعل. بدأ يسير نحو الداخل، إلى الأدغال.

"مهلاً، مهلاً، سيد أكوستا!" صرختُ! "هل يمكنني أن آتي معك؟"

لاحظت أنه توقف عن المشي؛ كان ذلك شعوراً أكثر منه مشهداً حقيقياً لأن الشجيرة كانت كثيفة للغاية.

قال: "بالتأكيد يمكنك أن تأتي معي إذا استطعت أن تجد مدخلاً إلى الأدغال". لم يكن ذلك صعباً بالنسبة لي. في ساعات فراغي، كنت قد حددت مدخلاً إلى الأدغال بحجر كبير الحجم. لقد اكتشفت من خلال عملية لا نهاية لها من التجربة والخطأ أن هناك مساحة للزحف، والتي إذا اتبعتها لمسافة ثلاثة أو أربعة ياردات تتحول إلى مسار فعلي يمكنني الوقوف عليه والمشي.

جاء السيد أكوستا إلي وقال: "أحسنت يا فتى!" لقد فعلتها. نعم، تعال معي إذا أردت ذلك.

كانت تلك بداية علاقتي بالسيد لياندرو أكوستا. كنا نخرج في رحلات صيد يومية. أصبحت علاقتنا واضحة للغاية، حيث كنت أغيب عن المنزل من الفجر حتى غروب الشمس، دون أن يعرف أحد أين ذهبت، حتى أن جدي وبخني بشدة في النهاية.

قال: "يجب عليك اختيار معارفك، وإلا سينتهي بك الأمر مثلهم. لن أسمح لهذا الرجل بالتأثير عليك بأي شكل من الأشكال. بإمكانه بالتأكيد أن ينقل إليك حماسه، نعم. وبإمكانه التأثير على عقلك ليصبح مثله تماماً: عديم الفائدة. أقول لك، إذا لم تضع حداً لهذا الأمر، فسأفعل أنا. سأرسل السلطات لملاحقته بتهمة سرقة دجاجي، لأنك تعلم جيداً أنه يأتي كل يوم ويسرقها."

حاولت أن أوضح لجدي مدى سخافة اتهاماته. لم يكن السيد أكوستا مضطراً لسرقة الدجاج. كان يملك زمام الأمور في تلك الغابة الشاسعة. كان بإمكانه أن يستمد من تلك الغابة أي شيء يريده. لكن حججي زادت من غضب جدي. أدركت حينها أن جدي كان يحسد السيد أكوستا سراً على حريته، وقد تحول السيد أكوستا بالنسبة لي من صياد لطيف إلى التعبير النهائي عما هو محظور ومرغوب فيه في نفس الوقت.

حاولت الحد من لقاءاتي مع السيد أكوستا، لكن الإغراء كان أقوى من أن أقاومه. ثم، في أحد الأيام، اقترح السيد أكوستا وثلاثة من أصدقائه أن أفعل شيئًا لم يفعله السيد أكوستا من قبل: الإمساك بنسر حي، غير مصاب. شرح لي أن نسور المنطقة، التي كانت ضخمة، ويبلغ طول جناحيها من خمسة إلى ستة أقدام، كان لديها سبعة أنواع مختلفة من اللحم في أجسامها، وكان لكل نوع من هذه الأنواع السبعة غرض علاجي محدد. وقال إن الحالة المرغوبة هي ألا يكون جسد النسر مصاباً. كان لا بد من قتل النسر بالمهدئ، وليس بالعنف. كان من السهل إطلاق النار عليهم، ولكن في هذه الحالة، فقد اللحم قيمته العلاجية. لذا كان الفن يكمن في الإمساك بهم أحياء، وهو أمر لم يفعله قط. لكنه أدرك أنه بمساعدتي ومساعدة أصدقائه الثلاثة تمكن من حل المشكلة. أكد لي أن استنتاجه كان نتيجة طبيعية توصل إليها بعد مئات المرات التي لاحظ فيها سلوك النسور.

"نحن بحاجة إلى حمار ميت من أجل إنجاز هذا العمل، وهو شيء لدينا بالفعل"، هكذا أعلن بحماس.

نظر إليّ، منتظراً أن أسأله عما سيفعل بالحمار الميت. وبما أن السؤال لم يُطرح، فقد تابع حديثه.

"نقوم بإزالة الأمعاء، ونضع بعض العصي هناك للحفاظ على استدارة البطن.

وتابع قائلاً: "زعيم النسور الرومية هو الملك؛ إنه الأكبر والأكثر ذكاءً". "لا توجد عيون أكثر حدة." هذا ما يجعله ملكاً. سيكون هو من سيكتشف الحمار الميت، وأول من سيهبط عليه. سيهبط في اتجاه الريح من الحمار ليتأكد من أنه ميت. سنضع الأمعاء والأعضاء الرخوة التي سنستخرجها من بطن الحمار عند مؤخرته، في الخارج. وبهذه الطريقة، يبدو الأمر كما لو أن قطاً برياً قد أكل بعضاً منه بالفعل. ثم، بكسل، سيقترب النسر من الحمار. سيأخذ وقته. سيأتي وهو يقفز ويطير، ثم سيهبط على ورك الحمار الميت ويبدأ في هز جسد الحمار. كان سيقلبه لولا العصي الأربعة التي سنغرسها في الأرض كجزء من الهيكل. سيقف على وركه لبعض الوقت؛ وسيكون ذلك بمثابة إشارة للنسور الأخرى للقدوم والهبوط هناك في المنطقة المجاورة. لن يبدأ النسر الملك عمله إلا عندما يكون معه ثلاثة أو أربعة من رفاقه.

"وما هو دوري في كل هذا يا سيد أكوستا؟" سألت.

قال بتعبير جامد: "اختبئ داخل الحمار". "لا شيء في الأمر. أعطيك زوجًا من القفازات الجلدية المصممة خصيصًا، وتجلس هناك وتنتظر حتى يقوم نسر الديك الرومي الملكي بتمزيق شرج الحمار الميت بمنقاره الضخم القوي ويدخل رأسه ليبدأ في الأكل. ثم تمسكه من رقبته بكلتا يديك ولا تتركه.

"سأختبئ أنا وأصدقائي الثلاثة على ظهور الخيل في وادٍ عميق. سأتابع العملية بالمنظار. عندما أرى أنك قد أمسكت بالنسر الملك من رقبته، سننطلق بأقصى سرعة ونلقي بأنفسنا فوق النسر ونخضعه."

"هل يمكنك إخضاع ذلك النسر يا سيد أكوستا؟" سألته. ليس الأمر أنني شككت في مهارته، بل أردت فقط أن أطمئن.

"بالتأكيد أستطيع!" قال ذلك بكل ثقة في العالم. "سنرتدي جميعاً

قفازات وسراويل جلدية ضيقة. مخالب النسر قوية للغاية. بإمكانهم كسر عظم الساق بسهولة تامة."

لم يكن هناك مخرج لي. لقد وقعت في الفخ، وأُسرت بإثارة مفرطة. لم يكن لإعجابي بالسيد لياندرو أكوستا حدود في تلك اللحظة. رأيته كصياد حقيقي ـ ماكر، واسع الحيلة، وذو معرفة. "حسنًا، فلنفعل ذلك إذًا!" قلت.

"عفارم يا ابني!" قال السيد أكوستا. "كنت أتوقع ذلك منك." لقد وضع بطانية سميكة خلف سرجه، وقام أحد أصدقائه برفعي ووضعني على حصان السيد أكوستا، خلف السرج مباشرة، جالساً على البطانية.

قال السيد أكوستا: "تمسك بالسرج، وبينما تتمسك بالسرج، تمسك بالبطانية أيضاً".

انطلقنا بخطى بطيئة. ركبنا لمدة ساعة تقريبًا حتى وصلنا إلى بعض الأراضي المسطحة والجافة والقاحلة. توقفنا عند خيمة تشبه كشك بائع في سوق. كان لها سقف مسطح لتوفير الظل. كان تحت ذلك السقف حمار بني ميت. لم يبدُ كبيراً في السن؛ بل بدا كحمار يافع.

لم يوضح لي السيد أكوستا ولا أصدقاؤه ما إذا كانوا قد عثروا على الحمار الميت أم قتلوه. انتظرت أن يخبروني، لكنني لم أكن أنوي أن أسأل. أثناء قيامهم بالتحضيرات، أوضح السيد أكوستا أن الخيمة كانت موجودة لأن النسور كانت تراقب من مسافات شاسعة هناك، تحلق على ارتفاعات عالية جدًا، بعيدًا عن الأنظار، ولكنها بالتأكيد قادرة على رؤية كل ما كان يحدث.

قال السيد أكوستا: "تلك المخلوقات هي مخلوقات تعتمد على البصر فقط". "آذانهم بائسة، وأنوفهم ليست بجودة عيونهم. علينا أن نسد كل ثقب في الجثة. لا أريدك أن تنظر من أي ثقب، لأنهم سيرون عينك ولن ينزلوا أبداً. يجب ألا يروا شيئاً."

وضعوا بعض العصي داخل بطن الحمار وربطوها ببعضها، تاركين مساحة كافية لي لأزحف إلى الداخل. في لحظة ما، تجرأت أخيراً على طرح السؤال الذي كنت أتوق لطرحه.

"قل لي يا سيد أكوستا، هذا الحمار مات بالتأكيد بسبب المرض، أليس كذلك؟ هل تعتقد أن مرضه قد يصيبني؟"

رفع السيد أكوستا عينيه إلى السماء. "هيا! لا يمكن أن تكون بهذا الغباء. لا يمكن أن تنتقل أمراض الحمير إلى الإنسان. دعنا نعيش هذه المغامرة ولا ننشغل بالتفاصيل التافهة. لو كنت أقصر قامة، لكنت داخل بطن ذلك الحمار بنفسي. هل تعرف ما معنى اصطياد ملك النسور الرومية؟"

صدَّقتُه. كانت كلماته كافية لتمنحني هالة من الثقة التي لا مثيل لها. لم أكن لأمرض وأفوت أهم حدث في حياتي.

وجاءت اللحظة المرعبة عندما وضعني السيد أكوستا داخل الحمار. ثم قاموا بتمديد الجلد فوق الهيكل

وبدأوا في خياطته لإغلاقه. ومع ذلك، فقد تركوا مساحة كبيرة مفتوحة في الأسفل، مقابل الأرض، لكي يدور الهواء فيها. وجاءت اللحظة المروعة بالنسبة لي عندما تم إغلاق الجلد أخيرًا فوق رأسي مثل غطاء التابوت. تنفست بصعوبة، ولم أفكر إلا في إثارة الإمساك بملك النسور من رقبته.

أعطاني السيد أكوستا تعليمات في اللحظة الأخيرة. قال إنه سيخبرني بصافرة تشبه صوت الطائر عندما يكون النسر الملكي يحلق في الجوار وعندما يهبط، وذلك لإبقائي على اطلاع ومنعي من القلق أو نفاد الصبر. ثم سمعتهم وهم يسحبون الخيمة، وتبع ذلك صوت خيولهم وهي تعدو مبتعدة. كان من حسن الحظ أنهم لم يتركوا أي مساحة مفتوحة للنظر منها، لأن هذا ما كنت سأفعله. كان الإغراء بالنظر إلى الأعلى ومعرفة ما يحدث شبه لا يقاوم.

مرّ وقت طويل لم أفكر فيه بأي شيء. ثم سمعت صفير السيد أكوستا، وافترضت أن النسر الملكي كان يحلق في الجوار. تحوّل ظنّي إلى يقين عندما سمعت رفرفة أجنحة قوية، ثم فجأة، بدأ جسد الحمار الميت يهتز كما لو كان في عاصفة. ثم شعرت بثقل على جسد الحمار، وعرفت أن النسر الملك قد هبط على الحمار ولم يعد يتحرك. سمعت رفرفة أجنحة أخرى وصفير السيد أكوستا في المسافة. ثم استجمعت قواي لمواجهة ما لا مفر منها. بدأ جسد الحمار يرتجف بينما بدأ شيء ما يمزق جلده.

ثم فجأة، ظهر رأس ضخم قبيح ذو عرف أحمر ومنقار هائل وعين مفتوحة ثاقبة. صرخت من الخوف وأمسكت بالرقبة بكلتا يدي. أعتقد أنني صعقت النسر الملك للحظة لأنه لم يفعل شيئًا، مما أتاح لي الفرصة للإمساك برقبته بقوة أكبر، ثم انفجر الوضع. لم يعد مصدوماً وبدأ يسحب بقوة شديدة لدرجة أنني ارتطمت بالهيكل، وفي اللحظة التالية كنت خارج جسد الحمار جزئياً، بكل ما فيه من هيكل، متمسكاً برقبة الوحش الغازي من أجل حياتي.

سمعتُ صهيل حصان السيد أكوستا من بعيد. سمعته يصرخ قائلاً: "اتركه يا فتى، اتركه، سيطير بعيدًا معك!"

كان النسر الملك سيطير بعيدًا وأنا متمسك برقبته أو سيمزقني إربًا بمخالبه. السبب في عدم تمكنه من الوصول إلي هو أن رأسه كان مغروساً في منتصفه داخل الأحشاء والهيكل العظمي. كانت مخالبه تنزلق باستمرار على الأمعاء الرخوة ولم تلمسني فعلياً.

ومن الأمور الأخرى التي أنقذتني أن قوة النسر كانت متورطة في سحب رقبته من قبضتي، ولم يتمكن من تحريك مخالبه إلى الأمام بما يكفي لإصابتي حقًا. وفي اللحظة التالية، هبط السيد أكوستا فوق النسر في اللحظة التي خلعت فيها قفازاتي الجلدية من يدي.

كان السيد أكوستا في غاية السعادة. "لقد فعلناها يا فتى، لقد فعلناها!" قال. "في المرة القادمة، سنضع أوتاداً أطول على الأرض لا يستطيع النسر اقتلاعها، وستكون أنت مربوطاً بالهيكل."

لقد استمرت علاقتي بالسيد أكوستا لفترة كافية لنتمكن من اصطياد نسر. ثم اختفى اهتمامي بمتابعته بنفس الغموض الذي ظهر به، ولم تتح لي الفرصة أبداً لأشكره على كل الأشياء التي علمني إياها.

قال دون خوان إنه علمني صبر الصياد في أفضل وقت لتعلمه؛ وفوق كل ذلك، علمني أن أستمد من العزلة كل الراحة التي يحتاجها الصياد.

"لا يمكنك الخلط بين العزلة والانفراد"، هكذا شرح لي دون خوان ذات مرة. "العزلة بالنسبة لي هي عزلة نفسية، عزلة العقل. العزلة أمر جسدي. أحدهما مُنهك، والآخر مُريح.

قال دون خوان: "لكل هذا، أنا مدين للسيد أكوستا إلى الأبد سواء فهمت معنى المديونية بالطريقة التي يفهمها بها المحاربون المسافرون أم لا".

الشخص الثاني الذي اعتقد دون خوان أنني مدين له كان طفلاً يبلغ من العمر عشر سنوات كنت أعرفه منذ صغري. كان اسمه أرماندو فيليز. وكما يوحي اسمه، كان رجلاً عجوزاً وقوراً للغاية، متزمتاً، وقوراً بعض الشيء. لقد أعجبت به كثيراً لأنه كان حازماً وفي الوقت نفسه ودوداً للغاية. كان شخصاً يصعب تخويفه. كان سيقاتل أي شخص إذا لزم الأمر، ومع ذلك لم يكن متنمراً على الإطلاق.

اعتدنا نحن الاثنان على الذهاب في رحلات صيد. كنا نصطاد أسماكاً صغيرة جداً تعيش تحت الصخور وكان لا بد من جمعها باليد. كنا نضع الأسماك الصغيرة التي نصطادها لتجف في الشمس ونأكلها نيئة، طوال اليوم أحياناً.

أعجبني أيضاً أنه كان يتمتع بذكاء وحنكة كبيرين، فضلاً عن كونه بارعاً في استخدام كلتا يديه. كان بإمكانه رمي حجر بيده اليسرى لمسافة أبعد من تلك التي يرميها بيده اليمنى. خضنا مباريات تنافسية لا حصر لها، والتي كان يفوز فيها دائماً، مما أثار استيائي الشديد. كان يعتذر لي نوعاً ما عن فوزه بقوله: "إذا أبطأت وسمحت لك بالفوز، فسوف تكرهني. سيكون ذلك إهانة لرجولتك. لذا حاول بجدية أكبر."

بسبب سلوكه المفرط في التشدد، كنا نطلق عليه اسم "سينور فيليز"، ولكن تم اختصار "سينور" إلى "شو"، وهي عادة شائعة في المنطقة التي أنتمي إليها في أمريكا الجنوبية.

في أحد الأيام، سألني شو فيليز سؤالاً غريباً للغاية. بدأ طلبه، بطبيعة الحال، كتحدٍ لي. قال: "أراهن على أي شيء، أنني أعرف شيئاً لن تجرؤ على فعله".

"عن ماذا تتحدث يا شو فيليز؟"

"لن تجرؤ على النزول في النهر على متن طوافة."

"أوه نعم، سأفعل. لقد فعلت ذلك في نهر غمرته المياه. لقد علقت في جزيرة لمدة ثمانية أيام ذات مرة. كان عليهم أن يوصلوا لي الطعام عبر الطائرة."

هذه هي الحقيقة. كان صديقي المفضل الآخر طفلاً يُلقب بالراعي المجنون. لقد علقنا في فيضان على جزيرة ذات مرة، ولم يكن هناك أي سبيل لإنقاذنا. توقع سكان البلدة أن يغمر الفيضان الجزيرة ويقتلنا نحن الاثنين. ألقوا بسلال الطعام في النهر على أمل أن تصل إلى الجزيرة، وهو ما حدث بالفعل. لقد أبقونا على قيد الحياة بهذه الطريقة حتى انخفض منسوب المياه بما يكفي ليتمكنوا من الوصول إلينا بطوافة وسحبنا إلى ضفاف النهر.

"لا، هذا أمر مختلف"، تابع شو فيليز بأسلوبه المتعالي. "هذه المرة يعني الذهاب على متن طوافة في نهر جوفي."

وأشار إلى أن جزءًا كبيرًا من نهر محلي يمر عبر جبل. لطالما كان ذلك الجزء الجوفي من النهر مكاناً مثيراً للاهتمام بالنسبة لي. كان مدخله إلى الجبل عبارة عن كهف موحش ذي حجم كبير، مليء دائماً بالخفافيش وتفوح منه رائحة الأمونيا. قيل لأطفال المنطقة إنه مدخل إلى الجحيم: أبخرة الكبريت، والحرارة، والرائحة الكريهة.

"أراهن على ذلك يا شو فيليز، أنني لن أقترب من ذلك النهر طوال حياتي!" قلت ذلك وأنا أصرخ. "مستحيل حتى لو عشنا عشرة أجيال!" يجب أن تكون مجنوناً حقاً لتفعل شيئاً كهذا.

ازداد وجه شو فيليز جديةً ورسميةً. قال: "آه، إذن سأضطر إلى القيام بذلك بنفسي." ظننت للحظة أنني أستطيع أن أغريك بالذهاب معي. وكنت مُخطئا. هذه خسارتي."

"مهلاً، شو فيليز، ما بك؟ لماذا قد يذهب المرء إلى ذلك المكان الجهنمي؟"

قال بصوته الخشن الصغير: "لا بد لي من ذلك". "كما ترى، والدي مجنون مثلك تمامًا، إلا أنه أب وزوج. لديه ستة أشخاص يعتمدون عليه. وإلا، فسيكون مجنوناً كالماعز. أنا وأختاي وأخواي وأمي نعتمد عليه. هو كل شيء بالنسبة لنا."

لم أكن أعرف من هو والد شو فيليز. لم أره من قبل. لم أكن أعرف ما هي وظيفته. كشف شو فيليز أن والده كان رجل أعمال، وأن كل ما يملكه كان على المحك، إن صح التعبير.

"قام والدي ببناء طوافة ويريد الذهاب. إنه يريد القيام بتلك الرحلة الاستكشافية. وتابع شو فيليز قائلاً: "تقول أمي إنه يفرغ غضبه فحسب،

لكنني لا أثق به". "لقد رأيت نظرتك المجنونة في عينيه. سيفعلها يوماً ما، وأنا متأكد من أنه سيموت. لذا، سآخذ طوافته وأذهب إلى ذلك النهر بنفسي. أعلم أنني سأموت، لكن والدي لن يموت."

شعرت بشيء يشبه الصدمة الكهربائية تمر عبر رقبتي، وسمعت نفسي أقول بأكثر نبرة انفعال يمكن تخيلها: "سأفعلها يا شو فيليز، سأفعلها. نعم، نعم، سيكون ذلك رائعاً! سأذهب معك!"

كانت ابتسامة ساخرة تعلو وجه شو فيليز. فهمت ذلك على أنه ابتسامة سعادة لحقيقة أنني كنت ذاهبة معه، وليس لحقيقة أنه نجح في إغرائي. عبّر عن هذا الشعور في جملته التالية. قال: "أعلم أنني سأنجو إذا كنت معي".

لم أكن أهتم إن نجا شو فيليز أم لا. ما حفزني هو شجاعته. كنت أعلم أن شو فيليز يملك الشجاعة لفعل ما يقوله. هو و الراعي المجنون كانا الطفلين الوحيدين الجريئين في المدينة. كلاهما كان يمتلك شيئًا اعتبرته فريدًا وغير مسبوق: الشجاعة. لم يكن لدى أي شخص آخر في تلك المدينة بأكملها أي شيء. لقد اختبرتهم جميعاً. بالنسبة لي، كان كل واحد منهم ميتاً، بما في ذلك حب حياتي، جدي. كنت أعرف هذا دون أدنى شك عندما كنت في العاشرة من عمري. لقد كانت جرأة شو فيليز بمثابة إدراك مذهل بالنسبة لي. أردت أن أبقى معه حتى النهاية المريرة.

وضعنا خططًا للقاء عند بزوغ الفجر، وهو ما فعلناه، وحملنا أنا وهو طوافة والده الخفيف لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال خارج المدينة، إلى بعض الجبال الخضراء المنخفضة وصولًا إلى مدخل الكهف حيث أصبح النهر تحت الأرض. كانت رائحة روث الخفافيش لا تُطاق. زحفنا على الطوافة ودفعنا أنفسنا إلى مجرى النهر. كان الطوافة مزودة بمصابيح يدوية، وكان علينا تشغيلها على الفور. كان الظلام دامساً داخل الجبل، وكان الجو رطباً وحاراً. كان الماء عميقاً بما يكفي للقارب وسريعاً بما يكفي لدرجة أننا لم نكن بحاجة إلى التجديف.

ستخلق المصابيح اليدوية ظلالاً بشعة. همس شو فيليز في أذني أنه ربما من الأفضل عدم النظر على الإطلاق، لأنه كان في الحقيقة شيئًا أكثر من مجرد مخيف. كان محقاً؛ لقد كان الأمر مثيراً للاشمئزاز وقمعياً. أثارت الأضواء الخفافيش فبدأت تحلق حولنا، ترفرف بأجنحتها بلا هدف. بينما كنا نسافر إلى أعماق الكهف، لم يعد هناك حتى خفافيش، فقط هواء راكد ثقيل ويصعب التنفس فيه. بعد ما بدا لي

وكأنه ساعات، وصلنا إلى نوع من البركة حيث كان الماء عميقًا جدًا؛ بالكاد كان يتحرك. بدا الأمر كما لو أن مجرى النهر الرئيسي قد تم سده.

"نحن عالقون"، همس شو فيليز في أذني مرة أخرى. "لا توجد طريقة لعبور الطوافة، ولا توجد طريقة لعودتنا."

كان التيار قوياً جداً لدرجة أننا لم نتمكن حتى من محاولة القيام برحلة عودة. قررنا أنه يجب علينا إيجاد مخرج. أدركت حينها أنه إذا وقفنا فوق الطوافة، فسنتمكن من لمس سقف الكهف، مما يعني أن الماء قد تم حجزه تقريبًا حتى قمة الكهف. كان المدخل أشبه بكاتدرائية، ربما بارتفاع خمسين قدماً. كان استنتاجي الوحيد هو أننا كنا فوق بركة سباحة يبلغ عمقها حوالي خمسين قدماً.

ربطنا الطوافة بصخرة وبدأنا نسبح إلى الأسفل في الأعماق، محاولين الشعور بحركة الماء، أو التيار. كان كل شيء رطباً وحاراً على السطح، لكنه كان بارداً جداً على بعد أقدام قليلة تحته. شعرت بتغير درجة الحرارة في جسدي، وشعرت بالخوف، خوف غريب لم أشعر به من قبل. صعدت للسطح. لا بد أن شو فيليز شعر بنفس الشيء. اصطدمنا ببعضنا البعض على السطح.

قال بنبرة جادة: "أعتقد أننا على وشك الموت".

لم يشاركه في جديته أو رغبته في الموت. بحثتُ بجنون عن فرصة سانحة. لا بد أن مياه الفيضان قد حملت معها الصخور التي شكلت سداً. وجدتُ حفرة كبيرة بما يكفي لمرور جسدي البالغ من العمر عشر سنوات. سحبت شو فيليز إلى الأسفل وأريته الحفرة. كان من المستحيل أن تمر الطوافة من خلالها. سحبنا ملابسنا من الطوافة وربطناها بإحكام شديد وسبحنها إلى الأسفل حتى وجدنا الفتحة مرة أخرى ودخلنا من خلالها.

انتهى بنا المطاف على زلاقة مائية، مثل تلك الموجودة في الملاهي. سمحت لنا الصخور المغطاة بالأشنات والطحالب بالانزلاق لمسافة طويلة دون أن نصاب بأي أذى على الإطلاق. ثم دخلنا إلى كهف ضخم يشبه الكاتدرائية، حيث استمر تدفق المياه حتى مستوى الخصر. رأينا ضوء السماء في نهاية الكهف وخرجنا منه. دون أن ننطق بكلمة، قمنا بنشر ملابسنا وتركناها تجف في الشمس، ثم توجهنا عائدين إلى المدينة. كان شو فيليز في حالة حزن شديد لأنه فقد طوافة والده.

"كان والدي سيموت هناك"، هكذا اعترف أخيراً. "لم يكن جسده ليمر عبر الحفرة التي مررنا منها أبدًا. إنه أكبر منها. قال: "والدي رجل ضخم وسمين". "لكنه كان سيكون قوياً بما يكفي ليعود سيراً على الأقدام إلى المدخل."

شككت في ذلك. كما أتذكر، في بعض الأحيان، وبسبب الميل، كان التيار سريعًا بشكل مذهل. أقررت بأنه ربما كان بإمكان رجل ضخم يائس أن يشق طريقه للخروج بمساعدة الحبال والكثير من الجهد.

لم يتم حل مسألة ما إذا كان والد شو فيليز سيموت هناك أم لا في ذلك الوقت، لكن ذلك لم يكن مهماً بالنسبة لي. المهم هو أنني شعرت لأول مرة في حياتي بلسعة الحسد. كان شو فيليز هو الكائن الوحيد الذي حسدته في حياتي. كان لديه شخص يموت من أجله، وقد أثبت لي أنه سيفعل ذلك؛ أما أنا فلم يكن لدي أحد أموت من أجله، ولم أثبت أي شيء على الإطلاق.

بشكل رمزي، أعطيت شو فيليز الكعكة كاملة. لقد اكتمل انتصاره. انسحبت. كانت تلك مدينته، وكان هؤلاء أهله، وكان هو الأفضل بينهم من وجهة نظري. عندما افترقنا في ذلك اليوم، قلت كلاماً مبتذلاً تبين أنه حقيقة عميقة عندما قلت: "كن ملكهم يا شو فيليز". أنت الأفضل."

لم أتحدث إليه مرة أخرى. لقد أنهيت صداقتي معه عن قصد. شعرت أن هذه هي اللفتة الوحيدة التي يمكنني القيام بها لأدل على مدى تأثري به.

كان دون خوان يعتقد أن ديني لشو فيليز لا يزول، وأنه الوحيد الذي علمني أنه يجب أن يكون لدينا شيء نموت من أجله قبل أن نعتقد أن لدينا شيئًا نعيش من أجله.

قال لي دون خوان ذات مرة: "إذا لم يكن لديك ما تموت من أجله، فكيف يمكنك الادعاء بأن لديك ما تعيش من أجله؟ يسيران جنباً إلى جنب، والموت هو المتحكم."

الشخص الثالث الذي اعتقد دون خوان أنني مدين له بما يتجاوز حياتي وموتي هو جدتي من جهة أمي. في غمرة حبي الأعمى لجدي - الرجل - نسيت المصدر الحقيقي للقوة في ذلك المنزل: جدتي غريبة الأطوار للغاية.

قبل سنوات عديدة من مجيئي إلى منزلهم، أنقذت هندي محلي من الإعدام شنقاً. اتُهم بأنه ساحر. قام بعض الشبان الغاضبين بتعليقه على شجرة في أرض جدتي. لقد صادفت عملية الإعدام خارج نطاق القانون وأوقفتها. يبدو أن جميع من قاموا بعمليات الإعدام خارج نطاق القانون كانوا أبناءها الروحيين، ولم يجرؤوا على معارضتها. قامت بسحب الرجل إلى الأرض وأخذته إلى المنزل لعلاجه. لقد أحدث الحبل جرحاً عميقاً في رقبته.

التأمت جراحه، لكنه لم يفارق جدتي أبداً. وادعى أن حياته انتهت يوم الإعدام، وأن أي حياة جديدة كانت لديه لم تعد ملكاً له؛ بل أصبحت ملكاً لها. وبصفته رجلاً يفي بوعوده، فقد كرس حياته لخدمة جدتي. كان خادمها الشخصي، وكبير خدمها، ومستشارها. قالت عماتي إنه هو من نصح جدتي بتبني طفل يتيم حديث الولادة كابن لها، وهو أمر استاءن منه بشدة.

عندما دخلت منزل أجدادي، كان ابن جدتي بالتبني قد بلغ أواخر الثلاثينيات من عمره. أرسلته للدراسة في فرنسا. في إحدى الظهيرات، وبشكل مفاجئ، نزل رجل ضخم البنية يرتدي ملابس أنيقة للغاية من سيارة أجرة أمام المنزل. حمل السائق حقائبه الجلدية إلى الفناء. أعطى الرجل مفتول العضلات السائق بقشيشاً سخياً. لاحظت من النظرة الأولى أن ملامح الرجل مفتول العضلات كانت لافتة للنظر للغاية. كان لديه شعر طويل مجعد، ورموش طويلة مجعدة. كان وسيماً للغاية دون أن يكون جميلاً جسدياً. لكن أفضل ما يميزه كان ابتسامته المشرقة والمنفتحة، والتي وجهها إليّ على الفور.

"هل لي أن أسأل عن اسمك يا فتى؟" قال ذلك بصوت مسرحي جميل لم أسمع مثله من قبل.

حقيقة أنه خاطبني بكلمة "شاب" قد أسرتني على الفور. قلت:

"اسمي كارلوس أرانها يا سيدي، هل لي أن أسأل بدوري ما هو اسمك؟"

قام بحركة تظاهر بالدهشة. فتح عينيه على اتساعهما وقفز إلى الوراء كما لو أنه تعرض لهجوم. ثم بدأ يضحك بصوت عالٍ. عند سماع ضحكته، خرجت جدتي إلى الفناء. عندما رأت الرجل مفتول العضلات، صرخت كفتاة صغيرة وألقت ذراعيها حوله في عناق حنون للغاية. رفعها كما لو أنها لا تزن شيئاً وأدارها حول نفسه. لاحظت حينها أنه كان طويل القامة جداً. أخفى صوته الأجش طوله. كان يمتلك بالفعل جسد مقاتل محترف. بدا أنه لاحظ أنني كنت أراقبه. استعرض عضلات ذراعيه.

قال وهو يدرك تماماً ما كنت أفكر فيه: "لقد مارست الملاكمة في الماضي يا سيدي".

جدتي هي من عرّفتني عليه. قالت إنه ابنها أنطوان، طفلها، قرة عينها؛ وقالت إنه كاتب مسرحي، ومخرج مسرحي، وكاتب، وشاعر.

حقيقة أنه كان رياضياً للغاية كانت مفتاح فوزه بالنسبة لي. لم أفهم في البداية أنه كان مُتبنّى. لكنني لاحظت أنه لم يكن يشبه بقية أفراد الأسرة على الإطلاق. بينما كان كل فرد من أفراد عائلتي جثثاً تمشي، كان هو حياً، نابضاً بالحياة من الداخل إلى الخارج. لقد انسجمنا بشكل رائع. أعجبني أنه كان يتدرب كل يوم، ويضرب كيس اللكم. أعجبني كثيراً أنه لم يكتفِ بلكم الكيس، بل ركله أيضاً، بأسلوب مذهل للغاية، مزيج من الملاكمة والركل. كان جسده صلباً كالصخر.

في أحد الأيام اعترف لي أنطوان بأن رغبته الوحيدة في الحياة هي أن يكون كاتباً ذا شأن.

قال: "لدي كل شيء". "لقد كانت الحياة كريمة جداً معي. الشيء الوحيد الذي لا أملكه هو الشيء الوحيد الذي أريده: الموهبة. الإلهام لا يحبوني. أقدر ما أقرأ، لكنني لا أستطيع أن أبتكر أي شيء أحب قراءته. هذا هو عذابي؛ فأنا أفتقر إلى الانضباط أو السحر اللازم لإغراء الإلهام، لذا فإن حياتي فارغة إلى أقصى حد ممكن.

ثم أخبرني أنطوان أن الحقيقة الوحيدة التي يملكها هي والدته. كان ينادي جدتي بحصنه، وسنده، وروحه التوأم. وانتهى به الأمر إلى التعبير عن فكرة مقلقة للغاية بالنسبة لي. قال: "لو لم تكن أمي موجودة، لما كنت سأعيش".

أدركت حينها مدى ارتباطه العميق بجدتي. أصبحت جميع قصص الرعب التي روتها لي عماتي عن الطفل المدلل أنطوان واضحة جداً بالنسبة لي فجأة. لقد دللته جدتي لدرجة لا يمكن معها إصلاحه.

لكنهما بديا سعيدين للغاية معاً. رأيتهم يجلسون لساعات طويلة، ورأسه على حجرها كما لو كان لا يزال طفلاً. لم أسمع جدتي تتحدث مع أي شخص لفترة طويلة كهذه من قبل.

وفجأة، في أحد الأيام بدأ أنطوان في إنتاج الكثير من الكتابات. بدأ بإخراج مسرحية في المسرح المحلي، وهي مسرحية كان قد كتبها بنفسه. عندما تم عرضها، حققت نجاحًا فوريًا. نُشرت قصائده في الصحيفة المحلية. يبدو أنه قد مرّ بفترة إبداعية. لكن بعد بضعة أشهر فقط انتهى كل شيء. قام رئيس تحرير صحيفة المدينة بالتنديد علنًا بأنطوان؛ واتهمه بالسرقة الأدبية ونشر في الصحيفة دليل إدانة أنطوان.

وبالطبع، لم تكن جدتي لتسمح بسماع الإساءة لسلوك ابنها. وفسرت الأمر برمته بأنه حالة من الحسد الشديد. كان كل واحد من سكان تلك البلدة يحسد ابنها على أناقته وأسلوبه. كانوا يحسدونه على شخصيته، وعلى ذكائه. في الواقع، كان تجسيداً للأناقة والذوق الرفيع. لكنه كان سارقاً أدبياً بكل تأكيد؛ لم يكن هناك شك في ذلك.

لم يشرح أنطوان سلوكه لأحد قط. كنت معجباً به كثيراً لدرجة أنني لم أسأله أي شيء عن ذلك. إضافة إلى ذلك، لم أكن أهتم. كانت أسبابه أسبابه، بالنسبة لي. لكن شيئًا ما قد انكسر؛ ومنذ ذلك الحين، تحركت حياتنا بخطوات واسعة، إن صح التعبير. لقد تغيرت الأمور بشكل جذري في المنزل من يوم لآخر لدرجة أنني اعتدت على توقع أي شيء، سواء كان الأفضل أو الأسوأ. في إحدى الليالي، دخلت جدتي غرفة أنطوان بطريقة مثيرة للغاية. كانت هناك نظرة قسوة في عينيها لم أرها من قبل. ارتجفت شفتاها وهي تتحدث.

بدأت حديثها قائلة: "لقد حدث شيء فظيع يا أنطوان". قاطعها أنطوان. توسل إليها أن تدعه يشرح.

قاطعته فجأة. "لا يا أنطوان، لا"، قالت بحزم. "هذا لا علاقة لك به." الأمر يتعلق بي. في هذا الوقت العصيب الذي تمر به، حدث شيء ذو أهمية أكبر. أنطوان، يا بني العزيز، لقد نفد الوقت.

وتابعت قائلة: "أريدك أن تفهم أن هذا أمر لا مفر منه". "يجب أن أغادر، لكن يجب أن تبقى أنت." أنت مجموع كل ما فعلته في هذه الحياة. سواء كنت جيداً أم سيئاً يا أنطوان، فأنت كل ما أنا عليه. جرب الحياة. في النهاية، سنكون معاً مرة أخرى على أي حال. لكن في هذه الأثناء، افعل يا أنطوان، افعل. مهما يكن، لا يهم ما هو، طالما أنك تفعل ذلك.

رأيت جسد أنطوان وهو يرتجف من شدة الألم. رأيت كيف انقبض كيانه بالكامل، كل عضلات جسده، كل قوته. كان الأمر كما لو أنه قد غيّر مساره من مشكلته، التي كانت أشبه بنهر، إلى محيط.

"أعدني أنك لن تموت حتى تموت!" صرخت في وجهه. أومأ أنطوان برأسه.

في اليوم التالي، قامت جدتي، بناءً على نصيحة مستشارها الساحر، ببيع جميع ممتلكاتها، التي كانت كبيرة جدًا، وسلمت المال لابنها أنطوان. وفي اليوم التالي، في الصباح الباكر جداً، حدث أغرب مشهد رأيته في حياتي أمام عيني وأنا في العاشرة من عمري: اللحظة التي ودع فيها أنطوان والدته. كان مشهداً غير واقعي مثل ديكور فيلم سينمائي؛ غير واقعي بمعنى أنه بدا وكأنه مختلق، مكتوب في مكان ما، تم إنشاؤه من خلال سلسلة من التعديلات التي يجريها الكاتب وينفذها المخرج.

كان فناء منزل أجدادي هو المكان الذي دارت فيه الأحداث. كان أنطوان هو الشخصية الرئيسية، وكانت والدته هي الممثلة الرئيسية. كان أنطوان مسافراً في ذلك اليوم. كان ذاهباً إلى الميناء. كان ينوي ركوب سفينة ركاب إيطالية والذهاب عبر المحيط الأطلسي إلى أوروبا في رحلة بحرية ممتعة. كان يرتدي ملابس أنيقة كعادته. كان سائق سيارة أجرة ينتظره خارج المنزل، وهو يطلق بوق سيارته بفارغ الصبر.

لقد شهدتُ ليلة أنطوان الأخيرة المحمومة عندما حاول بكل ما أوتي من قوة أن يكتب قصيدة لأمه.

قال لي: "هذا هراء". "كل ما أكتبه هراء." أنا لا شيء.

أكدت له، رغم أنني لست الشخص المناسب لأؤكد له، أن كل ما كان يكتبه كان رائعاً. في لحظة ما، انجرفت وراء مشاعري وتجاوزت حدوداً معينة ما كان ينبغي لي أن أتجاوزها أبداً.

صرخت قائلًا: "صدقني يا أنطوان". انا في حال اسوأ منك! لديك أم. ليس لدي أي شيء. أي شيء تكتبه فهو جيد."

طلب مني بكل أدب أن أغادر غرفته. لقد نجحت في جعله يشعر بالغباء، إذ اضطر إلى الاستماع إلى نصائح من طفل لا قيمة له. ندمت بشدة على غضبي. كنت أتمنى أن يبقى صديقي.

كان أنطوان يرتدي معطفه الأنيق مطوياً بعناية، وموضوعاً على كتفه الأيمن. كان يرتدي بدلة خضراء جميلة للغاية، مصنوعة من الكشمير الإنجليزي.

تحدثت جدتي. قالت: "عليك الإسراع يا عزيزي". "الوقت جوهري. عليك الرحيل. إذا لم تفعل ذلك، فسوف يقتلك هؤلاء الناس من أجل المال."

كانت تشير إلى بناتها وأزواجهن، الذين بلغ بهم الغضب ذروته عندما اكتشفوا أن والدتهم قد حرمتهم من الميراث بهدوء، وأن أنطوان البغيض، عدوهم اللدود، سيفلت من العقاب بكل ما هو حق لهم.

"أنا آسفة لأنني اضطررت إلى وضعك في كل هذا"، اعتذرت جدتي. "لكن كما تعلم، فإن الوقت مستقل عن رغباتنا."

تحدث أنطوان بصوته الرصين ذي النبرة الجميلة. بدا صوته أشبه بصوت ممثل مسرحي أكثر من أي وقت مضى. قال: "لن يستغرق الأمر سوى دقيقة يا أمي". "أود أن أقرأ شيئاً كتبته لك."

كانت قصيدة شكر. عندما انتهى من القراءة، توقف. كان هناك في الأجواء فيض من المشاعر، وارتعاش شديد.

قالت جدتي وهي تتنهد: "لقد كان جمالاً خالصاً يا أنطوان". لقد عبّرت عن كل ما كنت تريد قوله. كل ما كنت أرغب في سماعه." توقفت للحظة. ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة رائعة. "مسروق يا أنطوان؟" سألت.

كانت ابتسامة أنطوان رداً على والدته مشرقة بنفس القدر. قال: "بالتأكيد يا أمي". "بالطبع".

تعانقا وهما يبكيان. بدا صوت بوق سيارة الأجرة ينفذ صبره. نظر إليّ أنطوان حيث كنت أختبئ تحت الدرج. أومأ برأسه قليلاً، كما لو كان يقول: "مع السلامة". اعتنِ بنفسك." ثم استدار، ودون أن ينظر إلى والدته مرة أخرى، ركض نحو الباب. كان عمره سبعة وثلاثين عاماً، لكنه بدا وكأنه في الستين من عمره، بدا وكأنه يحمل عبئاً هائلاً على كتفيه. توقف قبل أن يصل إلى الباب، عندما سمع صوت والدته وهي توبخه للمرة الأخيرة.

قالت: "لا تلتفت لتنظر يا أنطوان". "لا تلتفت لتنظر، أبداً. كن سعيداً، وافعل. افعل! هذه هي الحيلة. **افعل!**"

ملأني المشهد بحزن غريب لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا - كآبة لا يمكن تفسيرها، فسرها دون خوان بأنها معرفتي الأولى بأن الوقت ينفد.

في اليوم التالي غادرت جدتي مع مستشارها/خادمها/مساعدها في رحلة إلى مكان أسطوري يُدعى روندونيا، حيث كان من المفترض أن يقوم مساعدها الساحر بإيجاد علاج لها. كانت جدتي مريضة بمرض عضال، مع أنني لم أكن أعلم ذلك. لم تعد أبداً، وشرح دون خوان بيع ممتلكاتها وإعطائها لأنطوان على أنه مناورة سحرية عظيمة نفذها مستشارها لفصلها عن رعاية عائلتها. لقد كانوا غاضبين جداً من الأم بسبب فعلتها لدرجة أنهم لم يهتموا بما إذا كانت ستعود أم لا. كان لدي شعور بأنهم لم يدركوا حتى أنها غادرت.

على قمة ذلك الجبل المسطح، استعدت تلك الأحداث الثلاثة كما لو أنها حدثت قبل لحظة واحدة فقط. عندما أعربت عن امتناني لهؤلاء الأشخاص الثلاثة، نجحت في إعادتهم إلى قمة الجبل. في نهاية صراخي، أصبحت وحدتي شيئاً لا يمكن وصفه. كنت ابكي بشكل لا يمكن السيطرة عليه.

شرح لي دون خوان بصبر شديد أن الشعور بالوحدة غير مقبول في المحارب. وقال إن المحاربين المسافرين يمكنهم الاعتماد على كائن واحد يمكنهم تركيز كل حبهم، وكل اهتمامهم عليه: هذه الأرض الرائعة، الأم، المصفوفة، مركز كل ما نحن عليه وكل ما نفعله؛ الكائن الذي نعود إليه جميعًا؛ الكائن الذي يسمح للمحاربين المسافرين بالانطلاق في رحلتهم النهائية.

ثم قام دون جينارو بأداء عمل سحري بقصد مصلحتي. استلقى على بطنه، ثم قام بسلسلة من الحركات المبهرة. لقد تحول إلى كتلة من الضوء بدت وكأنها تسبح، كما لو كانت الأرض بركة سباحة. قال دون خوان إنها كانت طريقة جينارو في احتضان الأرض الهائلة، وأنه على الرغم من اختلاف الحجم، فقد اعترفت الأرض بلفتة جينارو. إن رؤية تحركات جينارو وتفسيرها قد حلت محل وحدتي بفرحة سامية.

سمعت نفسي أقول: "لا أطيق فكرة رحيلك يا دون خوان". لقد شعرت بالحرج من نبرة صوتي وما قلته. عندما بدأتُ بالبكاء لا إرادياً، مدفوعاً بالشفقة على الذات، شعرتُ بمزيد من الخجل. "ما الذي أصابني يا دون خوان؟" همهمت. "أنا لست هكذا عادةً."

أجاب ضاحكاً: "ما يحدث لك هو أن وعيك أصبح في حالة تأهب قصوى مرة أخرى."

ثم فقدت أي أثر للسيطرة واستسلمت تماماً لمشاعر الإحباط واليأس.

قلت بصوتٍ يصرخ: "سأبقى وحدي". "ماذا سيحدث لي؟ ماذا سيحل بي؟"

قال دون خوان بهدوء: "دعنا نقولها بهذه الطريقة". لكي أغادر هذا العالم وأواجه المجهول، أحتاج إلى كل قوتي، وكل

صبري، وكل حظي؛ ولكن قبل كل شيء، أحتاج إلى كل ما يملكه المحارب المسافر من قوة

شجاعة من فولاذ. لكي تبقى في الخلف وتسير الأمور كالمحارب المسافر، فأنت بحاجة إلى كل ما أحتاجه أنا شخصياً. لنغامر بالخروج إلى هناك، بالطريقة التي سنفعلها، الأمر ليس مزحة، ولكن البقاء في الخلف ليس مزحة أيضاً. انتابتني نوبة من المشاعر وقمت بتقبيل يده.

"مهلاً، مهلاً، مهلاً!" قال. "الشيء التالي هو أنك ستبني ضريحًا لأحذية الغواراش الخاصة بي!"

تحوّل الألم الذي انتابني من شفقة على الذات إلى شعور بخسارة لا مثيل لها. "أنت تغادر!" همهمت. "يا إلاهي! الرحيل إلى الأبد!"

في تلك اللحظة، فعل دون خوان بي شيئاً كان يفعله مراراً وتكراراً منذ اليوم الأول الذي قابلته فيه. انتفخ وجهه كما لو أن النفس العميق الذي كان يأخذه قد نفخه. قام بضرب ظهري بقوة بكف يده اليسرى وقال: "انهض من على أصابع قدميك! ارفع من معنوياتك!"

وفي اللحظة التالية، استعدت رباطة جأشي، وأصبحت كاملاً، ومسيطراً على الوضع. كنت أعرف ما هو متوقع مني. لم يعد هناك أي تردد من جانبي، أو أي قلق بشأن نفسي. لم أكن أهتم بما سيحدث لي عندما يرحل دون خوان. كنت أعلم أن رحيله بات وشيكاً. نظر إليّ، وفي تلك النظرة قالت عيناه كل شيء.

قال بصوت خافت: "لن نكون معاً مرة أخرى أبداً". "أنت لست بحاجة لمساعدتي بعد الآن؛ ولا أريد أن أقدمها لك، لأنه إذا كنت تستحق لقب محارب مسافر، فسوف تبصق في عيني لعرضي ذلك عليك. بعد نقطة معينة، تصبح المتعة الوحيدة للمحارب المسافر هي عزلته. لا أرغب أيضاً في أن تحاول مساعدتي. بمجرد أن أغادر، سأرحل. لا تفكر بي، لأني لن أفكر بك. إذا كنت محاربًا مسافرًا جديرًا، فكن كمن لا تشوبه شائبة! اعتني بعالمك. احترمه؛ احمه بحياتك!

ابتعد عني. كانت اللحظة أبعد من الشفقة على الذات أو الدموع أو السعادة. هز رأسه كما لو كان يودعني، أو كما لو كان يعترف بما شعرت به.

قال: "انسَ الذات ولن تخاف من شيء، مهما كان مستوى وعيك".

انتابته نوبة من المرح. لقد سخر مني للمرة الأخيرة على هذه الأرض.

"أتمنى أن تجد الحب!" قال.

رفع كفه نحوي ومد أصابعه كطفل، ثم ضمها على كفه.

."قال: "تشاو

كنت أعلم أنه من العبث الشعور بالأسف أو الندم على أي شيء، وأنه كان من الصعب عليّ البقاء كما

كان صعباً على دون خوان الرحيل. لقد وقعنا كلانا في مناورة قوية لا رجعة فيها، ولم يستطع أي منا إيقافها.

ومع ذلك، أردت الانضمام إلى دون خوان، ومتابعته أينما ذهب. خطرت ببالي فكرة أنه ربما إذا مت، فسيأخذني معه.

رأيت حينها كيف قاد دون خوان ماتوس، الناغوال، الخمسة عشر عرافًا الآخرين الذين كانوا رفاقه، ورعاته، ومصدر سعادته، واحدًا تلو الآخر ليختفوا في ضباب تلك الهضبة، باتجاه الشمال. رأيت كيف تحول كل واحد منهم إلى بقعة من الضوء، ثم صعدوا معًا وحلقوا فوق قمة الجبل مثل أضواء شبحية في السماء. لقد طافوا فوق الجبل مرة واحدة، كما قال دون خوان أنهم سيفعلون: مسحهم الأخير، المسح الذي لا يراه إلا أعينهم؛ نظرتهم الأخيرة إلى هذه الأرض الرائعة. ثم اختفوا.

كنت أعرف ما يجب علي فعله. لقد نفد الوقت. انطلقت بأقصى سرعة نحو الهاوية وقفزت إلى الأعماق. شعرت بالريح على وجهي للحظة، ثم ابتلعني سوادٌ رحيمٌ كنهرٍ جوفيٍّ هادئ.

رحلة العودة

كنتُ على دراية مبهمة بالضوضاء العالية لمحرك بدا وكأنه يدور بسرعة في وضع ثابت. ظننت أن الموظفين كانوا يصلحون سيارة في موقف السيارات خلف المبنى حيث يقع مكتبي/شقتي. أصبح الضجيج شديداً لدرجة أنه أيقظني في النهاية. لعنت في سري الأولاد الذين يديرون موقف السيارات لأنهم قاموا بإصلاح سيارتهم تحت نافذة غرفة نومي مباشرة. كنت أشعر بالحر والعرق والتعب. جلست على حافة سريري، ثم شعرت بتشنجات مؤلمة للغاية في ربلتي ساقي. فركتهما للحظة. بدا أن عضلاتي قد انقبضت بشدة لدرجة أنني كنت أخشى أن أعاني من كدمات مروعة. توجهت تلقائياً إلى الحمام لأبحث عن مرهم. لم أستطع المشي. شعرت بالدوار. سقطت أرضاً، وهو أمر لم يحدث لي من قبل. عندما استعدت قدراً ضئيلاً من السيطرة، لاحظت أنني لم أكن قلقة على الإطلاق بشأن التشنجات في ربلة ساقي. لطالما كنتُ أعاني من الوسواس المرضي. إن الألم غير المعتاد في ربلتي الساقين، مثل الألم الذي أعاني منه الآن، كان من شأنه أن يدخلني في حالة من القلق والفوضى.

ثم ذهبت إلى النافذة لأغلقها، على الرغم من أنني لم أعد أسمع الضوضاء. أدركت أن النافذة كانت مغلقة وأن الظلام كان حالكاً في الخارج. كان الليل قد حل! كانت الغرفة خانقة. فتحت النوافذ. لم أستطع فهم

سبب إغلاقي لها. كان هواء الليل بارداً ومنعشاً. كانت ساحة موقف السيارات خاليا. خطر لي أن الضوضاء لا بد أنها صادرة عن سيارة تتسارع في الزقاق بين موقف السيارات ومبنى سكني. لم أعد أهتم بالأمر، وذهبت إلى سريري لأعود إلى النوم، واستلقيت عليه وقدمي على الأرض. أردت النوم بهذه الطريقة للمساعدة في تحسين الدورة الدموية في ربلتي ساقي، اللتين كانتا تؤلمانني بشدة، لكنني لم أكن متأكدًا مما إذا كان من الأفضل إبقائهما مستلقيتين أو ربما رفعهما على وسادة.

وبينما كنت أبدأ في الاسترخاء والنوم مرة أخرى، خطرت لي فكرة بقوة شديدة لدرجة أنها جعلتني أقف في رد فعل واحد. لقد قفزت في هاوية في المكسيك! كانت الفكرة التالية التي خطرت ببالي استنتاجاً شبه منطقي: بما أنني قفزت إلى الهاوية عمداً من أجل الموت، فلا بد أنني الآن شبح. فكرتُ كم هو غريب أن أعود، في هيئة شبحية، إلى مكتبي/شقتي على زاوية شارعي ويستوود وويلشاير في لوس أنجلوس بعد أن مت. لا عجب أن مشاعري لم تكن هي نفسها. لكن لو كنت شبحاً، فكرت، لماذا كنت سأشعر بنسمة الهواء النقي على وجهي، أو بالألم في ساقي؟

لمست ملاءات سريري؛ شعرت أنها حقيقية بالنسبة لي. وكذلك فعل إطاره المعدني. ذهبت إلى الحمام. نظرت إلى نفسي في المرآة. من مظهري، كان من الممكن أن أكون شبحاً بسهولة. كنت أبدو في حالة يرثى لها. كانت عيناي غائرتين، وتحتهما هالات سوداء ضخمة. كنت أعاني من الجفاف، أو كنت ميتاً. كرد فعل تلقائي، شربت الماء مباشرة من الصنبور. بإمكاني ابتلاعه بالفعل. شربت رشفة تلو الأخرى، كما لو أنني لم أشرب الماء منذ أيام. شعرتُ بتنفسي العميق. كنت على قيد الحياة! والله، كنت على قيد الحياة! كنت أعرف ذلك بلا أدنى شك، لكنني لم أشعر بالابتهاج كما كان ينبغي أن أشعر.

خطرت ببالي فكرة غريبة للغاية حينها: لقد مت وعدت إلى الحياة من قبل. كنت معتاداً على ذلك؛ لم يكن يعني لي شيئاً. إلا أن وضوح الفكرة جعلها أشبه بذاكرة. كانت شبه ذاكرة لم تنبع من مواقف معينة.

حيث تعرضت حياتي للخطر. كان الأمر مختلفاً تماماً عن ذلك. بل كان الأمر مجرد معرفة غامضة بشيء لم يحدث قط، وليس له أي سبب على الإطلاق ليكون في أفكاري.

لم يكن لدي أدنى شك في أنني قفزت في هاوية في المكسيك. كنت الآن في شقتي في لوس أنجلوس، على بعد أكثر من ثلاثة آلاف ميل من المكان الذي قفزت منه، دون أن أتذكر على الإطلاق أنني قمت برحلة العودة. بشكل تلقائي، قمت بتشغيل الماء في حوض الاستحمام وجلست فيه. لم أشعر بدفء الماء؛ بل شعرت ببرد قارص حتى النخاع. لقد علمني دون خوان أنه في لحظات الأزمات، مثل هذه اللحظة، يجب على المرء استخدام الماء الجاري كعامل تطهير. تذكرت ذلك ودخلت تحت الدش. تركت الماء الدافئ ينساب على جسدي لمدة ساعة تقريباً.

أردت أن أفكر بهدوء وعقلانية فيما كان يحدث لي، لكنني لم أستطع. بدت الأفكار وكأنها قد مُحيت من ذهني. كنتُ غافلاً، ومع ذلك كنتُ ممتلئاً تماماً بأحاسيس غمرت جسدي كله في وابل لم أكن قادراً على فحصه. كل ما استطعت فعله هو أن أشعر بهجماتها وأدعها تمر من خلالي. كان الخيار الواعي الوحيد الذي اتخذته هو أن أرتدي ملابسي وأغادر. ذهبت لتناول الإفطار، وهو أمر كنت أفعله دائماً في أي وقت من النهار أو الليل، في مطعم شيب في شارع ويلشاير، على بعد مبنى واحد من مكتبي/شقتي.

لقد مشيت من مكتبي إلى مطعم شيب مرات عديدة لدرجة أنني كنت أعرف كل خطوة في الطريق. كانت نفس المسيرة هذه المرة تجربة جديدة بالنسبة لي. لم أشعر بخطواتي. كان الأمر كما لو أن هناك وسادة تحت قدمي، أو كما لو أن الرصيف مغطى بالسجاد. انزلقت عملياً. وجدت نفسي فجأة عند باب المطعم بعد ما اعتقدت أنه خطوتين أو ثلاث خطوات فقط. كنت أعرف أنني أستطيع ابتلاع الطعام لأنني شربت الماء في شقتي. كنت أعلم أيضاً أنني أستطيع الكلام لأنني قمت بتنظيف حلقي ولعنت بينما كان الماء يتدفق عليّ. دخلت المطعم كما كنت أفعل دائماً. جلست على المنضدة، فجاءت إليّ نادلة تعرفني.

قالت: "لا تبدو بخير اليوم يا عزيزي". "هل أنت مصاب بالإنفلونزا؟"

"لا"، أجبت محاولاً أن أبدو مرحاً. "لقد كنت أعمل بجد أكثر من اللازم. لقد بقيت مستيقظاً لمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة أكتب بحثاً لأحد المقررات الدراسية. بالمناسبة، ما هو اليوم؟"

نظرت إلى ساعتها وأعطتني التاريخ، موضحة أنها تمتلك ساعة خاصة تعمل كتقويم أيضاً، وهي هدية من ابنتها. كما أعطتني الوقت: 3:15 صباحاً.

طلبت شريحة لحم وبيض، وبطاطا مقلية، وخبز أبيض محمص بالزبدة. عندما ذهبت لتلبية طلبي، غمرتني موجة أخرى من الرعب: هل كان مجرد وهم أنني قفزت في تلك الهاوية في المكسيك، عند الغسق في اليوم السابق؟ لكن حتى لو كانت القفزة مجرد وهم، كيف كان بإمكاني العودة إلى لوس أنجلوس من مكان ناءٍ كهذا بعد عشر ساعات فقط؟ هل نمت لمدة عشر ساعات؟ أم أن الأمر استغرق مني عشر ساعات لأطير أو أنزلق أو أطفو أو أيًا كان ما وصلت به إلى لوس أنجلوس؟ كان السفر بالوسائل التقليدية إلى لوس أنجلوس من المكان الذي قفزت فيه إلى الهاوية أمراً مستحيلاً، لأنه كان سيستغرق يومين فقط للسفر إلى مدينة مكسيكو من المكان الذي قفزت فيه.

خطرت ببالي فكرة غريبة أخرى. كان الأمر بنفس وضوح ذاكرتي شبه الحقيقية عن الموت والعودة إلى الحياة من قبل، وبنفس صفة كونه غريباً تماماً عني: لقد انقطع استمراري الآن بشكل لا يمكن إصلاحه. لقد مت فعلاً، بطريقة أو بأخرى، في قاع ذلك الوادي. كان من المستحيل استيعاب وجودي على قيد الحياة، وأنا أتناول الفطور في مطعم شيب. كان من المستحيل عليّ أن أنظر إلى الماضي وأرى سلسلة

الأحداث المتصلة التي نراها جميعًا عندما ننظر إلى الماضي.

التفسير الوحيد المتاح لي هو أنني اتبعت توجيهات دون خوان؛ لقد نقلت نقطة تجمعي إلى موقع منع موتي، ومن صمتي الداخلي قمت برحلة العودة إلى لوس أنجلوس. لم يكن هناك أي مبرر آخر لأتمسك به. لأول مرة على الإطلاق، كان هذا النمط من التفكير مقبولاً تماماً بالنسبة لي، ومرضياً تماماً. لم يوضح ذلك أي شيء حقًا، ولكنه بالتأكيد أشار إلى جانب عملي.

الإجراء الذي جربته من قبل بشكل خفيف عندما قابلت دون خوان في تلك المدينة التي اخترناها، ويبدو أن هذه الفكرة قد طمأنتني تمامًا.

بدأت أفكار واضحة تتبلور في ذهني. كان لها ميزة فريدة تتمثل في توضيح المسائل. أما أول انفجار فقد كان له علاقة بشيء كان يؤرقني طوال الوقت. وصف دون خوان ذلك بأنه أمر شائع بين السحرة الذكور: عدم قدرتي على تذكر الأحداث التي وقعت أثناء وجودي في حالات من الوعي المتزايد.

لقد شرح دون خوان زيادة الوعي على أنها إزاحة طفيفة لنقطة تجميعي، وهو ما كان يحققه في كل مرة أراه فيها، من خلال الضغط بقوة على ظهري. لقد ساعدني، من خلال هذه التحولات، على التفاعل مع مجالات الطاقة التي كانت عادةً هامشية بالنسبة لوعيي. بمعنى آخر، أصبحت حقول الطاقة التي كانت عادة على حافة نقطة تجميعي مركزية لها أثناء ذلك التحول. كان لهذا التحول نتيجتان بالنسبة لي: حدة غير عادية في التفكير والإدراك، وعدم القدرة على تذكر ما حدث أثناء وجودي في تلك الحالة الأخرى، بمجرد عودتي إلى حالتي الطبيعية من الوعي.

كانت علاقتي بزملائي مثالاً على كلتا هاتين النتيجتين. كان لديّ رفاق، متدربون آخرون لدى دون خوان، رفقاء في رحلتي الحاسمة. تفاعلت معهم فقط في حالة وعي شديد. كان وضوح ونطاق تفاعلنا في غاية الروعة. أما العيب بالنسبة لي فكان أنها في حياتي اليومية لم تكن سوى ذكريات شبه مؤثرة دفعتني إلى اليأس بسبب القلق والتوقعات. يمكنني القول إنني عشت حياتي الطبيعية وأنا في حالة ترقب دائم لشخص ما سيظهر فجأة أمامي، ربما يخرج من مبنى مكاتب، أو ربما ينعطف عند زاوية ويصطدم بي. أينما ذهبت، كانت عيناي تتجولان في كل مكان، بلا هوادة وبشكل لا إرادي، بحثاً عن أشخاص غير موجودين ومع ذلك موجودين بشكل لا مثيل له.

بينما كنت أجلس في مطعم شيب ذلك الصباح، أصبح كل ما حدث لي بوعي متزايد، بأدق التفاصيل، طوال السنوات التي قضيتها مع دون خوان، ذكرى متواصلة دون انقطاع. لقد أعرب دون خوان عن أسفه لأن الساحر الذكر الذي هو الناغوال بالضرورة يجب أن يتم تجزئته بسبب ضخامة كتلته النشطة. وقال إن كل جزء عاش نطاقًا محددًا من نطاق النشاط الكلي، وأن الأحداث التي مر بها في كل جزء كان لا بد من ربطها يومًا ما لإعطاء صورة كاملة وواعية لكل ما حدث في حياته بأكملها.

نظر في عيني، وأخبرني أن هذا التوحيد يستغرق سنوات لتحقيقه، وأنه قد سمع عن حالات لـ"ناغوال" لم يصلوا أبدًا إلى النطاق الكامل لأنشطتهم بطريقة واعية وعاشوا مجزأين.

ما عشته ذلك الصباح في شيب كان يفوق أي شيء كنت أتخيله حتى في أكثر خيالاتي جموحاً. قال لي دون خوان مراراً وتكراراً إن عالم السحرة ليس عالماً ثابتاً، حيث الكلمة نهائية وغير متغيرة، بل هو عالم من التقلبات الأبدية حيث لا ينبغي اعتبار أي شيء أمراً مفروغاً منه. لقد غيّر القفز إلى الهاوية إدراكي بشكل جذري لدرجة أنه سمح الآن بدخول احتمالات خطيرة وغير قابلة للوصف.

لكن أي شيء كان بإمكاني قوله عن توحيد أجزاء معرفتي كان سيتضاءل مقارنة بواقع الأمر. في ذلك الصباح المشؤوم في شيب، اختبرتُ شيئًا أقوى بكثير مما اختبرتُه في اليوم الذي رأيتُ فيه الطاقة وهي تتدفق في الكون، لأول مرة - اليوم الذي انتهى بي المطاف فيه في سرير مكتبي/شقتي بعد أن كنتُ في حرم جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس دون أن أعود إلى المنزل بالطريقة التي طالب بها نظامي الإدراكي حتى يكون الحدث برمته حقيقيًا. في شيب، دمجت كل أجزاء كياني. لقد تصرفت في كل واحدة منها بيقين تام واتساق، ومع ذلك لم يكن لدي أدنى فكرة أنني فعلت ذلك. كنت في جوهر الأمر لغزًا ضخمًا، وكان وضع كل قطعة من هذا اللغز في مكانها ينتج عنه تأثير ليس له اسم.

جلست على المنضدة في مطعم شيب، أتعرق بغزارة، وأفكر بلا جدوى، وأطرح أسئلة لا يمكن

الإجابة عليها: كيف يمكن أن يكون كل هذا ممكناً؟ كيف أمكنني أن اتجزاء بهذه الطريقة؟ من نحن حقاً؟ بالتأكيد لسنا الأشخاص الذين تم إيهامنا جميعًا بأننا كذلك. كانت لدي ذكريات عن أحداث لم تحدث قط، على حد علم جزء من نفسي. لم أستطع حتى البكاء.

قال لي دون خوان ذات مرة: "يبكي الساحر عندما يتجزاء". "عندما يكتمل الأمر، يصاب بقشعريرة لديها القدرة، نظراً لشدتها، على إنهاء حياته."

لقد شعرت بقشعريرة شديدة! شككت في أنني سألتقي بزملائي مرة أخرى. بدا لي أنهم جميعاً قد غادروا مع دون خوان. كنت وحيداً. أردت أن أفكر في الأمر، وأن أحزن على خسارتي، وأن أغرق في حزن مُرض بالطريقة التي كنت أفعلها دائماً. لم أستطع. لم يكن هناك ما يدعو للحزن، ولا ما يدعو للشعور بًالأسى. لم يكن لأي شيء أهمية. كنا جميعًا محاربين مسافرين، وكلنا ابتلعتنا اللانهائية.

طوال الوقت، كنت قد استمعت إلى دون خوان يتحدث عن المحارب المسافر. لقد أعجبني الوصف

كثيرًا، وتعرفت عليه على أساس عاطفي بحت. ومع ذلك، لم أشعر قط بما كان يعنيه حقاً بذلك، بغض النظر عن عدد المرات التي شرح لي فيها معناه. في تلك الليلة، على طاولة مطعم شيب، عرفت ما كان دون خوان يتحدث عنه. كنتُ محاربًا مسافرا. فقط الحقائق الحيوية كانت ذات مغزى بالنسبة لي. أما الباقي فكان مجرد زخارف لا أهمية لها على الإطلاق.

في تلك الليلة، بينما كنت أجلس أنتظر طعامي، خطرت ببالي فكرة أخرى واضحة. شعرت بموجة من التعاطف، وموجة من التماهي مع فرضيات دون خوان. لقد وصلت أخيراً إلى هدف تعاليمه: لقد أصبحت واحداً معه كما لم أكن من قبل. لم يكن الأمر قط أنني كنت أحارب دون خوان أو مفاهيمه، التي كانت ثورية بالنسبة لي لأنها لم تكن تفي بالخطية في أفكاري كرجل غربي. بل إن دقة دون خوان في عرض مفاهيمه كانت دائماً تثير في نفسي الخوف الشديد. بدا أن كفاءته كانت بمثابة تعصب أعمى. كان ذلك المظهر هو الذي أجبرني على البحث عن توضيحات، وجعلني أتصرف طوال الوقت كما لو كنت مؤمناً متردداً.

نعم، لقد قفزت في هاوية، قلت لنفسي، ولم أمت لأنني قبل أن أصل إلى قاع ذلك الوادي تركت بحر الوعي المظلم يبتلعني. استسلمت للأمر، دون خوف أو ندم. وقد زودني ذلك البحر المظلم بكل ما كان ضرورياً لكي لا أموت، بل لكي أنتهي في سريري في لوس أنجلوس. هذا التفسير لم يكن ليفسر لي شيئاً قبل يومين. في الساعة الثالثة صباحاً، في شيب، كان ذلك يعني لي كل شيء.

ضربت بيدي على الطاولة كما لو كنت وحدي في الغرفة. نظر إليّ الناس وابتسموا ابتسامة ذات مغزى. لم أبالي. كان ذهني منصباً على معضلة لا حل لها: لقد كنت على قيد الحياة على الرغم من حقيقة أنني قفزت في هاوية لأموت قبل عشر ساعات. كنت أعلم أن مثل هذه المعضلة لا يمكن حلها أبداً. كان إدراكي الطبيعي يتطلب تفسيراً خطياً لكي يرضيني، ولم تكن التفسيرات الخطية ممكنة. كان ذلك جوهر انقطاع الاستمرارية. قال دون خوان إن ذلك الانقطاع كان سحراً. أدركت هذا الآن، بوضوح قدر استطاعتي. كم كان دون خوان محقاً عندما قال إنه لكي أبقى في الخلف، كنت بحاجة إلى كل قوتي، وكل صبري، وقبل كل شيء، إلى شجاعة المحارب المسافر الفولاذية.

أردتُ أن أفكر في دون خوان، لكنني لم أستطع. فضلاً عن ذلك، لم أكن أهتم لأمر دون خوان. بدا وكأن هناك حاجزاً عملاقاً بيننا. لقد آمنت حقاً في تلك اللحظة بأن الفكرة الغريبة التي كانت تتسلل إليّ منذ أن استيقظت كانت صحيحة: لقد كنت شخصاً آخر. حدث تبادل للأحداث لحظة قفزتي. وإلا لكنت استمتعت بالتفكر في دون خوان؛ لكنت اشتقت إليه. بل كنت سأشعر بشيء من الاستياء لأنه لم يأخذني معه. كان ذلك سيكون حالي الطبيعي. بصراحة، لم يكن الأمر نفسه. اكتسبت هذه الفكرة زخماً حتى غزت كياني كله. أي بقايا من شخصيتي القديمة التي ربما احتفظت بها قد اختفت حينها.

ساد جو جديد. كنت وحيداً! تركني دون خوان داخل حلم بصفتي عميله المحرض. شعرتُ بأن جسدي بدأ

يفقد صلابته؛ أصبح مرناً تدريجياً، حتى تمكنت من التنفس بعمق وحرية. ضحكت بصوت عالٍ. لم أهتم بأن الناس كانوا يحدقون بي ولم يبتسموا هذه المرة. كنت وحيداً، ولم يكن بإمكاني فعل أي شيء حيال ذلك!

شعرتُ بإحساس جسدي وكأنني دخلتُ ممراً، ممراً له قوة خاصة به. لقد جذبني. كان ممرًا صامتًا. كان دون خوان ذلك الممر، هادئاً وواسعاً. كانت هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها أن دون خوان كان خالياً من القوة البدنية. لم يكن هناك مجال للعاطفة أو الحنين. لم يكن من الممكن أن أغفله لأنه كان موجوداً كعاطفة مجردة من الشخصية جذبتني إليه.

لقد شكل الممر تحدياً لي. شعرتُ بنشوةٍ وراحة. نعم، يمكنني السفر عبر ذلك الممر، بمفردي أو بصحبة آخرين، وربما إلى الأبد. ولم يكن القيام بذلك عبئاً عليّ، ولم يكن متعة بالنسبة لي. لقد كان الأمر أكثر من مجرد بداية الرحلة الحاسمة، والمصير المحتوم للمحارب المسافر، بل كان بداية حقبة جديدة. كان من المفترض أن أبكي تأثراً باكتشافي ذلك الممر، لكنني لم أفعل. كنت أواجه اللانهائية في شيب! يا له من أمر استثنائي! شعرت بقشعريرة في ظهري. سمعت صوت دون خوان يقول إن الكون بالفعل لا يمكن فهمه.

في تلك اللحظة، انفتح الباب الخلفي للمطعم، الباب المؤدي إلى موقف السيارات، ودخل شخص غريب الأطوار: رجل ربما في أوائل الأربعينيات من عمره، أشعث وهزيل، لكن بملامح جميلة إلى حد ما. كنت أراه لسنوات يتجول في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، ويختلط بالطلاب. أخبرني أحدهم أنه كان مريضاً خارجياً في مستشفى المحاربين القدامى القريب. بدا أنه يعاني من اضطراب عقلي. كنت أراه مراراً وتكراراً في مقهى شيب، منكباً على فنجان قهوة، دائماً في نفس نهاية المنضدة. لقد رأيت أيضاً كيف كان ينتظر في الخارج، ينظر من خلال النافذة، ويترقب حتى يصبح مقعده المفضل شاغراً إذا كان هناك شخص يجلس عليه.

عندما دخل المطعم، جلس في مكانه المعتاد، ثم نظر إليّ. تلاقت أعيننا. وفجأة، أطلق صرخة هائلة أرعبتني وأرعبت كل من كان حاضراً حتى النخاع. نظر إلي الجميع بعيون متسعة، وكان بعضهم يحمل طعاماً لم يمضغه بعد في أفواههم. من الواضح أنهم ظنوا أنني صرخت. لقد أرست هذه السوابق بضربي على المنضدة ثم ضحكي بصوت عالٍ. قفز الرجل من على مقعده وركض خارج المطعم، ثم استدار ليحدق بي بينما كان يلوح بيديه بحركات مضطربة فوق رأسه.

استسلمت لرغبة جامحة وركضت خلف الرجل. كنت أريده أن يخبرني بما رآه فيّ والذي جعله يصرخ. تجاوزته في موقف السيارات وسألته أن يخبرني لماذا صرخ. غطى عينيه وصرخ مرة أخرى، بصوت أعلى. كان مثل طفل خائف من كابوس، يصرخ بأعلى صوته. تركته وعدت إلى المطعم.

"ماذا حدث لكِ يا عزيزتي؟" سألت النادلة بنظرة قلقة: "ظننت أنك هربت مني."

قلت: "لقد ذهبتُ فقط لرؤية صديق".

نظرت إليّ النادلة وأبدت إيماءة تظاهرت فيها بالانزعاج والمفاجأة. "هل هذا الرجل صديقك؟" سألت.

قلت: "صديقي الوحيد في العالم"، وكانت تلك هي الحقيقة، إذا كان بإمكاني تعريف "الصديق" بأنه شخص يرى ما وراء القشرة التي تغطيك ويعرف من أين أتيت حقًا.

النهاية